ف. إ. لينين

في الأدب والفن

الجزء الأول

ترجمة عن الروسية:
يوسف حلاق

المكتبة التقدمية

ف. إ. لينين

في الأدب والفن

ترجمة عن الروسية:

يوسف حلّاق

منشورات وزارة الثقافة

دمشق — ١٩٧٢

المسائل العامة

مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة [1]

تثير تعاليم ماركس ، في العالم المتمدن كله ، عداء العلم البرجوازي ، الرسمي والليبيرالي ، وحقده الكبيرين . إذ انه يرى في الماركسية نوعاً من «بدعة ضارة» ، ولا يمكننا أن نتوقع من هذا العلم موقفاً آخر ، فلا يمكن أن يوجد في مجتمع قائم على الصراع الطبقي علم «غير متحيز» ، فالعلم الرسمي ، والليبيرالي منه ، يدافع كله بشكل أو بآخر عن عبودية العمل المأجور ، في حين أن الماركسية أعلنت حرباً لا هوادة فيها على هذه العبودية . انها لسذاجة بليدة أن نتوقع علماً غير متحيز في مجتمع قائم على عبودية العمل المأجور ، كسذاجة من يتوقع من أصحاب المصانع عدم التحيز في مسألة ما إذا كان يجدر بهم أن يقللوا من أرباحهم ليزيدوا من اجور العمال .

ولكن هذا غير كاف ، فتاريخ الفلسفة وتاريخ علم الاجتماع يظهران بوضوح كامل أنه لا يوجد في الماركسية شيء يشبه «البدعة» بمعنى تعاليم مغلقة على نفسها وجامدة ، نشأت بمعزل عن الخط الرئيسي لتطور الحضارة العالمية . بل بالعكس فإن عبقرية ماركس كلها تقوم ، بالضبط ، في أنه قدم أجوبة للمسائل التي كان الفكر الانساني التقدمي قد طرحها . وكانت تعاليمه امتداداً مباشراً وطبيعياً لتعاليم كبار ممثلي الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية .

إن تعاليم ماركس كلية القدرة لأنها صحيحة . إنها كاملة ومحكمة البنيان تعطي الناس نظرة متكاملة الى الكون ، لا تهادن أي خرافات أو رجعية أو أي دفاع عن الظلم البرجوازي . إنها الوريث الشرعي لأفضل ما أبدعته الانسانية في القرن التاسع عشر متمثلاً في الفلسفة الالمانية والاقتصاد السياسي الانكليزي والاشتراكية الفرنسية .

وسنتوقف قليلاً عند هـذه المصادر الثلاثة للماركسية التي تؤلف في الوقت نفسه مكوناتها الثلاثـة .

- ١ -

إن المادية هـي فلسفة الماركسية . وعلى امتداد تاريـخ أوربا الحديث ، وخصوصاً في فرنسا نهاية القرن الثامن عشر ، حيث احتدمت معركة حـاسمة ضد نفايات القرون الوسطى كلهـا ، ضد الاقطـاعية في المؤسسات والافكار ، كانت المادية الفلسفة الوحيدة المتماسكة والأمينة لتعاليم العلوم الطبيعية كلها ، والمعـادية للخرافات والمراءاة وغيرها .. ولهذا السبب حاول أعداء الديمقراطية بكل قواهم أن « يدحضوا » المادية وينسفوها ويفتروا عليها . وقد دافعوا عن مختلف اشكال المثالية الفلسفية التي تنتهي بشكل أو بآخر الى حماية الدين أو دعمه .

لقد ذاد ماركس وانغلز بكل حزم عن المادية الفلسفية ، وأوضحا أكثر من مرّة الخطأ الفادح في أي انحراف عن هذا الاساس . وقد بُسِطَت آراؤهما بأكثر مـــا يكون وضوحـاً وتفصيلاً في مؤلـّفي انغـلز « لودفيـغ فيورباخ » و « ضد ديوهرنـغ » اللذين يعتبران ، كالبيـان الشيوعي ، المرجـع لكل عامل ٍ واع ٍ.

لكن ماركس لم يقف عند مادية القرن الثامن عشر ، بـل دفع بالفلسفة الى الامام ، فأغناها بانجـازات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، وخصوصاً فلسفة هيغل التي أدت بدورها الى مادية فيورباخ . وأهم هـذه الانجازات الديالكتيك أي نظرية التطور في شكله الاكثر كمالاً وعمقاً وبعداً عن النظرة الاحادية الجانب ، نظريةُ نسبية المعرفة الانسانية التي تعطينا انعكاساً للمادة المتطورة أبداً . وقـــد أكدت الاكتشافـات الجديدة في العـلوم الطبيعية (الراديوم ، الالكترونات ،

تحوّل العناصر) مادية ماركس الديالكتيكية تأكيداً رائعاً على الرغم من تعاليم الفلاسفة البرجوازيين ومحاولاتهم العودة « من جديد » الى المثالية القديمة والعفنة .

إن ماركس ، بتعميقه وتطويره المادية الفلسفية ، قد أوصلها الى غايتها ، فجعلها تشمل معرفة المجتمع الانساني إلى جانب معرفة الطبيعة . ولهذا كانت مادية ماركس التاريخية أعظم منجزات الفكر العلمي ،فاستُبْدلتْ الفوضى والعشوائية السائدتان حتى الآن في النظرة إلى التاريخ والسياسة بنظرية علمية مدهشة في تكاملها وإحكام بنيانها ، تظهر كيف ينشأ ويتطور من وضع اجتماعي وضع آخر أرقى نتيجة نمو قوى الانتاج . فالرأسمالية ، مثلاً ، تنشأ من الاقطاعية .

وتعكس معرفة الانسان الاجتماعية (أي مختلف النظريات والتعاليم الفلسفية والدينية والسياسية وغيرها) بنية المجتمع الاقتصادية ، تماماً كما تعكس معرفته الطبيعة ، أي المادة المتطورة بشكل مستقل عنه . فالمؤسسات السياسية ليست الا بنية فوقية لاساس اقتصادي . ونحن نرى مثلاً كيف أن الاشكال السياسية المختلفة للدول الاوروبية المعاصرة تهدف الى تمكين سيطرة البرجوازية على البروليتاريا .

إن فلسفة ماركس هي المادية الفلسفية وقد بلغت كمالها ، وهي تضع بين يدي الانسانية ، والطبقة العاملة بوجه خاص ، أدوات عظيمة للمعرفة .

- ٢ -

بعد أن أعلن ماركس أن البنية الاقتصادية هي الاساس الذي تقوم عليه البنية الفوقية السياسية ، خصص جل اهتمامه لدراسة هذه البنية الاقتصادية. ومؤلفه الرئيسي (الرأسمال) مكرس لدراسة بنية المجتمع المعاصر (أي الرسمالي) الاقتصادية .

نشأ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي قبل ماركس في انكلترا ، أكثر البلدان الرأسمالية تطوراً . فقد وضع آدم سميث ودافيد ريكاردو أساس نظرية القيمة من حيث العمل ، حين بحثا في البنية الاقتصادية . وأكمل ماركس عملهما فطور هذه النظرية تطويراً متماسكاً وأرساها على أسس ثابتة ، موضحاً أن قيمة أي سلعة تحُدد بكمية زمن العمل الاجتماعي الضروري لإنتاجها .

لقد كشف ماركس عن علاقة بين الناس حيث رأى الاقتصاديون البرجوازيون علاقة بين الاشياء (ابدال سلعة بسلعة) . إن تبادل السلع يعبر عن علاقة بين بعض المنتجين بواسطة السوق بينما يعني النقد أن هذه العلاقة أصبحت أوثق ، وذلك بربطها الحياة الاقتصادية لهؤلاء المنتجين وصهرها في كل واحد . أما رأس المال فيعني تطوراً أبعد لهذه العلاقة ، إذ تصبح قوة العمل عند الانسان سلعة . فالعامل المأجور يبيع قوة عمله لصاحب الارض أو المعمل أو أدوات العمل . فالعامل يصرف جزءاً من يوم عمله ليغطي نفقات عيشه وعيش أسرته (الاجرة) ، بينما يعمل القسم الآخر من يومه دون مقابل ، خالقاً بذلك فضل القيمة للرأسمالي ، أي مصدر ربح وغنى طبقة الرأسماليين . وهكذا فإن فضل القيمة هو حجر الزاوية في نظرية ماركس الاقتصادية .

إن رأس المال الناشىء من عمل العامل يسحق العامل ويخرّب صغار الملاّك ويخلق جيشاً من العاطلين ، وانتصار الانتاج الكبير في الصناعة ظاهرة بارزة للعيان مباشرة . ولكننا نرى في الزراعة ايضاً الظاهرة نفسها ، إذ يزداد تفوق الزراعة الرأسمالية الكبيرة وينمو استعمال الآلات ، فتتسع الاستثمارات الفلاحية تحت وطأة رأس المال النقدي ، ويفلس هذا الرأسمال تحت وطأة التقنية المتخلفة . وتختلف أشكال هذا

الانهيار في الانتاج الصغير ، وفي الزراعة عنها في الصناعة ، لكن الانحطاط نفسه واقع لا شك فيه .

ويؤدي رأس المال ، بتحطيمه للانتاج الصغير ، الى زيادة إنتاجية العمل ، والى خلق وضع احتكاري لاتحادات كبار الرأسماليين . ويصبح الانتاج اجتماعياً أكثر مما كان ، إذ يشد مئات آلاف العمال وملايينهم الى جهاز اقتصادي منظم ، بينما تستأثر حفنة من الرأسماليين بنتاج العمل العام ، وتشتد فوضى الإنتاج والأزمات والركض المحموم وراء الأسواق وعدم ضمان العيش لسواد الناس .

إن النظام الرأسمالي يخلق قوة عظيمة من العمل الموحد ، إذ يزيد من ارتباط العمال برأس المال .

وقد تابع ماركس تطور الرأسمالية من بذورها الأولى في اقتصادالسلعة ، من التبادل البسيط حتى أشكالها العليا ، أي الانتاج الكبير .

وتظهر تجربة البلدان الرأسمالية كلها قديمها وحديثها بكل وضوح وسنة بعد اخرى صحة تعاليم ماركس لأعداد متزايدة من العمال .

لقد انتصرت الرأسمالية في العالم بأسره ، لكن هذا الانتصار ليس إلا مقدمة لانتصار العمل على رأس المال .

- ٣ -

عندما سقطت الاقطاعية ورأى المجتمع الرأسمالي « الحر » النور ، تبين مباشرة أن هذه الحرية تعني نظاماً جديداً من اضطهاد الكادحين واستغلالهم ، ولم تلبث أن نشأت تعاليم اشتراكية مختلفة انعكاساً لهذا الظلم واحتجاجاً عليه . لكن الاشتراكية الأولى كانت في البدء اشتراكية طوباوية إذ كانت تنتقد المجتمع الرأسمالي وتدينه وتلعنه ، وتحلم بتقويضه وبنظام أفضل ، محاولة إقناع الأغنياء بلاأخلاقية الاستغلال .

لكن الاشتراكية الطوباوية لم تستطع ان تشير الى المخرج الحقيقي. لم تعرف ان تبيّن ماهية عبودية العمل المأجور في الرأسمالية، ولا أن تكتشف قوانين تطوره، او تجد تلك القوة الاجتماعية القادرة على ان تصبح خالقة المجتمع الجديد.

وفي الوقت نفسه فإن الثورات العاصفة التي رافقت سقوط الاقطاعية في كل مكان من اوروبا، وخصوصاً في فرنسا، كشفت بوضوح متزايد عن أن صراع الطبقات هو أساس التطور كله وقوته المحركة.

فما من انتصار انتزعته الحرية السياسية من طبقة الاقطاعيين بدون مقاومة مستميتة. وما من بلد رأسمالي قام على اساس حر ديمقراطي، الى هذا الحد او ذاك، دون صراع حياة أو موت قام بين مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي.

ومن عبقرية ماركس أنه اول من استخلص هذه النتيجة التي يعلمنا إياها التاريخ البشري كله، وطبقها تطبيقاً متماسكاً الى النهاية. وهذه النتيجة هي نظرية الصراع الطبقي.

لقد كان الناس دائماً وسيبقون أبداً، في السياسة، ضحايا أغبياء لخداع الآخرين وخداع النفس ما لم يتعلموا أن يبحثوا عن مصالح هذه الطبقة او تلك وراء التعابير والتصريحات والوعود الاخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية. وسيظل المدافعون عن القديم يخدّرون دعاة الإصلاح والتحسين ما لم يفهم هؤلاء أن أية مؤسسة قديمة، مهما بدت متعفنة ومتوحشة، تستند الى قوى هذه الطبقة المسيطرة او تلك. ولا سبيل لسحق مقاومة هذه الطبقات إلا بوسيلة واحدة فقط، هي ان نجد في المجتمع المحيط بنا نفسه قوى تستطيع ان تشكّل — لا بل من واجبها بحكم وضعها الاجتماعي ان تشكّل — القوة القادرة على محو القديم وخلق الجديد، ومن ثم تثقيف هذه القوة وتنظيمها للنضال.

مادية ماركس الفلسفية هي وحدها التي دلت البروليتاريا على مخرج من العبودية الروحية التي غرقت فيها الطبقات المضطهدة حتى الآن . ونظرية ماركس الاقتصادية هي وحدها التي أوضحت الوضع الحقيقي للبروليتاريا في البنية العامة للرأسمالية .

إن المنظمات البروليتارية المستقلة تتكاثر في العالم كله ، من اميركا الى اليابان ، ومن السويد حتى جنوب افريقيا . وتتعلم البروليتاريا وتتربى وتتحرر من أوهام المجتمع البرجوازي، وتزداد تلاحماً على الدوام فيما هي تمارس نضالها الطبقي وتتعلم ان تحدد مدى انتصاراتها وتعزّز قواها وتنمو نمواً لا يقاوم .

طبعت في آذار ١٩١٣

المؤلفات الكاملة ، الطبعة الخامسة جزء ٢٣ ص(٤٠-٤٨)(*)

(*) سنكتفي فيما بعد بذكر الجزء والصفحة فقط .

من كتاب

« المادية والتجربية الانتقادية »

« ملاحظات انتقادية حول احدى الفلسفات الرجعية »٢

... يعلن انغلز في مؤلفه « لودفيغ فيورباخ » ان المادية والمثالية هما الاتجاهان الرئيسيان في الفلسفة . فالمادية تعتبر ان الأولوية للطبيعة وأن الروح هي الثانوية أي تضع الوجود في المقام الأول والتفكير في المقام الثاني . أما المثالية فتقف موقفاً عكسياً . ويضع انغلز في رأس الزاوية هذا الفرق الجذري « بين المعسكرين الكبيرين » اللذين ينقسم اليهما فلاسفة «مختلف مدارس» المثالية والمادية. وهو يتهم اتهاماً مباشراً بالتضليل من يستعمل بغير هذا المعنى تعبيري المادية والمثالية.

يقول انغلز إن المسألة الأولى في الفلسفة كلها ، والسؤال الجوهري الأعظم في الفلسفة كلها ، وخصوصاً الفلسفة الحديثة ، هو علاقة التفكير بالوجود، علاقة الروح بالطبيعة .

وبعد ان يقسم انغلز الفلاسفة الى « معسكرين كبيرين » من حيث موقفها من هذه المسألة الرئيسية ، يشير الى « وجود جانب آخر »من هذه المسألة الفلسفية الرئيسية ، هو على وجه التحديد : « ما هي علاقة أفكارنا عن العالم المحيط بنا بهذا العالم نفسه ؟ هل بإمكان تفكيرنا أن يعرف العالم الواقعي ؟ وهل نستطيع بتصوراتنا ومفاهيمنا عن هذا العالم الواقعي أن ننشىء انعكاساً أميناً للواقع » (*).

(*) يترجم تشيرنوف كلمة Spiegelbild الالمانية الى « انعكاس كما في المرآة » ويتهم بليخانوف بأنه ينقل نظرية انغلز « نقلاً ضعيفاً الى درجة كبيرة » حين يترجم الكلمة الى « انعكاس » فقط وليس الى « انعكاس كما في المرآة » وهذه مماحكة بلا سبب إذ أن كلمة Spiegelbild تستعمل في الالمانية بمعنى Abbild أي انعكاس ، تصوير ، صورة .

(هيئة التحرير)

ويقول انغلز: « ان الغالبية العظمى من الفلاسفة تحل هـــذه المسألة حلاً ايجابياً ». وهو لا يعني بذلك الماديين فقط ، بل أكثر المثاليين تماسكاً ، كالمثالي المطلق هيغل الذي يعتبر العــالم تحقيقاً « لفكرة مطلقة » أزلية سابقة في حين أن الروح الانساني يتعرف في العالم الواقعي، ومن خلاله حين يعرفه معرفة صحيحة، إلى « الفكرة المطلقة » . « والى جانب هذا » (اي الى جانب الماديين والمثاليين المتماسكين) « توجد مجموعة من الفلاسفة الآخرين الذين يشككون في امكانية معرفة العالم ، او على الاقل معرفته معرفة كاملة . ومن هؤلاء هيوم وكنط من الفلاسفة المحدثين وقد لعبا دوراً هاماً جداً في التطور الفلسفي[٣] » ...

وبعد ان يشير انغلز الى أن هيغـــل أورد حججاً « حاسمة » ضد هيوم وكنط ، وان فيورباخ أكمل هـذه الحجج بملاحظات ذكية أكثر مما هي عميقة يتابـع كلامـــه فيقول : « إن الدحض الحاسم لهذه الترهات الفلسفية وغيرهـا هي الممارسة ، وبالضبط التجربة ، الصناعـة . فاذا كنا نستطيـع أن نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية معينة بأن نحدثها ، نستدعيها من ظروفها ذاتها ونجعلها فوق ذلك ، تخدم أهدافنا ، تكون نهاية « الشيء في ذاته » الذي لا يدرك بحسب كنط قد حلت . (« unfassbaren الذي لا يدرك » هذه الكلمة الهامة قـد أسقطها كل من بليخانوف وتشيرنوف في الترجمـة) . فالمواد الموجودة في أجسـام الحيوانات والنباتات بقيت «أشياء في ذاتها» الى ان بدأت الكيمياء العضوية تحضرها الواحد تلو الآخر . وهكذا أصبحت الأشياء في ذاتها « أشياء من أجلنـــا » كالاليزارين مثلاً ، وهو المادة الملونة للفوة . فنحن نحصل عليه الآن لا من جذور الفوة النابتة في الحقل ، بل من قطران الفحم الحجري وبصورة أبسط وأرخص[٤] .

... يقول انغلز مباشرة وبوضوح إنه يعارض هيوم وكنط معاً ، مـع العلم أن هيوم لا يتكلم أبداً عن « أشياء في ذاتها لا يمكن أن تعرف » . فماهو

القاسم المشترك بينهما ؟ هو أنهما يعزلان مبدئياً « الظواهر » عما هو موجود (ظاهر) ، الاحساس عن موضوع الإحساس ، الشيء لأجلنا عن الشيء في ذاته ، مع العلم ان هيوم يعترف بشيء اسمه « الشيء في ذاته » ويعتبر ان هذه الفكرة غير واردة فلسفياً ، فهي ميتافيزيكية (كما يقول الهيوميون والكنطيون) ، أما كنط فيسلم بوجود « الشيء في ذاته » ولكنه يعلن أنه لا يمكن ان يعرف ، فهو متميز ، مبدئياً ، عن الظاهرة ، وانه ، من حيث المبدأ ، من مستوى مختلف ، هو العالم الآخر ، وانه مغلق على المعرفة مفتوح على الايمان .

ما هو جوهر اعتراضات انغلز ؟ بالأمس لم نكن ندري بوجود الأليزارين في قطران الفحم الحجري ، أما اليوم فنعرف بوجوده . ونتساءل هل كان الأليزارين موجوداً بالأمس في قطران الفحم ؟

أجل بالطبع ، واي شك في هذا ما هو إلا سخرية من العلوم الطبيعية المعاصرة . وإذا كان الجواب نعم فيمكننا ان نستخلص ثلاثة استنتاجات معرفية هامة :

١) توجد الأشياء مستقلة عن وعينا ، مستقلة عن احساسنا ، خارجنا . إذ من المؤكد أن الأليزارين كان موجوداً بالأمس في قطران الفحم الحجري ، ومن المؤكد ايضاً اننا لم نكن نعرف عن هذا الوجود ولم نكن نحسّ به .

٢) لا يوجد ولا يمكن أن يوجد قطعاً أي فرق مبدئي بين الظاهرة والشيء في ذاته . إن الفرق هو ، بكل بساطة ، بين ما عُرف وما لم يُعرف بعد . أما الاختلافات الفلسفية القائلة بوجود حدود خاصة بين الأمرين وبأن الشيء في ذاته يقع « خارج حدود الظواهر » (كنط) او بأن من الواجب والممكن ان يحيط الانسان نفسه بحاجز فلسفي يفصل ما بينه وبين مسألة عالم لم يعرف بعدُ

في هذا او ذاك من جوانبه ، لكنه موجود خارجاً عنا (هيوم) ، ليس هذا كله إلا هراءً وتلفيقاً .

٣) وفي نظرية المعرفة ، كما في فروع العلم الاخرى كلها ، علينا أن نفكر ديالكتيكياً ، اي علينا الا نفترض ان معرفتنا شيء جاهز لا يتبدل بل علينا أن نحلل كيف تنمو المعرفة من الجهل وكيف تصبح معرفتنا الناقصة غير الدقيقة أكمل وأدق . فاذا ما اخذتم بوجهة نظر تطور المعرفة الانسانية من الجهل سترون ان ملايين الامثلة البسيطة ، كاكتشاف ألاليزارين في قطران الفحم الحجري وملايين الملاحظات المأخوذة ليس فقط من تاريخ العلم والتقنية بل من حياة كل فرد منا ، تبين للانسان تحول « الاشياء في ذاتها » إلى « أشياء من أجلنا » ، نشوء « الظواهر » عندما تتلقى حواسنا منبهات خارجية من هذا الشيء أو ذاك ، وزوال « الظواهر » حين يمنع عائق ما شيئاً معروفاً وجوده بالنسبة لنا من قبل ، من امكانية التأثير على حواسنا . والنتيجة الوحيدة والحتمية لهذا كله ، النتيجة التي يستخلصها الناس كلهم في ممارستهم الانسانية الحية ، والتي تضعها المادية عن وعي في اساس نظريتها المعرفية ، هي ان الاشياء والاجسام والمواد توجد خارجنا ومستقلة عنا او ان حواسنا صور للعالم الخارجي ...

... المادة مقولة فلسفية تدل على واقع موضوعي معطى للإنسان في حواسه ، وهذه الحواس تنسخ هذا الواقع وتصوره (فوتوغرافياً) مع وجوده مستقلاً عنها . ولذا فالقول بأن هذا المفهوم قد « يشيخ » ليس إلا كلام أطفال، ليس إلا ترديداً « ببغاوياً » لحجج الفلسفة الرجعية الشائعة هذه الأيام . فهل شاخ صراع المثالية والمادية خلال ألفي عام من تطور الفلسفة ؟ أو صراع اتجاهات افلاطون وديمقريط في الفلسفة؟ أو صراع الدين والعلم ؟ أو نفي الحقيقة الموضوعية والاعتراف بها ؟ أو صراع أنصار المعرفة فوق الحسية مع أعدائهم ؟

إن القبول بمفهوم المادة أو رفضه مسألة تتعلق بثقة الإنسان في معطيات حواسه ، وبمصدر معرفتنا . وهي مسألة طرحت ونوقشت منذ نشوء الفلسفة ، ويستطيع الأساتذة المهرجون أن يلبسوها ألف زي وزي ، لكنها لا يمكن أن تشيخ ، تماماً كما لا يمكن أن تشيخ مسألة ما إذا كان مصدر المعرفة الإنسانية هو النظر واللمس ، السمع ، والشم . أن نعتبر حواسنا صوراً للعالم الخارجي — أن نأخذ بالنظرية المادية في المعرفة ـ أن نعترف بالحقيقة الموضوعية ـ هذا كله شيء واحـــد . . . .

... وهكذا فإن التفكير الإنساني قادر بطبيعته ذاتها أن يعطينا الحقيقة المطلقة المكونة من مجموع حقائق نسبية . وتضيف كل مرحلة من مراحل تطور العلم بذوراً جديدة إلى حاصل الحقيقة المطلقة . لكن حدود الحقيقة لأي موضوعة علمية هي حدود نسبية ، قد تضيق أو تتسع تبعاً لتطور المعرفة اللاحق . . .

إن حدود اقتراب معارفنا من الحقيقة الموضوعية المطلقة مشروطة تاريخياً في نظر المادية المعاصرة ، أي الماركسية . أما ما هو غير مشروط فوجود هذه الحقيقة واقترابنا المستمر منها . أطر اللوحة مشروطة تاريخياً ولكن غير المشروط هو أن هذه اللوحة تصور نموذجاً أولياً موجوداً وجوداً موضوعياً . إن المشروط تاريخياً هو الزمن والظروف التي تحركت فيها معرفتنا لماهية الأشياء ، حتى توصلنا إلى اكتشاف الأليزارين في قطران الفحم الحجري ، وإلى اكتشاف الإلكترونات في الذرة . ولكن ما هو غير مشروط أن أي اكتشاف جديد ما هو إلا خطوة إلى الأمام ، تخطوها « المعرفة الموضوعية حتماً » . وبكلمة ، فإن أي ايديولوجيا مشروطة تاريخياً ، ولكن ما هو غير مشروط أن أي ايديولوجيا علمية (تمييزاً لها من الدينية مثلاً) تقابل حقيقة موضوعية ، طبيعة مطلقة .

وقد تقولون إن هذا التفريق بين الحقيقتين ، المطلقة والنسبية ، « غير محدد » ،

وجوابي : انه غير محدد بقدر يكفي ليمنع العلم من أن يتحول إلى عقيدة (بالمعنى السيء لهذه الكلمة) ، إلى شيء ميت ، متحجر ، جامد ، ولكنه في الوقت نفسه « محدد » بالقدر اللازم ليتميز بشكل حاسم ونهائي عن الإيمانية واللاأدرية ، عن المثالية الفلسفية ، وعن سفسطة أتباع هيوم وكنط .

لقد أوضح هيغل أن الديالكتيك يتضمن وقت النسبية ، النفي ، الشك ، ولكنه لا يقتصر على النسبية وحدها . والديالكتيك عند ماركس وانغلز يتضمن قطعاً النسبية ، ولكنه لا يقتصر عليها ، أي أنه يعترف بنسبية معارفنا كلها ، لا بمعنى نفي الحقيقة الموضوعية ، بل بمعنى الشرطية التاريخية لحدود اقتراب معارفنا من هذه الحقيقة .

ومن الواجب أن تكون وجهة نظر الحياة والممارسة هي الأولى والأساسية في نظرية المعرفة . وتؤدي هذه النظرة بالضرورة إلى المادية ، إذ ترفض منذ البداية اختلاقات الأساتذة السكولاستيكين التي لا حصر لها.. وعلينا ألاّ ننسى بالطبع أن مقياس المعرفة لا يستطيع بطبيعته ان يؤكد او يدحض تماما أي تصور انساني مهما كان . فهذا المقياس غير محدد هو الآخر بقدر لا يسمح لمعارف الإنسان أن تتحول إلى « مطلق »، ومحدد في الوقت نفسه ، لدرجة تمكنه من أن يقود نضالاً لا هوادة فيه ضد جميع أشكال المثالية واللاأدرية ...

... لقد تلقف ماخيونا الذين يودون أن يكونوا ماركسيين موضوعات بليخانوف في « الهيروغليف » أي نظريته القائلة بأن أحاسيس الإنسان وتصوراته ليست نسخة من الأشياء الواقعية ، وعمليات الطبيعة ليست تصويراً لها ، بل إشارات اصطلاحية ، رموزاً ، هيروغليفاً . الخ . . .

إن بازاروف يسخر من هذه المادية الهيروغليفية ، إلاّ أنه من الضروري أن نشير إلى أنه كان محقاً لو رفض المادية الهيروغليفية لصالح المادية غير الهيروغليفية

لكن بازاروف يستعمل مرةً أخرى أسلوب الشعوذة ، إذ يهرّب انفصاله عن المادية تحت علَم نقد « الهيروغليفية » . إن انغلز يتكلم لا عن الرموز ولا عن الهيروغليف ، بل عن النسخ والصور والتصوير وعكس الأشياء كما في مرآة . وبدل ان يظهر بازاروف الخطأ الكامن في تراجع بليخانوف عن المادية كما صاغها انغلز، نراه يستر حقيقة انغلز عن القراء بخطأ بليخانوف . . .

. . . إن الوجود الإجتماعي والوعي الإجتماعي ، تماماً كالوجود والوعي بشكل عام، ليسا متطابقين. واذا كان الناس يباشرون علاقات فيما بينهم، ويباشرونها بوصفهم كائنات واعية ، فلايعني هذا بأي شكل من الأشكال أن الوعي الاجتماعي مطابق للوجود الاجتماعي . فالناس لا يعون، وهم يباشرون علاقاتهم ، (مهما كانت البنى الاجتماعية معقدة وخصوصاً في المجتمع الرأسمالي) ما هي العلاقات الاجتماعية التي تنشأ من اتصالهم ، ولا القوانين التي تتطور بموجبها هذه العلاقات . فالفلاح الذي يبيع القمح مثلاً ، يباشر علاقة مع المنتجين العالميين للقمح في السوق العالمي، لكنه لا يعي هذا ولا يعي العلاقات الاجتماعية التي تنشأ من هذا التبادل . الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي ـ هذه هي نظرية ماركس ـ . قد يكون العكس نسخة أمينة إلى حدٍ كبير لما يُعكَسُ ، لكن الحديث عن التطابق ليس أمراً مقبولاً . الوعي يعكس بوجه عام الوجود . هذه هي الموضوعة العامة للمادية كلها ، ومن غير الممكن ألا نرى علاقتها المباشرة التي لا تنفصل بموضوعة المادية التاريخية القائلة بأن الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي. . .

. . . ان أي منتجٍ في الاقتصاد العالمي يعي أنه يدخل تغييراً ما في تقنية الانتاج، واي مالك يعي انه يبادل منتوجات بأخرى ، لكنّ هؤلاء المنتجين وهؤلاء المالكين لا يعون انهم يغيرون بذلك الوجود الاجتماعي . وليس بمقدور (٧٠) ماركساً ان يحيطوا بجملة هذه التغيرات في تشعباتها كلها في الاقتصاد

الرأسمالي العالمي . الا ّ ان الشيء الأهم هو ان قوانين هذا التطور قد اكتشفت، وظهر المنطق الموضوعي لهذه التغيرات ولتطورّها التاريخي في عناصره الرئيسية والأساسية، وهذا المنطق الموضوعي ليس بمعنى ان مجتمع الكائنات الواعية - اي الناس - يستطيع ان يوجد ويتطور مستقلاً عن وجود كائنات واعية، (وبوغدانوف لا يؤكد بنظريته الا ّ على هذه السخافات) بل بمعنى ان الوجود الاجتماعي مستقل عن الوعي الاجتماعي للناس. فمن حيث أنكم تعيشون وتشتغلون، تلدون الاطفال وتنتجون المواد وتتبادلونها، تنشأ سلسلة من الحوادث ضرورية موضوعياً، سلسلة تطور مستقلة عن وعيكم الاجتماعي الذي لا يمكنه أبداً ان يحيط بها إحاطة كاملة . إن اكبر مهمة أمام الانسانية هي ان تحيط بالمنطق الموضوعي للتطور الاقتصادي (تطور الوجود الاجتماعي) في خطوطه العامة الرئيسية، حتى تكيف معه وعيها الاجتماعي ووعي الطبقات التقدمية في البلدان الرأسمالية كلها تكيفاً أكثر ظهوراً ووضوحاً ونقدية .

ويعترف بوغدانوف بهذا كله . فما معنى ذلك ! معناه انه يُسقط، عملياً، « تطابق الوجود الاجتماعي مع الوعي الاجتماعي » وتبقى نظريته إضافة فارغة وسكولاستيكية لا معنى لها، تماماً كنظرية التعويض والإبدال العام او نظرية العناصر إلى آخر هـــذا الهراء الماخي . « لكن الميت يمسك بالحي »، وإضافة بوغدانوف الميتة، السكولاستيكية، تحول نظريته، رغم ارادته وبشكل مستقل عن وعيه، إلى اداة تخدم امثال شوبرن وزولدرن وغيرهم من الرجعيين الذين يبشرون بألف شكل، ومن على مئات المنصات، بهذا الميت على انه حي، وضد الحي ليخنقوا الحي . إن بوغدانوف شخصياً هو عدو لدود لكل رجعية، وللرجعيـــة البرجوازية بشكل خاص . لكن نظريته في الابدال وتطابق الوجود الاجتماعي مع الوعي الاجتماعي تخدم الرجعية . وهذا واقع مؤسف، لكنه واقع .

المادية تعترف ، بوجه عام ، بالوجود الواقعي الموضوعي (المادة) مستقلاً عن وعي الانسان واحساسه وتجربته الخ . . والمادية التاريخية تعترف بالوجود الاجتماعي مستقلاً عن الوعي الاجتماعي للانسان . وفي كلتا الحالتين ليس الوعي الا عكساً للوجود ، وليس في احسن الاحوال الا عكساً أميناً على وجه التقريب (مساوياً ، دقيقاً بشكل مثالي) . وفي فلسفة الماركسية المسكوبة من قطعة واحدة من الفولاذ ، لا يمكننا ان نحذف اي شيء أساسي ، واي قسم جوهري ، دون ان نبتعد عن الحقيقة الموضوعية ودون ان نقع في احضان الدجل البرجوازي الرجعي .

... تتبعنا في كل ما أوردناه سابقاً من مسائل المعرفة والفلسفة التي طرحتها الفيزياء الحديثة ، وفي كل مسألة تطرقنا إليها ، الصراع القائم بين المادية والمثالية ، وكنا نكتشف في زحمة التلاعب بالتعابير الجديدة وراء نثار سكولاستيكية هيلر ، خطين رئيسين ، اتجاهين رئيسين في حل المسألة الفلسفية . هل نعتبر الطبيعة ، المادة ، ما هو فيزيائي ، العالم الخارجي اولياً ، والروح ، الوعي ، الإحساس (التجربة حسب التعبير الشائع في أيامنا) ، ما هو نفسي ثانوياً . هذه هي المسألة الجذرية التي لا زالت بالفعل تشق صفوف الفلاسفة الى معسكرين كبيرين . ومصدر آلاف وآلاف الأخطاء والتشويش في هذا المجال هو ، بالضبط ، اغفال هذين الاتجاهين الرئيسين وراء مظاهر التعابير والتحديدات والتلفيقات السكولاستيكية والتلاعب بالكلمات . (فبوغدانوف مثلاً لا يريد أن يعترف بمثاليته ، لهذا تراه يستبدل مفاهيم « غيبية ميتافيزيكية » « كالطبيعة » « والروح » بمفهوم التجربة الفيزيائية والنفسية . لقد استبدل كما ترون كلمة صغيرة بأخرى) .

وجوهر عبقرية ماركس وانغلز أنهما طورا المادية خلال فترة طويلة تقارب نصف قرن ، ودفعا الى الأمام باتجاه اساسي في الفلسفة ، ولم يقفا

عند تكرار مسائل معرفية محلولة ، بل طبقا هذه المادية نفسها على العلوم الاجتماعية تطبيقاً متماسكاً ، أي أظهرا كيف يجب تطبيقها ، مشيرين بدون هوادة إلى أن المحاولات التي لاحصر لها الهادفة إلى « اكتشاف » خط « جديد » في الفلسفة ، واختراع اتجاه جديد الخ .. ماهو إلا هراء ، لغو مزوق . إن الطابع اللفظي لهذه المحاولات والتلاعب السكولاستيكي بـ « ـ إيات » (isme —) فلسفية جديدة * وتشويه جوهر الموضوع باختلاقات غاية في التفنن، وعدم المقدرة على فهم صراع هذين الاتجاهين المعرفيين الجذريين ، والتصور الواضح له ، هو ما كان يتابعه انغلز وماركس ويحاربانه طوال فترة نشاطهما .

قلنا : قرابة نصف قرن ، لأنه في عام ١٨٤٣ بالفعل ، حينما لم يكن ماركس قد أصبح ماركساً ، أي مؤسساً للاشتراكية بوصفها علماً ، مؤسساً للمادية الحديثة الأغنى محتوى والأشد تماسكاً بما لا يقاس من أشكال المادية السابقة كلها ، في ذلك الوقت ألمح بوضوح مدهش إلى الاتجاهين الجذريين في الفلسفة ، إذ يورد كارل غرون رسالة من ماركس إلى فيورباخ بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٨٤٣ يدعوه فيها إلى كتابة مقال في مجلة « دوتش فرنزوسيش جهربوشره° » ضد شيلينغ . ويقول ماركس في رسالته : إن شيلينغ هـذا مغرور ، فارغ بادعائه الإحاطة بالاتجاهات الفلسفية السابقة كلها وتجاوزها، فهو، أي (شيلينغ) يقول للرومنطيقين والصوفيين الإفرنسيين : أنا وحدة الفلسفة واللاهوت ، وللماديين الافرنسيين :أنا وحدة الجسد والفكرة ، وللمتشككين الإفرنسيين : أنا هادم « العقائدية » . وكان ماركس يرى منذ ذلك الوقت أن « المتشككين » ، مهما اختلفت تسمياتهم (هيوميين أو كنطيين أو ماخيين في القرن العشرين) ، يزعقون ضد « العقائدية »

(*) المقصود بالإيات كل فلسفة أو مذهب اجتماعي تصاغ نهاية كلمته بالألف والياء والتاء مثل : اشتراكية ، هيجلية . الخ .

في المادية والمثالية معاً، وقد استطاع دون أن يؤخذ بواحدة من هذه النظم الفلسفية الوضيعة والكثيرة جداً، أن يسير من خلال فيورباخ على طريق المادية ضد المثالية. وبعد ذلك بثلاثين سنة ، يقابل ماركس ، في تذييله للطبعة الثانية للجزء الأول من « رأس المـــال » ، بالوضوح نفسه منهجه المادي بالمنهج الهيغلي ، أي المنهج المثالي الأكثر تطوراً وتماسكاً ، متجاوزاً باحتقار ، وضعية كونت ، وناعتاً الفلاسفة المعاصرين الذين يتوهمون أنهم حطموا هيغل ، بينما هم بالفعل يعاودون تكرار أخطاء كنط وهيوم قبل الهيغلية ، بالمقلدين البائسين .

كما يستخف ماركس في رسالة منه إلى كوغلمان بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٧٠ . ببوخنر ولانجي وديوهرنغ وفيختر لعدم استطاعتهم فهم ديالكتيك هيغل واستهانتهم به[٦] . وخذوا أخيراً ملاحظات ماركس الفلسفية المتفرقة في رأس المال وغيره من مؤلفاته ، تجدوا نغمة أساسية لا تتغير ، هي إصراره على المــــادية ، وسخريته من أي إخفاء لها وتشويش عليهـــا أو تراجع عنها نحو المثالية. وحول هذين المحورين الرئيسيين المتعارضين تدور ملاحظات ماركس الفلسفية كلها. ونقطة الضعف فيها، من وجهة نظر الفلسفة الأكاديمية ، تكمن في ضيق أفقهـا وأحادية جانبها . أما في الواقع ، فـان في هذا الرفض لإقامـة أي اعتبار لمشاريـع المصالحة بين المادية والمثاليـة يكمن الفضل الأعظم لماركس الذي سار في طريق فلسفية محددة بوضـوح .

ويقابل أنغلز في مؤلفاته الفلسفية كلها ، وبروح ماركس تماماً وبالتعاون الوثيق معه ، وبإيجاز ووضوح الخط المادي بالخط المثـالي ، في كافة المواضيـع ، دون أن يحمـــل على محمل الجد لا في عـام ١٨٧٨ ولا في ١٨٨٨ ولا في ١٨٩٢ المحاولات التي لا حصر لها، الهادفة إلى« تجاوز » أحادية الجانب في المادية والمثالية وإعلان خط جديد ، أكان ذلـــك « الوضعية » أو « الواقعية » أو أي شعوذة

أكاديمية أخرى. وقدشن انغلز صراعاً كاملاً ضد ديوهرنغ تحت شعار المادية المتماسكة متهماً المادي ديوهرنغ بتشويه جوهر القضية، بالتلاعب بالألفاظ، بالكلام الفارغ وبأساليب محاكاته التي تشكل تراجعاً أمام المثالية وانتقالاً إلى مواقع المثالية. فإما مادية متماسكة حتى النهاية وإما دجل المثالية الفلسفية وتشويهها - هكذا يطرح انغلز المسألة في كل مقطع من «ضد ديوهرنغ»، ولا يستطيع أن لا يلاحظ ذلك إلا أناس ذوو أدمغة أفسدتها الفلسفة الرجعية الأكاديمية. وحتى في عام ١٨٩٤، عندما كتب انغلز مقدمة «ضد ديوهرنغ» بطبعته الأخيرة المعاد النظر فيها والمضاف إليها، استمر يتتبع الفيزياء وعلم الطبيعة الحديثين، وظل يصر بالجزء السابق نفسه على موقفه الصلب والواضح، مشيراً إلى تلفيقات النظم والنظريات الصغيرة الجديدة.

ومن الواضح أن انغلز كان يتتبع الفلسفة الجديدة منذ كتابة «لودفيغ فيورباخ»، ففي مقدمة الكتاب لعام ١٨٨٨، يتكلم عن ظاهرة بعث الفلسفة الألمانية الكلاسيكية في انكلترا والبلاد الاسكندنافية. أما عن الكنطية والهيومية السائدتين، فليس لدى انغلز (في المقدمة وفي متن الكتاب) من كلمات إلا تلك التي تعبر عن منتهى الازدراء. ومن الجلي تماماً أن انغلز كان مستعداً، وهو يرصد ما تردده الفلسفة الإنكليزية والألمانية الشائعة من أخطاء الكنطية والهيومية القديمة العائدة إلى ما قبل هيغل، لأن ينتظر خيراً حتى من العودة إلى هيغل (في انكلترا أو البلاد الاسكندنافية)، آملاً أن يستطيع الديالكتيكي والواقعي الكبير المساعدة على رؤية الضلالات الميتافيزيكية والمثالية التافهة. ويرفض انغلز، مباشرة، التراجع الرئيسي للكنطية الجديدة في ألمانيا والهيومية في انكلترا عن المادية، دون أن يدخل في مناقشة العدد الكبير من الفروق داخل كل منهما، ويدعو مجمل الاتجاه في هاتين المدرستين «خطوة علمية إلى الوراء». وكيف يقيم الميل الذي لا شك في «وضعيته» (من وجهة نظر التعابير الشائعة) وفي «واقعيته» لهؤلاء

الوضعيين الجدد والهيوميين الذين يعرف واحداً منهم على الأقل هو هيكسلي ؟. هذه «الوضعية» وهذه «الواقعية» اللتان تغريان عدداً لا حصر له من المضللين، أعلن انغلز أنه يراهما، في أحسن الأحوال، أسلوباً مرائياً للتسلل إلى المادية سراً ثم التشهير بها علناً، ثم التبرؤ منها.

ويكفي أن نفكر لحظة بمثل هذا التقييم الذي قيّم به انغلز هيكسلي، أكبر عالم طبيعي، والأكثر وضعية وواقعية بما لا يقاس من ماخ وأفيناريوس وشركائها، لنفهم مقدار الازدراء الذي كان انغلز سيقابل به الشغف الحالي بالوضعية الحديثة والواقعية الحديثة عند فئة من الماركسيين.

كان ماركس وانغلز، منذ البداية وحتى النهاية، حزبيين في الفلسفة، وكانا يعرفان كيف يكتشفان أي تراجع عن المادية، واية مسايرة للمثالية والإيمانية في الاتجاهات «الحديثة» كلها. فلهذا قيما هيكسلي، من وجهة نظر الانسجام مع المادية حصراً. ولهذا أخذا على فيورباخ كونه لم يسر بالمادية حتى نهاية الشوط إذ ارتدّ عن المادية بسبب أخطاء بعض الماديين، وكونه حارب الدين بهدف تجديد أو إنشاء دين جديد، ولم يعرف أن يبتعد عن اللغو المثالي في علم الإجتماع ويصبح مادياً ...

... ومن سوء حظ الماخيين الروس أنهم، وقد فكروا «بالتوفيق» بين الماخية والماركسية، أولوا اساتذة الفلسفة الرجعيين كل ثقتهم، وبعدها أخذوا ينزلقون في منحدر خطر.

إن اساليب محاولاتهم في تطوير الماركسية وإكمالها كانت غير ذكية بالمرة. فهم يقرؤون اوستوالد، ويثقون باوستوالد، ويرددن اوستوالد، ثم يسمون هذا ماركسية. يقرؤون ماخ ويثقون بماخ ويرددون ماخ، ثم يسمون هذا ماركسية. يقرؤون بوانكاريه ويثقون ببوانكاريه ويرددون بوانكاريه

ويسمون هذا ماركسية ! لايمكن تصديق أي كلمة يتفوه بها أي من هؤلاء الاساتذة المؤهلين لأن يعطوا أثمن المعلومات في مجالات اختصاصهم ، سواء كانت الكيمياء أو التاريخ او الفيزياء ، عندما يتطرق الحديث الى الفلسفة ، لماذا ؟ للسبب نفسه الذي لا يجوز لنا بموجبه ان نثق بأي استاذ اقتصاد سياسي مؤهل لأن يقدم ابحاثاً قيمة جداً من حيث الوقائع ، عندما يتطرق الكلام الى النظرية العامة للاقتصاد السياسي. لأن الاقتصاد السياسي ، كنظرية للمعرفة ، علم حزبي في المجتمع المعاصر ، ولأن اساتذة الاقتصاد هم بالتمام والكمال « حانوتيون علماء » لدى طبقة الرأسماليين ، كما أن اساتذة الفلسفة حانوتيون علماء لدى اللاهوتيين .

ومهمة الماركسيين ، هنا وهناك ، ان يأخذوا ويتمثلوا منجزات هؤلاء « الحانوتيين » (فلن تخطوا خطوة واحدة في دراسة الظواهر الاقتصادية الجديدة ، مثلاً ، ما لم تستفيدوا من مؤلفات هؤلاء « الحانوتيين ») ثم ان يعرفوا كيف يجتثون اتجاههم الرجعي ، ويطبقون خطهم ويناضلون ضد خط القوى والطبقات المعادية لنا كله . وهـــذا ما لم يستطع ان يفعله ماخيونا الذين انقادوا انقياداً أعمى وراء الفلسفة الرجعية لهؤلاء الاساتذة . « قد نكون ضللنا ولكننا نبحث » هذا ما يقوله لونا تشارسكي باسم مؤلفي « مقالات[7] » .. لســـتم انـتم الذين تبحثون ولكنهم هم الذين يبحثون عنكم ، وهذه هي المصيبة ! لستم انتم الذين تتناولون من وجهة نظركم ، أي وجهـــة النظر الماركسية ، (فأنتم تودون ان تكونوا ماركسيين) كل انعطاف في تقليعات الفلسفة البرجوازية ، بل إن التقليعة هي التي تأتي اليكم وتفرض عليكم تزيفاتها المفعمة بروح المثالية ، اليوم على طريقة اوستوالد ، وغداً على طريقة ماخ ، وبعد غـــد على طريقة بوانكاريه . وتلك التحايلات « النظرية » الغبية (كالطاقة ، والعناصر الخ ..) التي تصدقونها بسذاجة تبقى في حدود مدرسة ضيقة . أما الاتجاه الفكري والاجتماعي لهـــذه التحايلات فإنه يحقق

ما يرمي اليه ، وهذا مايدركه،مباشرة، الأو وزديون، والتجريبيون الانتقاديون، وأصحاب نظرية التداخل ، واللاباتينيون ، والذرائعيون . إن الإفتتان بالتجربة الانتقادية والمثالية « الفيزيائية » يمر بسرعة ، كالافتتان بالكنطية الجديدة والمثالية « الفيزيولوجية » ، أما الايمانية فتغنم من مثل هذا الافتتان ، ملونة بألف لون تحايلاتها لمصلحة المثالية الفلسفية .

إن الموقف من الدين والموقف من العلوم الطبيعية يوضحان ، بشكل ممتاز ، هذا الاستخدام الطبقي الفعلي للتجربية الانتقادية من قبل الرجعية البرجوازية .

خذوا المسألة الأولى . ألا تعتقدون أنها محض صدفة ان يكون لوناتشارسكي قد توصل ، في مؤلف جماعي ضد فلسفة ماركس ، الى حد تأليه القدرات الانسانية العليا ، حتى « الإلحاد الديني » الخ ..؟

إذا كنتم تفترضون هذا ، فما ذلك إلا لأن الماخيين الروس لم يوضحوا للجمهور بشكل صحيح التيار الماخي كله في اوربا، وموقف هذا التيار من الدين . فنحن لا نجد شيئاً من هذا عند ماركس وانغلز وديتسغن أوحتى عندفيورباخ،بل نجد العكس مباشرة ، بدءاً من تصريحات بيتسولت الذي يقول إن التجربية الانتقادية لا تتعارض مع الايمان ولا مع الالحاد ، الى تصريح ماخ بأن الآراء الدينية قضية شخصية ، وانتهاءً بالايمانية الصريحة وبرجعية كورنيليوس السوداء الصريحة ، وهو الذي كان يمدح ماخ وماخ يمدحه ويمدح كاروس وأصحاب نظرية التداخل جميعا . وما حياد الفيلسوف ،في هذه المسألة،إلا خضوع للإيمانية،فلم يرتفع ماخ وأفيناريوس ولا كان بامكانهما ان يرتفعا الى أعلى من الحياد بسبب منطلقات نظريتهما في المعرفة .

بما أنكم تنكرون الواقع الموضوعي المعطى لنا في إحساسنا ، فقد فقدتم كل سلاح ضد الايمانية ، لأنكم تكونون قد انزلقتم الى اللاأدرية ، أو الذاتية ،

وهذا ما تحتاجه الايمانية . إذا كان العالم الحسي واقعاً موضوعياً ، فالباب مغلق أمام أي حقيقة أو شبه حقيقة اخرى (تذكروا أنّ بازاروف صدق بواقعية التداخليين الذين أعلنوا أن الله « مفهوم واقعي ») . واذا كان العالم مادة متحركة فمن الممكن والواجب دراسة هذه الحركة دراسة لا حدود لها في تجلياتها وأشكالها الجزئية المعقدة الى ما لا نهاية . ولكن خارج هذه المادة ، خارج العالم الفيزيائي ، « والخارجي » المعروف لنا جميعاً ، لا يمكن ان يوجد شيء . ان العداء للمادية وسيل الافتراءات الموجهة الى الماديين وكلّ هذا في اوربا ، اوربا المتمدنة والديمقراطية ، هو موضوع الساعة ولا يزال مستمراً حتى الآن ، ويخفيه عن الجمهور الماخيون الروس ، الذين لم يحاولوا ولو مرة واحدة ان يقارنوا تهجمات ماخ وأفيناريوس وبيسولت وشركاهم على المادية بتصريحات فيورباخ وماركس وانغلز وديتسغن لصالح المادية. غير ان « إخفاء » علاقة ماخ وأفيناريوس بالايمانية لن يساعدهم في شيء . ان الوقائع تفصح عن نفسها، ولن تستطيع جميع المحاولات في العالم ان تمحو العار الذي لوثتهم به قبلات أوورد والانتقاديين الجدد وشوبي وشوبرت زولدين ولكلير والذرائعيين الخ ... وتأثير هؤلاء الاشخاص، فلاسفة واساتذة ، وانتشار افكارهم في الجمهور « المثقف » ، أي البرجوازي ، والمؤلفات التي نشروها ، أوسع وأغنى عشرات المرات من مدرسة ماخ وأفيناريوس الصغيرة الخاصة . ان هذه المدرسة تخدم من يجب أن تخدمه وتُستغل كما يجب ان تستغل .

إن الأشياء المعيبة التي انحدر اليها لوناتشارسكي ليست استثناءً ، بل وليدة التجربية الانتقادية الروسية والألمانية معاً ، . ولا يمكن الدفاع عنها «بنوايا مؤلفها الطيبة » أو بالمعنى الخاص لكلماته : فلو كان هذا المعنى مباشراً وعادياً ، أي إيمانياً ، لما تحدثنا إلى المؤلف في هذا الموضوع ، لانه لا يوجد على الارجح

ماركسي إلا ويعتبر أن هذه التصريحات تضع أناتولي لوناتشارسكي على قـــدم المساواة تماماً مع بيوتر ستروفي . وإذا كان هذا لم يتم ، (وهو لمّا يتم) فحصراً لاننا نرى معنى « خاصاً » لكلماته ، ونحاربه ما دامت هناك أرضية لحرب رفاقية ، والعار في تصريحات لوناتشارسكي هو ، على وجه الدقة ، أنه استطاع أن يربطها بنواياه الطيبة .

والشر الناجم عن نظريته هو أنها تترك مجالاً لمثل هذه الوسائل أو الاستنتاجات في تحقيق النوايا الطيبة . والمصيبة هي أن النوايا الطيبة تبقى في أحسن الأحوال قضية ذاتية تتعلق بكارب أو بطرس أو سيدور ، أمّا المعنى الاجتماعي لتصريحات كهذه فحتمي ومؤكد ، لا تستطيع أي تحفظات أو توضيحات أن تخفف منه .

على الإنســــان أن يكون أعمى كي لا يرى القرابة الفكرية بين تأليه الطاقات الانسانية العليا عند لوناتشارسكي « والاستبدال العام » للطبيعة الفيزيائية كلها بما هو نفسي عند بوغدانوف . إنها فكرة واحدة ، جرى التعبير عنها في الحالة الأولى من وجهة نظر جمالية بالدرجة الأولى ، ومن وجهة نظر معرفية في الحالة الثانية . إن « الاستبدال » يقترب بصمت من الناحية الأخرى ، مؤلهاً القدرات الانسانية العليا ، عازلاً ما هو نفسي عن الإنسان ، ومستبدلاً الطبيعة الفيزيائية كلها بما هو واسع بلا حدود ، بما هو مجرد وإلهي ميت ونفسي بوجه عام . وماذا عن « لوغوس » يوشكافيتش المدرج في « التيار اللامعقول لما هو معطى » ؟

يقول المثل المعروف : « عندما يُنشَب المخلب فقل على صغار الطـــير السلام » . وماخيونا كلهم قد غرقوا في المثالية ، أي في الإيمانية الرقيقة ، غرقوا منذ اللحظة التي اعتبروا فيها أن الاحساس ليس صورة للعالم الخارجي ، بل « عنصراً »

خاصاً . إن الأحساس ، النفسية ، الروح ، الإرادة لا تخص أحداً - إلى هـــذا نتحدر حتماً إنْ لم نعترف بالنظرية المادية القائلة بقدرة وعي الإنسان على عكس العالم الخارجي الواقعي الموضوعي . . .

كتب في شباط - تشرين الأول

عام ١٩٠٨

ج ١٨ ص : ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٣١ - ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٤٥ - ١٤٦ ، ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ - ٣٤٦ ، ٣٥٦ - ٣٦٠ ، ٣٦٣ - ٣٦٧ .

إسهام في مسألة الديالكتيك

إن انشطار ماهو واحد ومعرفة أجزائه المتناقضة (انظر ما أورده فيلون عن المعرفةعند هيراقليط في بدايةالقسم الثالث من كتاب لاسال «فلسفةهيراقليط») هما ماهية الديالكتيك (احدى ماهياته ، إحدى خصائصه أو سماته الأساسية ، إن لم تكن خاصته ، سمته الرئيسية) . هكذا بالضبط يطرح هيغل المسألةأيضاً. كما أن أرسطو يدور في كتابه - الميتافيزيكا - دوماً حول هذا ، ويناقش بالتالي هيراقليط وأفكاره . يجب أن توضع صحة هذه الناحية من مضمون الديالكتيك على محك تاريخ العلم،ذلك أن هذه الناحية من الديالكتيك تولى قدراً غير كاف من الاهتمام بوجه عام (كما عند بليخانوف مثلاً) ، فتشابه المتناقضات يُؤخذ على أنه محصلة أمثلة (الحبة مثلاً ، الشيوعية البدائية مثلاً) والأمر نفسه موجود عند انغلز ولكنّ هذا يحدث في سبيل تيسير فهم الموضوع لا بوصفه قانوناً للمعرفة (وقانوناً للعالم الموضوعي) .

في الرياضيات + و – التفاضل والتكامل

في الميكانيك – الفعل وردّ الفعل .

في الفيزياء – الكهرباء الموجبة والسالبة .

في الكيمياء – اتحاد الذرات وانغلاقها وتفككها .

في علم الاجتماع – الصراع الطبقي .

إن تشابه المتناقضات (ألا يكون من الأصح أن نقول وحدتها ؟ مع أن الاختلاف بين التعبيرين ليس جوهرياً هنا ، وكلاهما صحيح بوجه عام) هو الاعتراف (اكتشاف) باتجاهين متناقضين،متعارضين ، ينفي أحدهما الآخر، في

مظاهر الطبيعة وعملياتها كلها (بما في ذلك الروح والمجتمع) . إن الشرط اللازم لمعرفة هذه العمليات كلها « في حركتها الذاتية » ، في تطورها العفوي ، في حياتها الحية ، هو معرفتها بوصفها وحدة متناقضات . التطور هو « صراع » المتناقضات. إن المفهومين الأساسيين (أو الممكنين؟ أو الملاحظين خلال التاريخ؟) في التطور هما : التطور بوصفه صغراً وكبراً ، وتكراراً ، والتطور بوصفه وحدة متناقضات (انشطار الواحد الى متناقضين ينفي أحدهما الآخر ويرتبط به) . ففي المفهوم الأول للحركة تهمل الحركة نفسها ، قوتها المحركة ، مصدرها ، الدافع اليها (أو أن هذا المصدر ينسب الى ما هو خارجي : الله ، الذات الخ . . .) وفي المفهوم الثاني يركز الانتباه بالضبط على معرفة مصدر الحركة الذاتية .

المفهوم الأول ميت ، باهت ، جاف . أما الثاني فنابض بالحياة . وهو - المفهوم الثاني - وحده يعطينا المفتاح لمعرفة « الحركة الذاتية» لكل ما هو كائن، اذ يفسر «القفزات» ، «الإنقطاع في التطور» ، الانتقال إلى الضد والقضاء على القديم ونشوء الجديد .

وحدة المتناقضات (تطابقها ، تشابهها ، فعلها المتساوي) شيء مشروط ، موقت ، عابر ، نسبي . أمّا صراع المتناقضات التي تنفي إحداها الأخرى فمطلق ، كما هو مطلق التطور أو الحركة .

ملاحظة: اختلاف الذاتية (الريبية والسفسطائية الخ ..) عن الديالكتيك يقوم في أن الاختلاف بين النسبي والمطلق هو ذاته نسبي في الديالكتيك الموضوعي . فالنسبي يتضمن المطلق في الديالكتيك الموضوعي . أما بالنسبة للذاتية والسفسطائية فالنسبي نسبي فقط وينفي المطلق .

ففي كتاب رأس المال لكارل ماركس يجري تحليل أبسط علاقة في المجتمع البرجوازي(السلعي) وأهمها ، وأكثر ما نرى انتشاراً وجماهيرية،العلاقة التي نراها ملياردات المرات الا وهي تبادل السلع . ويكشف التحليل ، في هذه الظاهرة المتناهية البساطة ، في هذه الخلية الصغيرة للمجتمع البرجوازي ، عن تناقضات المجتمع المعاصر كلها (وبالتالي بذور تناقضاته كلها) .

كذلك يكشف لنا الكتاب ، في ما يتبع من عرضه للأمور ، تطور هذه التناقضات ،نموها ، حركتها ، وتطور هذا المجتمع في محصلة أجزائه المختلفة، منذ البداية وحتى النهاية .

هكذا يجب أن يكون المنهج في عرض (وبالتالي دراسة) الديالكتيك عامة ، (اذ أن ديالكتيك المجتمع البرجوازي عند ماركس ليس الا حالة خاصة من الديالكتيك) ،أي الانطلاق من أبسط الفرضيات واكثر ما نصادف منها انتشاراً وجماهيرية : اوراق الشجر خضراء ، ايفان انسان ، جوتشكا كلب - الخ . . فهنا (كما لاحظ هيغل بعبقرية) يوجد ديالكتيك : فالخاص هو عام (انظر ارسطو - الميتافيزيكا - جزء ٢ ص ٤٠ الكتاب الثالث الفصل الرابع ، ترجمة شفيغلر » . — البيت بوجه عام — فنحن لا نستطيع ان نقبل بوجود بيت ما ، بوجه عام ، الى جانب بيوت أخرى) اذا ان المتناقضين (الخاص يناقض العام) متشابهان ، الخاص لا يوجد الا في تلك العلاقة التي تؤدي الى العام .والعام يوجد فقط في الخاص ومن خلاله . فكل ما هو خاص هو ، بوجه أو بآخر ، عام . وكل ما هو عام هو جزء من،أو جانب أو ماهية الخاص ، وكل ما هو عام لا يحيط الا بشكل تقريبي بالأشياء الأخرى الخاصة ، وكل ما هو خاص يدخل بشكل غير كامل فيما هو عام الخ الخ .. ان كل ما هو خاص مرتبط بآلاف السبل بأشياء ومظاهر وعمليات من نوع آخر الخ .. فتصبح عندنا هنا

عناصر، بذور مفهوم الضرورة والعلاقة الموضوعية في الطبيعة الخ. فالصدفة والضرورة، الظاهرة والماهية موجودتان هنا، فنحن اذ نقول: ايفان انسان، جوتشكا كلب، هذه ورقة شجرة، نتخلى عن مجموعة من العلامات بوصفها أموراً طارئة، ونبرز الجوهري من العارض، ونقابل أحدهما بالآخر.

وهكذا، من الممكن (ومن الواجب) أن نكشف في كل فرض، كما في البويضة أو الخلية، عن بذور عناصر الديالكتيك كلها، ونظهر أن الديلكتيك بوجه عام من خواص المعرفة الإنسانية كلها. ان العلوم الطبيعية تظهر لنا (ويجب ابراز ذلك في أبسط الأمثلة) الطبيعة الموضوعية في صفاتها كلها، كما تظهر تحول الخاص الى عام، والعارض الى ضروري، والممرات والتعرجات والعلاقة المتبادلة بين الأضداد. وما الديالكتيك الا نظرية المعرفة عند (هيغل) وفي الماركسية. هذا هو جانب الموضوع (ليس جانبه بل جوهره) الذي لم يعره بليخانوف، بله سواه من الماركسيين، انتباها.

* * *

إن هيغل (انظر كتابه المنطق) وبول فولكمان (*) العالم المعاصر في نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية والانتقائي وعدو الهيغلية (التي لم يفهمها) يمثلان معاً المعرفة بشكل مجموعة من الحلقات.

الحلقات في الفلسفة (هل من الضروري الترتيب الزمني بالنسبة للأشخاص؟ كلا!)
الفلسفة القديمة : من ديمقريط حتى أفلاطون وديالكتيك هيراقليط.
فلسفة عصر النهضة : ديكارت الى غاسندي (سبينوزا؟).
الفلسفة الجديدة : هولباخ ـ هيغل (عبر بركلي، هيوم، كنط) هيغل ـ فيورباخ، ماركس.

ان الديالكتيك، بوصفه معرفة حية (ذات جوانب متعددة تتزايد

(*) انظر كتابه : نظرية المعرفة في العلوم الطبيعية.

باستمرار) ، ينطوي على عدد لا يحصى من الفروق في تناول الواقع والاقتراب منه ، (مع نظام فلسفي ينمو متكاملاً من كل فرق) . ان هذا الديالكتيك أغنى من حيث المضمون بما لا يقدر من المادية « الميتافيزيكية » إذ ان عيبها الرئيسي هو عدم قدرتها على استخدام الديالكتيك في نظرية الانعكاس ، وفي عملية المعرفة وتطورها .

ليست المثالية الفلسفية إلا هراء من وجهة نظر المادية الفجة ، البسيطة ، الميتافيزيكية . لكن المثالية الفلسفية من وجهة نظر المادية الدلكتيكية هي ،على العكس ،تطور وحيد الجانب ،مبالغ فيه (تورم ،انتفاخ) لأحد جوانب المعرفة أو سماتها أو حدودها ، يدفع به الى درجة المطلق ، المؤله ، المعزول عن المادة ، عن الطبيعة . المثالية كهنوتية. هذا صحيح . ولكن المثالية الفلسفية هي ،بالاضافة الى ذلك وبشكل أدق ، طريق الى الكهنوتية من خلال أحد فروق المعرفة المعقدة تعقيداً لا نهاية له عند الانسان (المعرفة الدلكتيكية) .

ليست معرفة الانسان خطاً مستقيماً ،وبالتالي فهي لا تسير وفق هذا الخط ، بل انها خط متعرج يقترب دائماً من مجموعة حلقات ذات شكل حلزوني . إن أي جزء ، قطعة ، كسرة ، من هذا الخط المتعرج ، يمكن أن يتحول ، من جانب واحد ، الى خط مستقيم ، مستقل ، متكامل يقود (إذا لم نكن بعيدي النظر) الى المستنقع ، الى الكهنوتية ، حيث تدعمه مصلحة الطبقات الحاكمة . ان المباشرة وأحادية الجانب ، ان التحجر والتيبس ، إن الذاتية والعمى الذاتي ، هي الجذور المعرفية للمثالية. وللكهنوتية (المثالية الفلسفية) جذورها المعرفية بالطبع ، فهي ليست فاقدة الأرضية . انها زهرة عقيمة دون شك ، لكنها زهرة عقيمة تنمو على شجرة حية ، شجرة المعرفة الانسانية الحقة الخصبة الحقيقية القوية الكلية القدرة ، الموضوعية والمطلقة .

كتب عام ١٩١٥

ج ٢٩ ص ٣١٦ — ٣٢٢ .

الدفاتر الفلسفية

من ملخص كتاب هيغل « علم المنطق » .

هيغـــل محق تماماً ، من حيث الجوهر ، بالنسبة الى كنط . فالتفكير ، بانطلاقه من المشخص الى المجرّد ، لا يبتعد عن الحقيقة اذا كان صحيحاً (ملاحظة هامة) بل يقترب منها ، (وكنط ، كالفلاسفة كلهم ، يتحدث عن التفكير الصحيح) . ان تجريدات كالمادة وقانون الطبيعة والقيمة الخ ، وبكلمة واحدة ، التجريدات العلميـــة كلها (التجريدات الصحيحة ، الجـــادة ، الحقيقية) تعكس الطبيعة عكساً اعمق وأصدق وأكمل . فمن التأمل الحي الى التفكير المجرد ومنه الى المـــمارسة - هذه هي الطريق الديالكتيكية الى معرفة الحقيقة ، الى معرفة الواقع الموضوعي . ان كنط يحط من قدر المعرفة ليمهد الطريق للايمان ، اما هيغل فيرفع من قدرها مؤكداً ان المعرفة هي معرفة الله . أما المادي فيرفع من قدر معرفة المادة ، الطبيعة ، واضعاً الله والفلسفة التي تدافع عنه جانباً .

المعرفة التحليليـة هي المقدمـــة الأولى للاستنتاج كله ، اي علاقة المفهوم المباشرة بالموضوع ، ولهذا فالتطابق هو ذلك التحديد الذي تقبل به المعرفة . وماهذه المعرفـة إلا فهم ما هو موجود . اما المعرفة التأليفية فتسعى الى فهم ما هو موجود ، اي الى الإحاطة بتنوع التحديدات في وحدتها . ولهذا فهي الحد الثاني من الاستنتاج ، حيث يكون الشيء المتباين ، بما هو كذلك ، مترابطاً . فالضرورة هي هدفه بوجه عام (٢٨٨) .

ويورد هيغل الملاحظة التالية الذكية بصدد الطرق التي تتبعها بعض العلوم (كالفيزياء) بهدف « التوضيـح » ، حين تأخذ « قوى » مختلفة وتحشر الوقائع وتمطها قسراً :

صحيح وعميق بشكل رائع

قارن هذا الكلام (بالاقتصادالسياسي) للبرجوازية

ضدالذاتيةوالنظرة الاحادية الجانب

أي أن كنط لم يفهم القانونالعام لديالكتيك « النهائي » ؟

« إن ما يسمى بشرح المادة المشخصة المقحمة في النظريات والبرهان عليها ، هو ، في بعضه ، ترديد فارغ ، وفي بعضه الآخر ، تشويه لوضع الأشياء الحقيقي؛ وكثيراً ما استخدم هذا التشويه لإخفاء خداع المعرفة التي كانت تنتقي التجارب بشكل مجزوء . وبذلك كان هذا التشويه قادراً هو وحده على أن يصل بها إلى تعاريف وبراهين بسيطة . أما الاعتراض النابع من التجربة ، فقد كان هذا النوع من المعرفة يتجاوزه بالادعاء بأنه يفهم التجربة ويفسرها ، لا على أنها كل " مشخص " ، بل على أنها مثل ، ويفهمها في الوقت نفسه من الناحية التي تناسب فرضياته ونظرياته . إن خضوع التجربة المشخصة للتحديدات المسبقة يشوش أساس النظرية ويظهرها في جانبها المؤكد للنظرية فقط » (٣١٥ — ٣١٦) .

يزعمون أن كنط وجاكوبي اسقطا الميتافيزيكا القديمة (ميتافيزيكا فولف مثلاً) [التباهي المضحك بالتوافه الخ] . لقد اظهر كنط أن « البراهين الصارمة تؤدي إلى النقائض » (Antinomie) .

« لكن كنط لم يفكر في الطبيعة ذاتها لهذا البرهان المرتبط بمضمون نهائي ما ، في حين أن عليهما أن يسقطا معاً » (٣١٧) .

المعرفة التأليفية معرفة غير تامة ، إذ أن « المفهوم لا يصبح وحدة ذاته مع ذاته في موضوعه أو في حقيقته .. ولهذا فان الفكرة لا تصل في هذه المعرفة إلى الحقيقة نتيجة

عدم تطابق الموضوع مع المفهوم الذاتي - لكن مستوى الضرورة هو أعلى نقطة للوجود والانعكاس، فتتحول بذاتها إلى حرية المفهوم ويتحول التشابه الداخلي إلى تجليه الذي هو المفهوم بما هو مفهوم » . .

فالفكرة تصبح فكرة عملية ، فعلاً طالما أن المفهوم لذاته أصبح مفهوماً محدداً بذاته » (٣١٩) .

عنوان المقطع الثاني هو : فكرة الخير .

هيغل عن الممارسة وموضوعية المعرفة

على المعرفة النظرية ان تعطي الشيء في ضرورته ، في علائقه المتنوعة كلها ، في حركته المتناقضة في ذاتها ولذاتها . لكن المفهوم الانساني لا يحيط بهذه الحقيقة الموضوعية للمعرفة ويملكها « بشكل نهائي » الا عندما يصبح المفهوم « وجوداً لذاته » بمعنى الممارسة. أي ان ممارسة الانسان والانسانية هي اختبار لموضوعية المعرفة ومقياس لها . هل هذه هي فكرة هيغل ؟ يجب العودة الى هذا الموضوع .

لماذا الانتقال من الممارسة ، الفعل الى « الخير » فقط ؟ هذه نظرة ضيقة ، وحيدة الجانب ! والنافع ؟

لا شك أن النافع يُدرَج ايضاً ، أو أنه « خير » أيضاً في رأي هيغل ؟

هذا كله في فصل « فكرة المعرفة » (الفصل الثاني) - في انتقاله الى « الفكرة المطلقة » (الفصل الثالث) . أي ان الممارسة في رأي هيغل تعتبر بدون شك حلقة في تحليل عملية المعرفة، وبالذات انتقالاً الى الحقيقة الموضوعية (المطلقة حسب تعبير هيغل) وبالتالي فان ماركس بادراجه مقياس الممارسة في نظرية المعرفة ينضم مباشرة الى هيغل . انظر : موضوعات عن فيورباخ .

الممارسة في نظرية المعرفة

(٣٢٠) إن المفهوم بوصفه ذاتياً يفترض أيضاً وجوداً ما آخر في ذاته . إنه نزوع إلى تحقيق ذاته ، وغاية تريد أن تعطي ذاتها من خلال ذاتها موضوعية في العالم الموضوعي وتحقق ذاتها . ففي الفكرة النظرية يناقض المفهوم الذاتي ، بوصفه مفهوماً عاماً محروماً بذاته من أي تحديد ، العالم الموضوعي الذي يستمدمنه لذاته مضموناً وامتلاء محددين . أما في الفكرة العملية فإن هذا المفهوم يناقض ، بوصفه مفهوماً واقعياً ، ما هو واقع .

وما الثقة في النفس التي تتصف بها الذات في وجودها المحدد في ذاته ولذاته إلا ثقة في واقعيتها ولا واقعية العالم... »

بعبارة أخرى :
ان وعي الانسان لا يعكس العالم الموضوعي فقط بل يخلقه .

إن المفهوم (=الانسان) ، بوصفه ذاتياً يفترض من جديد وجوداً آخر قائماً بذاته (= الطبيعة المستقلة عن الانسان) . وهذا المفهوم (= الانسان) إن هو إلا " نزوع إلى تحقيق ذاته واعطائها من خلال ذاته موضوعية في العالم الموضوعي ، وإلى تحقيق ذاته .

ففي الفكرة النظرية (في مجال النظرية) يناقض المفهوم (المعرفة ؟) الذاتي ، بوصفه مفهوماً عاماً ومحروماً بذاته من التحديد ، العالم الموضوعي الذي يستمد منه مضموناً محدداً وامتلاء .

أما في الفكرة العملية (في مجال الممارسة) فان هذا المفهوم بوصفه واقعياً (فاعلاً؟) يناقض العالم الواقعي .

وما الثقة في النفس التي تمتلكها الذات [وفجأة توضع هذه الكلمة مكان كلمة مفهوم] في وجودها بذاته ولذاته ،

بوصفها ذاتاً محددة ، إلاّ ثقة في واقعيتها ولا واقعية العالم .

أي ان العالم لا يرضي الانسان
فيقرر الانسان ان يغير العالم بعمله

كتب في الفترة من ايلول حتى كانون أول عام ١٩١٤

من ملخص كتاب ارسطو « الميتافيزيكا »

ان تناول العقل (عقل الانسان) لشيء ما ونزع القشرة (= المفهوم) منه ، ليسا فعلاً بسيطاً مباشراً ميتاً كانعكاس في مرآة ، بل فعلاً معقداً متشعباً متعرّجاً ينطوي على امكانية تحليق الخيال بعيداً عن الحياة وينطوي ، إلى ذلك ، على امكانية تحويل المفهوم المجرّد ، الفكرة ، إلى خيال (= إلى إله في نهاية المطاف) ؛ زد على ذلك أن هذا التحوّل يجري دون أن يلاحظه الانسان أو يعيه. ففي أبسط أنواع التعميم ، وفي أكثر الأفكار بدائية وشيوعاً (الطاولة مثلاً) شيء من الخيال . (وبالعكس ، من الحماقة بمكان أن ننكر دور الخيال في أشدّ العلوم صرامة : قارن ما قاله بيساريف في الحلم النافع بوصفه دافعاً الى العمل وفي الحلم الفارغ .)

كتب عام ١٩١٥

من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »

(٢٣٢) – يمكننا القول إن « الدين شعر » إذ ان الايمان = خيـال .

ولكن ألا أقضي (أنا فيورباخ) على الشعر ؟

ملاحظـة

كلاّ « فـأنا (فيورباخ) أقضي على الدين بقـدر (التأكيد لفيورباخ) ما هو نثر بسيط لا بقدر ما هو شعر» (٢٣٣) .

إن الفنّ لايطلب الاعتراف بمؤلفاته على أنها واقـع (٢٣٣) .

كتب بعد عام ١٩٠٩

ج ٢٩ ص. ١٥٢ – ١٥٣ ، ١٩١ – ١٩٥ ، ٣٣٠ ، ٥٠

من مؤلفه

« من هم أصدقاء الشعب وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين »

[ردّ على مقالات روسكويي بوغاتستفو ضد الماركسيين ١٨٩٤]

... اصطدم السيد ميخايلوفسكي على الدوام ، وهو يطالــع الكتابات الماركسية ، « بالطريقة الديالكتيكية » في علم الاجتماع ، و « بالتفكير الديالكتيكي » في حقل القضايا الاجتماعية أيضاً (الحقل المقصود الوحيد) ، الخ . وقد تصور لسذاجته (هذا إذا لم يكن ثمة دافع آخر غير السذاجة) أن هـــذه الطريقة تقوم في حلّ المسائل الاجتماعية كلها وفقاً لقوانين الثلاثية الهيغلية . ولو أنه أعار الأمر انتباهاً أكثر بقليل ، لكان ، من المؤكد، اقتنع بسخافة هذا التصور. إن ما يسميه ماركس وانغلز الطريقة الديالكتيكية - خلافاً للطريقة الميتافيزيكية - ليس الا طريقة علمية في علم الاجتماع ، تقوم على النظر الى المجتمع بوصفه جهازاً حياً يتطور باستمرار (لا شيئاً مترابطـــاً بصورة ميكانيكية ، يتيح بالتالي شتى أنواع التركيبات الاعتباطية بين مختلف العناصر الاجتماعية) ، جهازاً عضوياً تتطلب دراسته تحليلاً موضوعياً لعلاقات الانتاجية تشكل بنية اجتماعية معينة ، ودراسة لقوانين عملها وتطورها . وسنحاول ، فيما بعد ، أن نوضح علاقــة الطريقة الديالكتيكية بالطريقة الميتافيزيكية (التي تشمل بلا ريب الطريقة الذاتية في علم الاجتماع) ، بأمثلة مستقاة من محاكمات السيد ميخايلوفسكي ذاته . أما الآن فلنلاحظ فقط أن كل من قرأ تعريف الطريقة الديالكتيكية ووصفها سواء عند انغلز (في جداله ضد ديوهرنغ وقد ظهر في الروسية بعنوان : « تطور الاشتراكية من طوباوية الى علمية ») ، أو عند ماركس (ملاحظات مختلفة في كتابه « رأس المال » ، « ملحق »

الطبعة الثانية ؛ « بؤس الفلسفة ») يرى أنهما لا يشيران بشيء الى ثلاثيات هيغل ، وان كل شيء عندهما يقتصر على النظر الى التطور الاجتماعي بوصفه عملية تطور تاريخية للبنى الاقتصادية الاجتماعية . ودليلاً على ذلـــك سأورد وصفاً كلملاً للطريقة الدياليكتيكية كما جاء في « فيسنك ايفروبي » (« بشير اوروبا ») سنة ١٨٧٢ العدد ٥ (ملاحظة : « وجهة نظر النقد الاقتصادي السياسي عند ماركس) وهو الوصف الذي أورده ماركس في « ملحق » الطبعة الثانية من «رأس المال») . فقد قال ماركس إن الطريقة التي طبقها في « رأس المال » قـــد أسيء فهمها . « وبالطبع زعق النقاد الألمان منادين بوجود سفسطة هيغلية » . ولكي يعرض ماركس طريقته بمزيد من الوضوح ، وصفها في الملاحظة الآنفة الذكر . وقد جاء فيها إن نقطة واحدة تهم ماركس ، هي اكتشاف قانون الظواهر التي يحللها. هذا مع العلم أن ما يهمه بالدرجة الأولى ، انما هو قانون تغير تطور ، هذه الظواهر وانتقالها من شكل إلى آخر ، من نظام علاتق اجتماعية إلى نظام آخر . ولذا فإن ماركس لا يهتم الا بشيء واحد ، هو تبيان ضرورة نظم معينة من العلاقات الاجتماعية ، اعتماداً على البحث العلمي الدقيق ، وتقدير الوقائع التي يستخدمها نقطة انطلاق وارتكاز بأقصى دقة ممكنة. ولهذا الغرض يكفيه تماماً،وهو يبرهن ضرورة النظام الحالي ، أن يبرهن في الوقت نفسه ضرورة نظام جديد آخر ، لا بدّ له أن ينبثق حتماً من الأول ، سواء آمن الناس بهذه الضرورة أم لم يؤمنوا بها ، سواء وعَوها أو لم يعوها . إن ماركس يرى الحركة الاجتماعية عملية طبيعية تاريخية تخضع لقوانين لا تتوقف على إرادة الناس ووعيهم ولا على ونواياهم ، بل هي بالعكس ، تحدد اراداتهم ووعيهم ونواياهم . (وهـــذا لعلم السادة الذاتيين الذين يفصلون التطور الاجتماعي عن التطور الطبيعي التاريخي لهذا السبب ، وهو أن الانسان يضع نصب عينيه « أهدافاً » واعية ويسترشد بمثل عليا محددة) . وإذا كان عنصر الوعي يضطلع في تاريخ الثقافة بمثل هذا الدور الثانوي ، فمن المفهوم أن

النقد (وموضوعه هو هذه الثقافة نفسها) لا يمكن ان يكون اعتماده على أي من أشكال الوعي أو نتائجه إلا أقل من اعتماده على أي شيء آخر. أي بتعبير آخر، إن نقطة انطلاق النقد لا يمكن أن تكون الفكرة بل الظاهرة الخارجية الموضوعية فقط. فعلى النقد أن يقوم لا على مقارنة حادثة بفكرة، بل حادثة بحادثة أخرى. إن ما يهمه، هو أن تدرس الحادثتان كلتاهما بأقصى دقة ممكنة، وأن تمثل إحداهما بالنسبة للأخرى مرحلتين مختلفتين من مراحل التطور؛ ومن الضروري، على الأخص، دراسة جملة من الحالات المعروفة وتعاقبها، والصلة القائمة بين شتى درجات التطور، دراسة تتصف بالدقة السابقة نفسها. إن ماركس ينكر بالضبط تلك الفكرة القائلة إن قوانين الحياة الاقتصادية هي ذاتها للماضي كما للحاضر. بل على العكس، فلكل مرحلة تاريخية قوانينها الخاصة. والحياة الاقتصادية ظاهرة مماثلة لتاريخ التطور في سائر فروع البيولوجيا. إن الاقتصاديين السابقين لم يدركوا طبيعة القوانين الاقتصادية حين قارنوها بقوانين الفيزياء والكيمياء. والتعمق في التحليل يبين أن الأجهزة العضوية الاجتماعية تتمايز فيما بينها بنفس العمق الذي تتمايز به الأجهزة العضوية الحيوانية أو النباتية. وحين أخذ ماركس على عاتقه أن يبحث، من وجهة النظر هذه، التنظيم الاقتصادي الرأسمالي، صاغ، بكل صرامة علمية، الهدف الذي يجب على كل دراسة دقيقة للحياة الاقتصادية أن ترمي إليه. أما القيمة العلمية لهذه الدراسة فتقوم في توضيح القوانين الخاصة (التاريخية) التي تنظم ظهور بنية اجتماعية ما، ووجودها، وتطورها، وموتها، واستبدالها ببنية أخرى أرقى..

. . . لقد أوردنا أعلاه تصريح السيد ميخايلوفسكي القائل إن المادية لم تثبت قيمتها في «العلم» (ربما في علم «أصدقاء الشعب» الالمان؟) ولكن هذه المادية، كما يقول السيد ميخايلونسكي، «تنتشر فعلاً بسرعة بالغة في صفوف الطبقة العاملة». فكيف يفسّر السيد ميخايلونسكي هذا الواقع؟ انه يعلن قائلاً: «فيما يتعلق بالنجاح العريض إذا جاز القول، الذي تلقاه المادية الاقتصادية،

وبهذا الشمول الذي لم تثبت صحته بصورة انتقادية ، فإن مركز ثقل هـذا النجاح ليس في العلم ، بل في النشاط العملي اليومي الذي ترسمه آفاق المستقبل ».

فأي معنى يمكن أن يكون لهذه الجملة السيئة التركيب حول النشاط العملي الذي « ترسمه » آفاق المستقبل ،سوى أن المادية تنتشر ،لا لأنها فسرت الواقع تفسيراً صحيحاً ، بل لأنها انصرفت عن هذا الواقع نحو آفاق المستقبل ؟ ويقول فيما بعد : « إن هذه الآفاق لا تتطلب من الطبقة العاملة الألمانية التي تبنتها ـ ولا من الذين يهتمون بالـغ الاهتمام بمصير هذه الطبقة ـ معارف ، أو اعمال فكر نقدي فيها . انها لاتتطلب الا الايمان» . وبتعبير آخر ،إن انتشار المادية والاشتراكية العلمية من حيث السعة ناجم عن كون هذا المذهب يعد العمال بمستقبل أفضل !

ولكن ، حسب المرء أن يكون ملماً بأبسط المعلومات عن تاريخ الاشتراكية والحركة العمالية في الغرب ، حتى يرى كل ما في هذا التفسير من اختلاق وزيف . فكل انسان يعرف أن الاشتراكية العلمية لم ترسم قط أية آفاق للمستقبل بالذات: فقد اكتفت بتحليـل النظام البرجوازي الحالي ، ودراسة اتجاهات تطور التنظيم الاجتماعي الرأسمالي ، لا أكثر . « نحن لا نقول للعالم ، نحن لا نقول له :« كف عن النضال فكل نضالك باطل » ، انما نعطيه الشعار الحقيقي للنضال ، انما نبين له فقط في سبيل أي غرض بالذات يناضـل ، والحال ، إن الوعي شيء على العـالم أن يكتسبه شاء أم أبى » . هكذا كتب ماركس في عام ١٨٤٣ ، وقد نفذ هذا البرنامـج بكل دقة . إن كل امرىء يعرف مثلاً ، أن « رأس المال » ، ـ هـذا المؤلف الرئيسي والأساسي الذي يعرض الاشتراكيـــة العامية ـ يقتصر على أعم التلميحات بصدد المستقبل ، ولا يبحث غير العناصر الموجودة اليوم ، والتي ينبثق منها النظام المقبل . وفيما يخص آفاق المستقبل يعرف كل امرىء أن الاشتراكيين السابقين قد أعطوا منها أكثر بما لا حد له ، وهم الذين كانوا يرسمون المجتمع المقبل بكل تفاصيله ، رغبة منهم في إغراء الانسانية بصـورة نظام لا يحتـاج فيه الناس

الى النضال ،ولا تقوم فيه علاقاتهم الاجتماعية على الاستثمار ، بل على مبادىء تقدمية حقيقية ،مطابقة للطبيعة البشرية. ومع ذلك ، ورغم كوكبة من ذوي المواهب الفذة الذين عرضوا هذه الأفكار ، وطائفة من أشد الاشتراكيين اقتناعاً ، ظلت نظرياتهم على هامش الحياة ، وبرامجهم على هامش الحركات السياسية الشعبية ، الى أن اجتذبت الصناعة الآلية الكبيرة جماهير البروليتاريا العاملة الى زوبعة الحياة السياسية ، ووجد الشعار الحقيقي لنضالها . وهذا الشعار وجده ماركس« الذي لم يكن طوباوياً ، بل عالماً صارماً ، وجافاً أحياناً » ، كما وصفه ميخايلوفسكي في أزمنة بعيدة جداً ،في عام ١٨٧٢ ؛وهذا الشعار لم يوجد بوساطة أية آفاق ،بل بالتحليل العلمي للنظام البرجوازي المعاصر ،بتفسير ضرورة الاستثمار في ظل مثل هذا النظام، بدراسة قوانين تطوره . وبديهي ان السيد ميخايلوفسكي يستطيع ان يؤكد لقراء «روسكوييبوغاتستفو» ان ليس ثمة حاجة ،من اجل فهم هذا التحليل ،لا إلى معارف ولا الى اعمال الفكر . ولكنه سبق لنا ورأينا عنده (وسنرى ماهوا كثر ايضاً عند معاونه الاقتصادي(*)) عدم تفهم فظ للحقائق الأولية التي اثبتها هذا التحليل ، بحيث ان مثل هذا التأكيد لا يمكن بالطبع الا ان يثير الابتسام. غير ان امراً يبقى أكيداً هو ان الحركة العمالية تنتشر وتنمو ، بالضبط حيث تتطور الصناعة الآلية الكبيرة الرأسمالية وبقدر ما تتطور هذه الصناعة ، وان المذهب الاشتراكي يلقى النجاح ،بالضبط حين يطرح جانباً المحاكمات حول الشروط الاجتماعية المطابقة للطبيعة البشرية ، وينصرف الى تحليل العلاقات الاجتماعية المعاصرة تحليلاً مادياً ، والى تفسير ضرورة النظام الاستغلالي الحالي .

كتب في ربيع – صيف
عام ١٨٩٤
ج ١ ، ص ١٦٥ – ١٦٧ ، ١٨٦ – ١٨٨

(*) هو س . ن يوجاكوف

من مقال

المحتوى الاقتصادي للشعبية ونقده في كتاب السيد ستروفي

[انعكاس الماركسية في الكتابات البرجوازية]

... لا يمكننا أن نمر بملاحظة السيد ستروفي الموجهة للسيد ميخايلوفسكي دون أن نعترض عليها . يقول الكاتب : « لا توجد من وجهة نظره (نظر ميخايلوفسكي) اتجاهات تاريخية لا يمكن تجاوزها. وعلى هذه الاتجاهات التاريخية، لكونها كذلك ، أن تستخدم نقطة انطلاق من ناحية ، وحدوداً ضرورية للنشاط الهادف للشخصية والمجموعات الاجتماعية من ناحية أخرى » .

إن هذا كلام انسانٍ موضوعي لا إنسانٍ ماركسي (مادي) . فبين هذين المفهومين (النظامين في النظرات) فرق يجب التوقف عنده ، لأن عدم توضيح هذا الفرق توضيحاً تاماً هو أحد نقائص كتاب ستروفي الرئيسية التي تبرز في معظم محاكماته .

الانسان الموضوعي يتحدث عن ضرورة عملية تاريخية ما ، أما المادي فيقرر بدقة بنية اقتصادية اجتماعية معينة والعلائق المتناقضة الناشئة عنها. إن الموضوعي عرضة دوماً ، وهو يبرهن على ضرورة مجموعة ما من الوقائع ، لأن ينتقل الى وجهة نظر المناصر لهذه الوقائع . أما المادي فيكشف التناقضات الطبقية محدداً بذلك وجهة نظره . الموضوعي يتحدث عن « اتجاهات تاريخية لا يمكن تجاوزها » ، أما المادي فيتحدث عن تلك الطبقة التي «تدير» نظاماً اقتصادياً ما، خالقة بذلك أشكالاً مختلفة من المعارضة عند غيرها من الطبقات . وهكذا فإن المادي اكثر تماسكاً من الموضوعي ، ويطبق موضوعيته بشكل أعمق واكمل . فهو لا يكتفي بالاشارة

الى ضرورة عملية ما ، بل يظهر ايّ البنى الاقتصادية الاجتماعية تعطي هذه العملية محتواها ، واي الطبقات تحدد هذه العملية . وفي هذه الحالة مثلاً ، لم يكن المادي ليكتفي بتقرير « الاتجاهات التاريخية التي لا يمكن تجاوزها » بل يشير الى وجود طبقات معينة تحدد محتوى هذه النظم وتنفي امكانية وجود مخرج بدون مشاركة المنتجين انفسهم. ومن ناحية أخرى فإن المادية تنطوي في ذاتها ، إن صحّ التعبير، على الحزبية مجبرة الانسان على الأخذ بوجهة نظر مجموعة اجتماعية معينة بشكل مباشر وصريح عندما يقيم أي ظاهرة .

أواخر عام ١٨٩٤ أوائل عام ١٨٩٥
ج١ ص. ٤١٨ - ٤١٩ .

من مؤلف

المسألة الزراعية « ونقاد ماركس »

.... أما أن الاشتراكيين الديمقراطيين يحسنون تقدير الفضل التاريخي لمراكز الطاقة والثقافة العظيمة فأمر يبرهنون عليه بنضالهم الذي لايعرف الهوادة ضد كل ما من شأنه أن يثبت السكان بعامة والفلاحين والعمال الزراعيين بخاصة في أماكن عملهم . ولذا لا يمكن لأي مزارع غني يسعى الى تقديم أجور شتوية للفلاح أن يخدعهم كما يخدع هؤلاء النقاد . لكن الاعتراف القاطع بتقدمية المدن الكبيرة لا يمنعنا أبداً من أن نضمن مثلنا الأعلى (وبرنامج عملنا ، إذ أننا نترك المثل العليا التي لا يمكن تحقيقها الى أمثال السيدين ستروفي وبيرديايف) القضاء على التعارض بين المدينة والقرية . وليس صحيحاً أن هذا معناه الإعراض عن كنوز العلم والفن ، بل بالعكس ، هذا ضروري لنجعل هذه الكنوز في متناول الشعب كله ، ولنقضي على غربة الملايين من سكان القرى عن الثقافة ، هذه الغربة التي أسماها ماركس بذكاء « غباء الحياة القروية » . وفي الوقت الراهن ، حيث أصبح بالإمكان نقل الطاقة الكهربائية الى مسافات بعيدة وارتفع مستوى تقنية المواصلات الى درجة أصبح ممكناً معها نقل الركاب بسرعة تتجاوز ٢٠٠ فرسخ في الساعة وبتكاليف أقل (بالنسبة للتكاليف الحالية) ، فليس هناك على الاطلاق أي مانع تقني يمنع كافة السكان ، المنتشرين بشكل متساوٍ الى هذا الحد أو ذاك في أنحاء البلد ،

من الإفادة من كنوز العلم والفن التي ظلت قروناً طويلة متوفرة في مراكز قليلة .

وإذا لم يكن هناك ما يمنع محو الفرق بين المدينة والقرية (وعلينا ، بالطبع ، أن نتصور عملية المحو هذه لا بشكل عمل واحد بل بشكل مجموعة من الاجراءات) ، فليس « الشعور الجمالي » وحده هو الذي يتطلب ذلك ...

كتب في حزيران – ايلول ١٩٠١

ج ٥ ص ١٥٠ – ١٥١

التنظيم الحزبي والأدب الحزبي (١١)

لقد طرحت ظروف العمل الاشتراكي الديمقراطي الجديدة التي نشأت في روسيا بعد ثورة اوكتوبر(١٢) مسألة الأدب الحزبي . وقد بدأ الفرق بين الصحافة الشرعية والصحافة غير الشرعية ــ هذه التركة المحزنة من عهد روسيا الاقطاعية ، الاستبدادية ــ بالزوال . إنه لم يضمحل بعد ، ولا يزال اضمحلاله غير قريب . فما زالت حكومة رئيس وزرائنا المرائية تعيث فساداً حتى أن « أخبار سوفييت النواب العمال »(١٣) تطبع بشكل غير شرعي . ولكن الحكومة ، بمحاولاتها الغبية « منع » ما ليس في قدرتها أن تمنعه ، لا تجلب على نفسها إلا العار وصفعات معنوية جديدة .

كانت مسألة الصحافة الحزبية وغير الحزبية تحل ، مع وجود الفرق بين الصحافة الشرعية وغير الشرعية ، بمنتهى البساطة والزيف والتشويه . فالصحافة غير الشرعية كلها كانت حزبية ، وكانت تصدرها تنظيمات وتديرها جماعات ترتبط بشكل أو بآخر بمجموعات من العاملين الفعليين في الحزب . أما الصحافة الشرعية فكانت غير حزبية ــ لأن الحزبية كانت ممنوعة ــ إنما كانت « تميل » الى هذا الحزب أو ذاك . وكان من المحتم أن تنشأ اتحادات مشوّهة ، « ومعاشرات » غير طبيعية ، وتستّر زائف ، فامتزجت حماقة أو جبن من لم يستوعب نظرات الحزب ، من لم يكن انساناً حزبياً في الأساس ، بالتحفظات الاضطرارية لأولئك الذين كانوا يودون التعبير عن هذه النظرات .

يا للعهد الملعون ، عهد خطب لقمان ، وعبودية القلم واللسان ، والاقطاعية الفكرية ! لقد وضعت البروليتاريا حداً لهذا الرجس الذي كان يختنق فيه كل ما هو حي وغضّ في روسيا . إلا أن البروليتاريا لمّا تنل إلا نصف الحرية لروسيا .

إن الثورة لم تنته بعد . وإذا لم يعد في وسع القيصرية أن تنتصر على الثورة فليس في وسع الثورة بعد أن تنتصر على القيصرية . نحن نعيش فترة نرى فيها ، وفي كل مكان وفي كل شيء تأثير هذا التزاوج المضاد للطبيعة بين الحزبية المفتوحة الشريفة الصريحة والمتماسكة ، وبين « الشرعية »السرية ، المتسترة،«الدبلوماسية» والمواربة . وينعكس هذا التزاوج المضاد للطبيعة في صحيفتنا ايضاً . ومهما سخر السيد غوتشكوف من الاستبداد الاشتراكي الديمقراطي الذي يمنع طبع صحف برجوازية ليبرالية معتدلة ، يبقى الواقع واقعاً ، وتبقى صحيفة « البروليتاري » الناطقة الأولى بلسان الحزب الديمقراطي الاشتراكي العمالي الروسي مع ذلك بعيدة عن سلطة روسيا الاستبدادية البوليسية .

ومهما يكن من أمر ، فان نصف الثورة هذا يجبرنا جميعاً على أن نشرع في تنظيم القضية تنظيماً جديداً . وباستطاعة الأدب الآن ان يكون « حتى بشكله الشرعي » حزبياً بنسبة ٩/١٠ . على الأدب أن يصبح حزبياً . وخلافاً للأعراف البرجوازية والصحافة البرجوازية المرتبطة برجال الأعمال ، وخلافاً للوصولية والفردية البرجوازيتين الأدبيتين «والفوضى الارستقراطية» والتهالك وراء الربح، على البروليتاريا الاشتراكية أن تطرح مبدأ الأدب الحزبي وتطورهذا المبدأ وتطبقه في الحياة بأكمل صيغة ، وأتمّها على قدر المستطاع .

فيم يكمن مبدأ الادب الحزبي هذا ؟ انه يكمن ليس فقط في ان الادب لا يمكن ان يكون بالنسبة للبروليتاريا الاشتراكية وسيلة ربح لأشخاص أو مجموعة من الناس ، ولكنه لا يمكن ان يكون على وجه العموم قضية فردية ، مستقلة عن القضية البروليتارية العامة . فليسقط الادباء اللاحزبيون ! فليسقط الادباء « الفوق الناس » ! إن على الادب ان يصبح جزءاً من القضية البروليتارية العامة ، « عجلة صغيرة وبزالا » في آلة اشتراكية ديمقراطيــة واحدة وحيدة

وعظيمة ، تحركها الطليعة الواعية للطبقة العاملة كلها . على الادب ان يصبح جزءاً لا يتجزأ من العمل الحزبي الاشتراكي الديمقراطي الموحد والمنظم والمخطط.

« كل تشبيه أعرج » يقول المثل الألماني ، وتشبيهي الأدب بالبرغي ، والحركة الحية بالآلة أعرج هو الآخر ، وسيوجد على الأرجح مثقفون هستيريون يزعقون لتشبيه كهذا ، يهين ويميت الصراع الفكري الحر ، وحرية النقد وحرية الابداع الأدبي ، ويجعلها « أسيرة البيروقراطية » الخ . . . الخ . . . وفي حقيقة الامر لن يكون هذا الزعيق الا تعبيراً عن فردية المثقفين البرجوازية . لا مراء في أن الأدب اقل الامور قابلية لطمس الخصائص الابداعية وللتسوية الآلية ولسيطرة الأكثرية على الأقلية . وليس من شك في أنه من الضروري ضرورة مطلقة توفير مجال للمبادرة الشخصية وللميول الفردية ، مجال للفكر وللخيال ، للشكل وللمضمون . هذه كلها أمور لا جدال فيها ، ولكنها تعني فقط أن الجزء الأدبي من القضية البروليتارية لا يمكن توحيده بشكل آلي مع الأجزاء الاخرى من عمل البروليتاريا الحزبي . وهذا كله لا ينفي هذه الموضوعة البعيدة عن البرجوازية والديمقراطية البرجوازية ، والغريبة عليها ، وهي أن على الادب ان يصبح حتماً وبالضرورة جزءاً مرتبطاً ارتباطاً لا فكاك منه بالاجزاء الاخرى من العمل الحزبي الاشتراكي الديمقراطي . على الصحف ان تصبح لسان حال المنظمات الحزبية المختلفة ، وعلى الادباء ان ينخرطوا حتماً في المنظمات الحزبية . على دور النشر والمستودعات ، على المخازن وقاعات المطالعة ، على المكتبات ومختلف أنواع الاتجار بالكتب ، أن تصبح حزبية ومسؤولة . وعلى البروليتاريا الاشتراكية المنظمة أن تهتم بهذا الامر وتراقبه وتبث فيه كله وبدون استثناء دفقة حية من قضية البروليتاريا الحية ، مفرغة ، بهذا ، الارض من تحت أقدام المبدأ الروسي القديم ، النصف ابلوموفي ، النصف تجاري : الكاتب يكتب والقارىء يقرأ .

لن نقول بالطبع ان هذا التحول في القضية الادبية ، التي افسدتها الرقابة الآسيوية والبرجوازية الاوروبية ، يمكن أن يتم على الفور . ونحن بعيدون عن فكرة الدعوة الى نمط واحد أو الى حل المسألة بقرارات ، فالتصور المبسط في هذا المجال آخر ما يمكن الحديث فيه . المسألة هنـــا هي ان يعي حزبنا كله ، وبروليتاريتنا الاشتراكية الديمقراطية الواعية كلها في روسيا كلها ، هذه المهمة الجديدة ، وان يطرحاها بوضوح ويأخذا في حلها في كل مكان . نحن لا نريد ، وقد تحررنا من الرقابة الاقطاعية ، ان نقع في اسر العلاقات البرجوازية التجارية الادبية . نحن نريد أن ننشىء ، وسننشىء صحافة حرة ، ليس بالمعنى البوليسي فقط وانما بمعنى التحرر من الرأسمال و التحرر من الوصولية ؛ واكثر من هذا بمعنى التحرر من الفردية البرجوازية الفوضوية .

ستبدو هذه الكلمات الاخيرة مفارقة أو سخرية من القراء . كيف ! قد يصرخ مثقف مناصر للحرية ومتحمس لهـــا : كيف ! أتريدون ان يقرر العمال بأغلبية الاصوات مسائل العلم والفلسفة والجمال ! وتنفون الحرية المطلقة للابداع الفكري الفردي المطلق !

اطمئنوا بالاً ، أيها السادة ! فالكلام هنا يدور ، اولاً ، حول الادب الحزبي وخضوعه للرقابة الحزبيـــة . كل فرد حر في ان يكتب ويقول ما يشاء دون ادنى قيد ، ولكن كل اتحاد طوعي (بما في ذلك الحزب) حر ، هو ايضاً ، في ان يطرد الاعضاء الذين يستغلون شركة الحزب في الدعوة لافكار مناهضة للحزب. يجب ان تكون حرية الكلمة والصحافة تامة . علي ، باسم حرية الكلمة ، ان امنحك كامل الحق في ان تصرخ وتكذب وتكتب ما تشاء . ولكن عليك انت أيضاً ، باسم حرية الاتحادات ، ان تمنحني الحق في ان اقيم ، او الغي اتحاداً مع أناس يقولون كذا وكذا . ان الحزب اتحاد طوعي . وسينفرط عقده حتماً ،

فكرياً بادىء الامر ثم مادياً ، اذا لم يطهر نفسه من الاعضاء الذين ينشرون أفكاراً مناهضة للحزب . ولتحديد الخط الفاصل بين الحزبي والمناهض للحزب هناك برنامج الحزب ومقرراته التكتيكية ونظامه الداخلي ، وهناك ، أخيراً ، التجربة الكاملة للاشتراكية الديمقراطية العالمية وللاتحادات الطوعية العالمية للبروليتاريا التي ضمت في صفوفها ، بصورة مستمرة ، عناصر او تيارات متفرقة لم تكن متماسكة تماماً ، وليست ماركسية تماماً ، وغير قويمة ، هذه الاتحادات التي كانت تجري دوماً « تطهيرات » دورية في صفوفها . هكذا سيكون عندنا ايضاً داخل الحزب ، ايها السادة ، أنصار « حرية النقد » البرجوازية . ان حزبنا يصبح الآن جماهيرياً بسرعة، ونحن نمر الآن بفترة انتقال حاد الى التنظيم العلني. سينضم الينا حتماً أناس كثيرون غير متماسكين (من وجهه النظر الماركسية) وقد يأتي الينا بعض المسيحيين وحتى بعض الصوفيين . أن معدنا قوية ونحن ماركسيون ، كالصخر في صلابتنا . وسنهضم هؤلاء الناس غير المتماسكين ، ولن تنسينا حرية الفكر وحرية النقد داخل الحزب حرية تجمّع الناس في اتحادات طوعية تسمى أحزاباً .

وعلينا ان نقول لكم ، ثانياً ، ايها السادة الفرديون البرجوازيون ، ان كلامكم عن الحرية المطلقة مراءاة خالصة . اذ لا يمكن ان توجد « حرية » واقعية وحقيقية في مجتمع قائم على سلطة المال ، في مجتمع تعيش فيه جماهير الكادحين في فقر مدقع ، وزمرة من الاثرياء تعيش حياة طفيلية . هل انت حر تجاه ناشرك البرجوازي ، يا سيدي الكاتب ؟ وتجاه جمهورك الذي يطلب منك الدعارة في اطرك(*)ولوحاتك ، والبغاء « تكملة » للفن المسرحي « المقدس » ؟ ما هذه

(*)هنا خطأ مطبعي على الارجح اذ يجب أن تكون كلمة روايات مكان كلمة أطر « هيئة التحرير » .

الحرية المطلقة الا جملة برجوازية او فوضوية (لان الفوضوية ، باعتبارها نظرة الى الحياة ، برجوازية مقلوبة) . من غير الممكن أن يعيش الانسان في المجتمع ويكون متحرراً تماماً منه . ان حرية الكاتب أو الممثلة أو الفنان البرجوازي ليست الا ارتباطاً مقنعاً او (مقنعاً برياء) بكيس المال ، بالرشوة،بالراتب.

أما نحن ، الاشتراكيين ، فنفضح هذا الرياء ونمزق هذه الاعلانات الزائفة ، لا لنصل إلى أدب وفن غير طبقيين (فهذا ممكن في المجتمع الاشتراكي اللاطبقي فقط) ، بل لننشىء أدباً حراً حرية حقيقة ومرتبطاً علناً بالبروليتاريا ، يقف معارضاً الأدب ، الحر رياءً ، والمرتبط ، فعلاً ، بالبرجوازية .

وسيكون هذا الأدب أدباً حراً ، لأنه لا الطمع ولا الرتبة بل فكرة الاشتراكية والتعاطف مع الكادحين هما اللذان سيجذبان الى صفوفه قوى جديدة باستمرار . سيكون أدباً حراً لأنه سيخدم لا بطلة متخمة أو « عشرة آلاف من النخبة » يسأمون ويتألمون من سمنهم ، بل ملايين وعشرات الملايين من الكادحين الذين يشكلون خيرة أهل البلد وقوته ومستقبله . سيكون أدباً حراً ينمي أحدث ما توصلت اليه البشرية في الفكر الثوري بفضل تجربة البروليتاريا وعملها الحيّ ، التجربة التي تحدث تفاعلاً مستمراً بين تجربة الماضي (الاشتراكية العلمية التي أكملت تطور الاشتراكية من أشكالها البدائية ، الطوباوية) وبين تجربة الحاضر (النضال الراهن للرفاق العمال) . إلى العمل ، أيها الرفاق ! فأمامنا مهمة جديدة وشاقة ، لكنها عظيمة ونبيلة ، وهي أن ننظم المسألة الأدبية الواسعة والمتعددة الجوانب والأوجه في ارتباطها الوثيق الذي لا ينفصم مع الحركة الاشتراكية الديمقراطية العمالية . على الأدب الاشتراكي الديمقراطي كله أن يصبح حزبياً . وعلى الصحف والمجلات ودور النشر كلها وغيرها أن تشرع باعادة تنظيم عملها ، وبتهيئة وضع يمكنها من أن تصدر بأكملها ، على هذه الأسس أو تلك ، حسب

التنظيمات الحزبية التي تعود اليها. عندئذٍ فقط يصبح الادب «الاشتراكي الديمقراطي» اشتراكياً ديمقراطياً بالفعل ، عندئذٍ فقط يستطيع أن يقوم بواجبه ، وعندئذٍ فقط يستطيع ، حتى في أطر المجتمع البرجوازي ، أن يتخلص من عبودية البرجوازية ويصب في حركة الطبقة التقدمية والثورية حتى النهاية حقاً .

طبع في ١٣/١١/١٩٠٥
ج ١٢ ص ٩٩ — ١٠٥

من مقال

« الحزب الاشتراكي والثورية غير الحزبية »

تخلق الحركة الثورية في روسيا ، التي تمتد بسرعة لتشمل فئات جديدة متزايدة من السكان ، مجموعة كاملة من المنظمات غير الحزبية . ويتفجر مطلب الوحدة بقوة أكبر تتناسب والزمن الذي كان يُسحق فيه هذا المطلب ويُطارد . وتنشأ التنظيمات باستمرار ، بهذا الشكل غير المكتمل اوذاك في أغلب الأحيان . وطابع هذه التنظيمات في غاية الطرافة . إذ لا توجد هنا أطر واضحة كما في المنظمات الاوروبية . فالاتحادات النقابية تأخذ طابعاً سياسياً . والنضال السياسي يتحدّ بالنضال الاقتصادي بشكل إضراب مثلا ، مكوّناً أشكالاً موحدة من التنظيمات الموقتة أو الدائمة الى هذا الحد أو ذاك .

ما معنى هذه الظاهرة ؟ وكيف يجب أن يكون موقف الاشتراكية الديمقراطية منها ؟

إن الحزبية الصارمة تلازم الصراع الطبقي المتطور جداً وتنتج عنه . وبالعكس فان من مصلحة الصراع الطبقي الواسع والمكشوف تطوير الحزبية الصارمة . ولهذا فان حزب البروليتاريا الواعية، الاشتراكية الديمقراطية ،يحارب حرباً مشروعة تماماً اللاحزبية ويعمل بثبات على انشاء الحزب الاشتراكي العمالي المتراص بقوة ، والمتماسك مبدئياً . ويصيب هذا العمل من النجاح في وسط الجماهير بمقدار ما يشقّ تطور الرأسمالية الشعب كله أعمق فأعمق الى طبقات ، مصعّداً بذلك حدّة التناقضات فيما بينها .

من المفهوم تماماً أن تكون الثورة الراهنة في روسيا قد خلقت ، ولا زالت تخلق ، مثل هـذا العدد الكبير من المنظمات غير الحزبية . فهذه الثورة ديمقراطية ، أي برجوازية من حيث مضمونها الاجتماعي والاقتصادي . وهـذه الثورة تقلب البنية الاستبدادية الاقطاعية ،محررّة بذلك البنية البرجوازية،ومحققة متطلبات طبقات المجتمع البرجوازي كلها ، فهي ، بهـذا المعنى ، ثورة شعبية عامة . ولكن هذا لا يعني ، طبعاً ، ان ثورتنا لم تكن طبقيّة . كلاّ بالطبع . لكنها موجهة ضد طبقات وفئات مضى زمانها ، أو يمضي من وجهة نظر المجتمع البرجوازي ، ضد فئات غريبة عليه ومعيقة لتطوره . وبما أن الحياة الاقتصادية في البلد أصبحت كلها برجوازية في خطوطها الاساسية كلها ، وبما أن الغالبية العظمى من السكان أصبحت تعيش فعلاً في ظروف حياة برجوازية ، فان العناصر المضادة للثورة أصبحت ، بطبيعة الحال ، قليلة حتى العدم ، أصبحت « حفنة » بالنسبة « للشعب » . ولهذا يبدو الطابع الطبقي للثورة البرجوازية بالضرورة وللوهلة الاولى طابعاً «شعبياً عاماً » غير طبقي،يتمثل في نضال طبقات المجتمع البرجوازي كلها ضد السلطة الاستبدادية والاقطاعية .

لقد تميّز عهد الثورة البرجوازية في روسيا ، كما في بلاد أخرى ، بعدم النضوج النسبي لتناقضات المجتمع الرأسمالي الطبقية. صحيح أن الرأسمالية متطورة الآن في روسيا أكثر مما كانت عليه في المانيا عام ١٨٤٨ ، ناهيك عن فرنسا عام ١٧٨٩ ، ولكن ،مما لا يرقى اليه الشك ان التناقضات الرأسمالية المحضة تستتر الى حد كبير ، وكبير جداً ، بستار التناقضات بين « الثقافة » والآسيوية ، بين الاوروبية والتترية ، بين الرأسمالية والاقطاعية أي أنه تُطرح،في الدرجة الاولى، متطلبات يؤدي تحقيقها الى تطوير الرأسمالية وتطهيرها من أدران الاقطاعية ،والى تحسين ظروف الحياة والنضال للبروليتاريا والبرجوازية على حدّ سواء .

وفي الواقع ، إذا ما تمعّنا في المطالب والتوصيات والشكاوي التي تُرفع بأعداد هائلة في روسيا الآن، في كل مصنع ودائرة وقطعة عسكرية ودائرة للشرطة وأبرشية ، وفي كل مؤسسة تعليمية الخ الخ .. سنرى بيسر أن معظمها مطالب « ثقافية » محضة ، إذا صح التعبير . أريد أن أقول إنهـا ليست مطالب طبقية متميزة ، بل مطالب حقوقية أولية ، مطالب لا تهدم الرأسمالية ، بل على العكس تدخلها في أُطر الاوروبية وتخلصها من البربرية والتوحش والرشوى وغيرها من الرواسب « الروسية » لعهد القنانة . وفي الحقيقة إن المطالب البروليتارية تكتفي في معظم الأحوال بإصلاحات يمكن تحقيقها تماماً في إطار الرأسمالية. إن البروليتاريا الروسية تطالب الآن ، وحالاً ، لا بما يقوض الرأسمالية ، بل بما يطـهرها ويقوي تطورها ويُسرع فيه .

من المسلم به أن وضع البروليتاريا الخاص في المجتمع الرأسمالي يؤدي الى أن يبرز سعي العمال الى الاشتراكية ، واتحادهم بالحزب الاشتراكي بقوة عفوية، في أبكر مراحل الحركة ، لكن المطالب الاشتراكية المحضة لم يَحِنْ أوانها . فمطالبهم اليوم مطالب ديمقراطية سياسية ، ومطالب اقتصادية في إطار الرأسمالية . حتى البروليتاريا تضع الثورة ، إذا صح التعبير ، في إطار برنامج الحد الأدنى لا برنامج الحدّ الأقصى . أما الفلاحون ، وهم الأغلبية الضخمة الساحقة من السكان ، فلا حاجة إلى القول إن « برنامجهم الاقصى » وأهدافهم النهائية لا تخرج عن إطار الرأسمالية التي كانت قد نمت بشكل أوسع وأعظم لو أن الأرض كلها انتقلت الى الفلاحين كلهم والشعب كله . الثورة الفلاحية ثورة برجوازية في الوقت الراهن مهما خدشت هذه الكلمات مسمع فرساننا العاطفيين الرقيق ، فرسان الاشتراكية البرجوازية الصغيرة .

هذا الطابع المميز للثورة الجارية الآن الذي رسمنا ملامحه يوجد بشكل

طبيعي تماماً تنظيمات غير حزبية. وتكتسب الحركة بكاملها في هذه الأحوال طابع اللاحزبية الخارجية حتماً ، مظهر اللاحزبية ، المظهر فقط ، بالطبع . إن حاجة الناس الى حياة « إنسانية » متمدنة وإلى الاتحاد والدفاع عن كرامتهم وحقوقهم ، بوصفهم بشراً ومواطنين ، تشمل كل شيء وتوحد الطبقات كلها وتسبق بخطوات عملاقة أي حزبية وتحرك اناساً لا زالوا بعيدين جداً عن أن يكونوا قادرين على الارتفاع الى مستوى الحزبية . إن الحاجة الملحة إلى حقوق واصلاحات مباشرة وضرورية ضرورة أولية تؤجل ، إن صح التعبير ، أي فكرة أو تصور عمّا هو أبعد من ذلـــك . فهذا الاستغراق في الصراع الحالي ، وهو استغراق ضروري ومشروع ولا يمكن النجاح بدونه ، يضطر البعض إلى تأليه هذه الأهداف الأولية المباشرة وتصويرها بلون وردي ،واضفاء شكل اسطوري عليها في بعض الاحيان؛ الديمقراطية البسيطة ، الديمقراطية البرجوازية العادية، تحمل على محمل الاشتراكية وتصنّف في « خانة » الاشتراكية ؛ كأن كل شيء « غير حزبي » ؛ وكأن كل شيء ينصب في حركة « تحررية » واحدة (حركة تحرر المجتمع البرجوازي كله في الواقع) ؛ ويتخذ كل شيء صبغة خفيفة رقيقة من « الاشتراكية » بفضل الدور التقدمي الذي تلعبه البروليتاريا بوجه خاص في الصراع الديمقراطي .

لا يمكن للا حزبية في مثل هذه الظروف الا أن تحرز انتصارات موقتة. ولا يمكن اللاحزبية الا أن تصبح شعاراً شائعاً ، « فالموضة » تزحف زحفاً واهياً وراء الحياة.« والتنظيم اللاحزبي بالذات (الديمقراطية اللاحزبية ، حرية الإضراب اللاحزبية ، والثورية اللاحزبية) هو اكثر الظواهر التي نراها تطفو عادة على سطح الحياة السياسية .

ونتساءل الآن : كيف يجب أن يكون موقف أنصار مختلف الطبقات وممثليها من واقع اللاحزبية ومن فكرة اللاحزبية ؟ وأجيب : يجب أن لا يكون

موقفنا ذاتياً بل موضوعياً ، أي: لا كيف يجب أن يكون موقفنا بل أي موقف من هذا الواقع ينشأ بالضرورة بحكم مصالح مختلف الطبقات ووجهات نظرها .

- ٢ -

اللاحزبية ، كما أوضحنا ، وليدة الطابع البرجوازي لثورتنا ، أو هي تعبير عنه ، إن شئتم . ولا يمكن للبرجوازية الا أن تميل الى اللاحزبية إذ ان غياب الأحزاب بين المناضلين في سبيل حرية المجتمع البرجوازي يعني غياب نضال جديد ضد هذا المجتمع البرجوازي نفسه . إن من يقود نضالاً « لا حزبياً » في سبيل الحرية إما انه لا يعي الطابع البرجوازي للحرية ، او انه يكرس هذا النظام ، أو أنه يؤجل النضال ضده أو أنه يريد أن يدفع به الى الكمال ، الى مالا نهاية . وبالعكس فإن كل من يناصر بوعي ، أو بغير وعي ، النظام البرجوازي لابد له من أن يشعر بميل إلى فكرة اللاحزبية .

إن الصراع بين الطبقات المتنازعة في مجتمع قائم على التقسيم الطبقي يصبح ، بالضرورة ، صراعاً سياسياً في مرحلة ما من مراحل تطوره . وصراع الأحزاب هو التعبير الأكمل والأتم والأكثر تنظيماً عن الصراع السياسي للطبقات . اللاحزبية لامبالاة بصراع الأحزاب . لكن هذه اللامبالاة ليست حياداً أو امتناعاً عن الصراع. لا يمكن أن يوجد محايدون في الصراع الطبقي، لأنه لا يمكن «الامتناع» في المجتمع الرأسمالي عن المشاركة في تبادل المنتوجات أو القوّة العاملة . فالتبادل يولد حتماً صراعاً اقتصادياً ، وبالتالي صراعاً سياسياً . فاللامبالاة أبعد ما تكون في الواقع تحاشياً للصراع أو امتناعاً عنه أو حياداً . اللامبالاة تأييد صامت للقوي ، للمسيطر . من كان لامبالياً بالحكم الاستبدادي في روسيا حتى سقوطه في ثورة اوكتوبر كان يؤيد الحكم الاستبدادي بصمت ، ومن كان ، في اوروبا المعاصرة، لامبالياً بسيطرة البرجوازية كان يؤيد البرجوازية بصمت . إن من لا يبالي بفكرة

الطابـع البرجوازي للنضال من أجـل الحرية يؤيد بصمت سيطرة البرجوازية في هـذا الصراع ، سيطرة البرجوازية في روسيا الوليدة الحرة . اللامبـالاة السياسية شبـع سياسي . الشبعان يقف موقف « اللامبالاة » و « عدم الاكتراث » من لقمة الخبز ، أمـا الجائع فسيكون على الدوام « حزبيـاً » في مسألة الخبز . ليس معنى « اللامبالاة وعدم الاكتراث » بلقمة الخبز أن الانسان لايحتاج الى الخبز ، بل ان الخبز مؤمن لهذا الانسان دائماً ، وانه لن يفتقد الخبز ابداً ، وأنه التحق بشكل اكيد « بحزب » الشباع : ان اللاحزبية في مجتمـع برجوازي رياء وتعبير مستتر وسلبي عن الانتماء الى حزب الشباع ، الى حزب المسيطرين ، الى حزب المستغلين.

اللاحزبية فكرة برجوازية . والحزبية فكرة اشتراكية . ويصح تطبيق هذه الموضوعة بشكل عام وكامل على المجتمع البرجوازي كله . وعلينا بالطبـع أن نعرف كيف نطبق هذه الحقيقة العامة على مسائل خاصة معينة وعلى ظروف معينة. أما أن ننسى هذه الحقيقة في وقت كهذا ، يثور فيه المجتمع البرجوازي كلـه ضد ضد الاقطاعية والاستبداد فمعناه، عملياً، الرفض الكامل للنقد الاشتراكي للمجتمع البرجوازي .

طبـع في ٢٦ / ت٢ و ٢ / ك١ ١٩٠٥
ج ١٢ ص ١٣٣ — ١٣٨

« لمصلحة مَنْ ؟ . . »

[كوي بروديست] - «Cui prodest» عبارة لاتينية مأثورة تعني « لمصلحةمَنْ ؟ ». ومن الواجب على الدوام طرح هذا السؤال : «لمصلحةمَنْ»؟ عندما لا تتضح مباشرة الفئات أو القوى أو الشخصيات السياسية أو الاجتماعية التي تدافع عن مقترحات او اجراءات ما . . .

ليس المهم مَنْ يدافع مباشرة عن سياسة ما - ففي النظام الرأسمالي المعاصر الفاضل يستطيع أي ثري أن « يستأجر » أو يشتري أو يستميل أي عدد من المحامين والكتاب ، وحتى من النواب واساتذة الجامعات والقسس الخ .. للدفاع عن أي وجهة نظر . نحن نعيش في زمن تجاري لا تخجل البرجوازية فيه من المتاجرة بالشرف والضمير . ويحدث أن يوجد أناس سذّج يدافعون، عن غباء أو عن عادة عمياء ، عن النظريات المسيطرة في وسط برجوازي ما .

كلا ليس مهماً في السياسة مَنْ يدافع مباشرة عن نظرية ما ، بل المهم لمصلحة مَنْ هذه النظريات ، هذه الاقتراحات ، هذه الاجراءات .

مثال ذلك أن اوروبا ، وهي دول تسمي نفسها « متمدنة » ، تجري جرياً محموماً وراء التسلّح . ويتعالى الصراخ والعويل بألف نغمة وفي آلاف الصحف ومن فوق آلاف المنابر عن الوطنية والثقافة والوطن والسلام والتقدم — ويتم هذا كله تبريراً لهدر عشرات ومئات ملايين جديدة من الروبلات على مختلف وسائل الإبادة ، على المدافع و« الدريدنوت » (مدرعات من نوع جديد)الخ..

أيها السادة ! بودّي أن أقول بمناسبة هذه الجمل التي يطلقها « الوطنيون » : لا تصدقوا كلامهم ، بل الافضل أن تروا لمصلحة مَنْ يتم هذا !!

لقد نشرت الشركة الانكليزية الشهيرة « امسترونغ، اوتيفرس وشركاه»

تقريرها السنوي منذ مـــدة وجيزة . الشركة تنتج بشكل رئيسي مختلف أنواع الاسلحة . وموازنتها تعادل ٨٧٧ ألف جنيه استرليني ، أي قرابة (٨) ملايين روبل ، والفائدة بنسبة ١٢ ١/٢ ٪ ، ورأسمالهـا الاحتياطي حوالي (٩٠٠) الف روبل الخ . .

اليـــكم اين تذهب الملايين والمليارات المستنزفة من العمال والفلاحين من أجل التسلح . الفائدة بنسبة ١٢ ١/٢ ٪ معناها مضاعفة الرأسمال في ٨ سنوات ، مع العلم أن مختلف المكافآت الممنوحة للمديرين . . الخ غير واردة في الحساب . آرمسترونغ في انكلترا ، كروب في المانيا ، كريزو في فرنسا ، كوليديل في بلجيكا وكم عدد أمثالهم في البلدان المتمدنة كلها ؟ وكم يكون لهم من الموردين ؟

إليكم لمصلحة مَنْ يتم نفخ الروح الشوفينية ، والثرثرة عن « الوطنية » (وطنية المدفع) وعن الدفاع عن الثقافة (بأسلحة تمحق الثقافة) الـخ . . .

طبـع ١٩١٣/٤/١١

ج ٢٣ ص ٦١ - ٦٢

من مقال

الاحصاء وعلم الاجتماع

يقول المثل الانكليزي : الوقائع شيء عنيد . وغالباً ما يذكر هذا المثل على الأخص ، عندما ترى كاتباً يشدو كالبلبل مشيداً بعظمة « مبدأ القومية » في مختلف معانيه ونسبه . ويستعمل « هذا المبدأ » في معظم الأحيان بنجاح يوازي نجاح هتافات بطل الاسطورة الشعبية الشهيرة وقد رأى جنازة: « تجرون ولكنكم لن تعبروا » .

إن الوقائع الدقيقة ، الوقائع التي لايرقى اليها الشك ، هي مالا يستطيع هذا النوع من الكتاب أن يتحمله بشكل خاص. وهذا هو الشيء الضروري بنوع خاص ، إذا أراد الانسان أن يتفهم تفهماً جدياً مسألة معقدة وصعبة ومشوشة عن قصد . ولكن كيف يجب جمع الوقائع ؟ وكيف ننشيء علاقة وارتباطاً متبادلاً بينها ؟.

لا يوجد في مجال الظواهر الاجتماعية طريقة أكثر شيوعاً وأكثر بطلاناً من استلال بعض الوقائع الصغيرةدون تروّ ، من اللعب بالأمثلة. إن انتقاء الأمثلة أمر غير عسير على وجه العموم ، لكنه غير ذي قيمة ، أو أن قيمته سلبية تماماً ، إذ ان القضية كلها تكمن في الظرف التاريخي المشخّص لهذه الحوادث . فالوقائع إذا ما أخذت **بكليتها** ، **وبعلاقة** إحداها بالأخرى ، ليست شيئاً عنيداً فحسب ، بل شيء له دلالته القاطعة. إن الوقائع الصغيرة إذا أخذت خارج كليتها أو علاقتها، إذا كانت اعتباطية أو مجتزأة ، ليست الا تلاعباً أو شيئاً أسوأ من ذلك . فحين يأخذ كاتب كان فيما مضى رصيناً ولا زال يرغب في أن يُعتبر كذلك ، واقع الظلم

المنغولي ويبرزه مثالاً لشرح بعض الأحداث في أوربا القرن العشرين، فهل يمكننا أن نعتبر ذلك تلاعباً بسيطاً أو أنه من الأصح إرجاع ذلك الى شعوذة سياسية ؟. إن الظلم المنغولي واقع تاريخي مرتبط ارتباطاً لاشك فيه بالمسألة القومية . كما أنه يلاحظ في أوربا القرن العشرين مجموعة من الوقائع مرتبطة بالدرجة نفسها من التأكيد بهذه المسألة . الا أنه يوجد عدد قليل من الناس ممن يسميهم الافرنسيون « مهرجين قوميين » قادر على ادعاء الرصانة والعمل على توضيح ما يجري في أوربا القرن العشرين انطلاقاً من « واقع » الظلم المنغولي .

والنتيجة واضحة : علينا أن نحاول ارساء أساس من الوقائع الدقيقة التي لا يرقى اليها الشك ، يكون في وسعنا أن نستند اليه ونقارن به أياً من تلك المحاكمات « العامة » . أو « التي تؤخذ على سبيل المثال » ، والتي كثيراً ما يساء استعمالها في بعض البلدان ، في أيامنا هذه . ومن الضروري ، لكي يكون هذا الأساس أساساً بالفعل ، الا نأخذ وقائع متفرقة ، بل مجموع الوقائع المتعلقة بالمسألة مدار البحث ، دون أي استثناء وإلا سينشأ شك ، وشك مشروع تماماً ، في أن الوقائع قد اختيرت أو جمعت اعتباطاً ، وأنه بدل العلاقة أو الترابط الموضوعي للظواهر التاريخية بأكملها ، تطبخ طبخة « ذاتية » قد تكون تبريراً لقضية قذرة . وهذا يحدث أكثر مما قد نظن . .

وانطلاقاً من هذه الافكار قررنا أن نبدأ من الإحصاء ، واعين بالطبع وعياً كاملاً النفور العميق الذي يثيره الاحصاء في نفوس بعض القراء ، الذين يفضلون « الخداع الذي يسمو بنا » على « الحقائق الوضيعة » ، وفي نفوس بعض القراء الذين يحبون عملية التهريب السياسي تحت علم محاكمات « عامة » في الأممية والكوسموبوليتية والقومية والوطنية الخ . .

كتب في كانون ثاني ١٩١٧ ج ٣٠

ص ٣٤٩ - ٣٥١

الثقافة القومية

« من مقال ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية »

... وهكذا يرى القارىء أن مقالي المنشور في « سيفيرنايا برافدا[١٤] » ، يوضح ، بمثال واحد يتعلق بقضية اللغة الواحدة الوحيدة في الدولة ، ما تتسم به البرجوازية الليبرالية من انتهازية وعدم تماسك ، وهي التي تمد يدها الى الاقطاعيين ورجال البوليس في المسألة الوطنية . ويدرك كل امرىء أن موقف البرجوازية الليبرالية من جملة من المسائل الأخرى المماثلة لا يقل خيانة ونفاقاً وسخفاً (حتى من وجهة نظر مصالح الليبرالية بالذات) عما هو عليه من مسألة اللغة الواحدة الوحيدة في الدولة .

فما هي النتيجة ؟ هي أن كل تعصب قومي برجوازي ليبرالي يسبب أقصى الفساد في أوساط العمال ، ويلحق أفدح الضرر بقضية الحرية وقضية النضال الطبقي البروليتاري. ويشتد هذا الخطر بقدر ما يتستر الاتجاه البرجوازي (والبرجوازي - الاقطاعي) وراء شعار « الثقافة القومية » . فباسم الثقافة القومية الروسية ، والبولونية ، واليهودية ، والاوكرانية الخ. يقترف « المئة السود » والاكليريكيون ، وكذلك برجوازيو جميع القوميات ، آثامهم الرجعية القذرة .

هكذا يبدو الواقع في الحياة القومية الراهنة ، إذا نظرنا اليه نظرة ماركسية ، أي من وجهة نظر النضال الطبقي ، وإذا قارنا بين الشعارات وبين

مصالح الطبقات وسياستها، لا بينها وبين « المبادىء العامة» التي لا معنى لها ،والجمل الطنانة والتصريحات الجوفاء .

إن شعار الثقافة القومية خداع برجوازي (وهو غالباً ما يكون أيضاً خداعاً من جانب « المائة السود » والاكليريكيين) . اما شعارنا نحن فهو الثقافة الأممية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية .

وبهذا الصدد يشن علي السيد ليبمن ، من جماعة البوند حملة هوجاء ويقذفني بهذا الخطاب القاتل :

« يعرف كل من يلم بالمسأله القومية ولو إلماماً طفيفاً ، أن الثقافة الأممية ليست بثقافة لا قومية (ثقافة بدون شكل قومي) ؛ فالقول بثقافة لا قومية ، ينبغي لها أن تكون لا روسية ، ولا يهودية ، ولا بولونية ، بل ثقافة خالصة ، انما هو قول باطل ، لا معنى له . إن الأفكار الأممية على وجه الدقة لا يمكنها أن تصبح قريبة من الطبقة العاملة الا إذا تكيفت وفقاً للغة التي يتكلم بها العامل ووفقاً للأوضاع القومية المشخصة التي يعيش فيها . وعلى العامل ألا يقف موقف اللامبالاة من وضع ثقافته القومية وتطورها ، لأنه بواسطتها ، وبواسطتها وحدها ، يستطيع أن يشارك في « الثقافة الامية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية» . وهذه حقيقة معروفة منذ زمن بعيد ولكن السيد ف . إ . يتجاهلها تماماً . . . » .

فكروا جيداً بهذه المحاكمة النموذجية بالنسبة للبونديين ، والتي يقصد منها ، كما ترون ، تقويض الموضوعة الماركسية التي صغتها أنا . فالسيد البوندي يقدم لنا بثقة متناهية في النفس ، بوصفه رجلاً «مطلعاً على المسألة القومية» ، أفكاراً برجوازية عادية على أنها « حقائق معروفة منذ زمن بعيد » .

وبالفعل ، ليست الثقافة الامية ثقافة لا قومية ، يا عزيزي البوندي ، وما من أحد زعم هذا الزعم . وما من أحد تحدث عن الثقافة « الخالصة » ، سواء

أكانت بولونية، أو يهودية، أو روسية، و غير ذلك ، ولذا كان رصفك الكلمات الجوفاء مجرد محاولة لصرف انتبـــاه القارىء وطمس جوهر القضية وراء رنين الكلمات الطنانة .

إن في كل ثقافة قومية عناصر، وان كانت غير متطورة، من ثقافة ديمقراطية واشتراكية ، لان في كل أمة جمهوراً كادحاً مستثمراً تولد ظروفه الحيـاتية ، بالضرورة ، ايديولوجيا ديمقراطية واشتراكية . ولكنه توجد ايضاً في كل امة ثقافة برجوازية (غالباً ما تكون اكليريكية ومغرقة في الرجعية) ، لا تبدو بشكل « عناصر » وحسب ، بل بشكل ثقافة سائدة . ولهذا « فالثقافة القومية» هي ، بوجه عام ، ثقافة الملاكين العقاريين ، ورجال الدين ، والبرجوازية، وهذه الحقيقة الاساسية ، الاولية بنظر الماركسيين ، أهملها صاحبنا البوندي، «وأغرقها» في كلامه المرصوف ، أي أنه ، في الواقـع ، لم يفعل إلا تمويه الهوة الطبقية أمام القارىء ، بدلاً من تسليط الضوء على واقـــع وجودها في قلب الثقافة القومية وتوضيح اسبابها . وهكذا تصرف صاحبنا البوندي في الواقع تصرف برجوازي، تقضي مصلحته الحيمة نشر الايمان بثقافة قومية لا طبقية .

أما نحن ، فاننا حين نضع شعار « الثقافة الاممية ، ثقافة النزعة الديمقراطية والحركة العاملة العالمية » ، نأخذ من كل ثقافة قومية مجرد عناصرها الديمقراطية والاشتراكية ، ونأخذها حصراً واطلاقاً لنقابلها بالثقافة البرجوازية ، والتعصب القومي البرجوازي في كل امة من الامم . فما من ديمقراطي ، وبالاحرى ما من ماركسي ، ينكر المساواة في اللغات ، او ينفي ضرورة المناظرة باللغة الأم مع البرجوازية « الأم » ، وضرورة نشر الافكار المناهضة للبرجوازية ولرجال الدين بين جماهير الفلاحين والبرجوازية الصغيرة « الأم » . وتلك حقائق بديهية ، ثابتة، الا ان صاحبنا البوندي يخفي وراءها ما هو موضع جدل ونقاش ، اي ماهيـــة المسألة حقاً .

اما ماهيـة المسألة فهي ان نعرف ما إذا كان يجوز للماركسيين ان يطرحوا شعار الثقافة القوميـة بصورة مباشرة او غير مباشرة ، او ما إذا كان يترتب عليهم حتماً ان يدعوا باللغـات جميعها إلى **أممية** العمال « متكيفين » وفق كافة الخصائص المحلية والقومية .

وأهمية شعار « الثقافة القومية » لا تحدد بوعد من هذا المثقف او ذاك ، او حسن نية منه في ان « يفسر » هـذا الشعار « بمعنى استغلاله لنشر الثقافة الاممية » . فهذه الطريقة في التفكير ليست سوى طريقة ذاتية صبيانية . إن أهمية شعار الثقافة القومية رهن بالعلاقة الموضوعيـة بين طبقات البلد المعني كلها وبين بلدان العالم كافة . الثقافة القومية البرجوازية حقيقة واقعة (وأكرر قولي ان البرجوازية تساوم في كل مكان مـع الملاكين العقاريين ورجال الدين) . ووجود تعصب قومي برجوازي كفاحي يبلد عقول العمال ، ويخبلهم ، ويفرق صفوفهم بقصد سوقهم وراء البرجوازية ، هو الحقيقة الاساسية في عصرنا .

فمن شاء ان يخدم البروليتاريا عليه ان يوحد صفوف عمال مختلف القوميات ويناضل بلا هوادة ضد التعصب القومي البرجوازي، ضد **«تعصب أمته بالذات»** وضد تعصب الامم الاخرى . ومن اراد الدفاع عن شعار الثقافة القومية ، فلا مكان له إلا بين القوميين البرجوازيين الصغار ، لا بين الماركسيين .

اليكم مثالاً مشخصاً ؛ هل يستطيـع الماركسي الروسي أن يتبنى شـعار الثقافة القومية الروسـية ؟ كلا . فإذا فعل ذلك ، ترتب اعتباره من القوميـين ، لا من الماركسيين . فواجبنا أن نحارب الثقافة القومية الروسية السائدة ، ثقافـة البرجوازية والمئة السود ، وأن نعمل في الوقت نفسه على إنمـاء البذور التي نبتت ايضاً في تاريخ حركتنا الديموقراطية والعمالية وتطويرها بروح الأمميـة والتحالف الوثيق مع عمـال البلدان الأخرى . وواجبنـا أن نناضل ضد الملاكين العقاريين

الروس وضد البرجوازيين في بلادنا ، وأن نكافح « ثقافتهم » باسم الأممية . واجبنا أن نناضل « متكيفين » وفقاً لخصائص البوريشكيفيتشيين والستروفيين ، بدلاً من أن نقبل شعار الثقافة القومية ونروّج له .

إن التعصب القومي البرجوازي والأممية البروليتارية شعاران متناقضان تماماً ، لا يمكن التوفيق بينهما أبداً ، شعاران يمثلان المعسكرين الكبيرين الطبقيين في العالم الرأسمالي بأسره ، ويعبران عن **سياستين** (بل عن مفهومين عن العالم) في المسألة الوطنية . والبونديون ، إذ يدافعون عن شعار الثقافة القومية ، ويبنون عليه خطة كاملة وبرنامجاً عملياً كاملًا لما أسموه بـ« استقلال الثقافة القومية الذاتي» ، ينقلون **في الواقع** التعصب القومي البرجوازي الى أوساط العمال .

- ٣ -

فزاعة « التمثل » القوميـة

تتيح قضية التمثل ، أي فقدان الخصائص القومية والانتقال الى أمة أخرى ، تكوين فكرة واضحة عن نتائج الترددات القومية عند البونديين ومن يشاطرونهم أفكارهم .

فالسيد ليبمن، الذي ينقل ويردد بأمانة حجج البونديين العادية أو بالأحرى أساليبهم ، يعتبر المطلب القائل بوحدة واندماج العمال من جميع القوميات في الدولة الواحدة ، ضمن منظمات عمالية واحدة (راجع أعلاه نهاية المقال المنشور في « سيفيرنايا برافدا ») ضرباً من « خرافات التمثل القديمة » .

فقد كتب السيد ليبمن يقول بصدد خلاصة المقال المنشور في « سيفيرنايا برافدا » :

« ولذا ، ينبغي على العامل ، إذا ما سئل : من اية قومية أنت ؟- أن يجيب : أنا اشتراكي - ديموقراطي » .

وهذا ما يراه صاحبنا البوندي منتهى الذكاء والظرافة . ولكنه ينزع القناع عن وجهه نهائياً بمثل هذه النكات ، وبمثل هذه الصيحات بصدد « التمثل » التي يوجهها ضد الشعار الماركسي والديموقراطي المتماسك .

ذلك أن الرأسمالية تعرف في تطورها اتجاهين تاريخيين في المسألة الوطنية: الأول هو يقظة الحياة الوطنية والحركات الوطنية ، والنضال ضد كل اضطهاد قومي ، وإنشاء دول قومية . والثاني هو تطور شتى العلاقات بين الأمم وتكاثرها المتزايد ، وهدم الحواجز القومية ، وإنشاء وحدة الرأسمال العالمية ، ووحدة الحياة الاقتصادية بصورة عامة ، ووحدة السياسة والعلوم الخ ...

وكلا الاتجاهين قانون عالمي للرأسمالية . فالأول يسود في بدء تطورها ، والثاني يميز الرأسمالية الناضجة السائرة نحو تحولها الى مجتمع اشتراكي . وبرنامج الماركسيين في المسألة الوطنية يأخذ هذين الاتجاهين بعين الاعتبار ، أذ يدافع أولاً عن المساواة بين القوميات واللغات ، وعن استحالة القبول بأية امتيازات بهذا الصدد (وعن حق الأمم في تقرير مصيرها ايضاً ، وهذا ما سنتناوله فيما بعد) ، وثانياً يدافع عن مبدأ الأممية والنضال العنيد الحازم ضد تسميم البروليتاريا بسم التعصب القومي البرجوازي ، مهما رقّ ونعم .

وهنا يطرح السؤال التالي : ماذا يقصد صاحبنا البوندي حين يقيم الأرض ويقعدها ضد « التمثل » ؟ لم يكن بوسعه أن يتحدث هنا عن أعمال العنف ضد القوميات ، ولا عن الامتيازات الممنوحة لقومية من القوميات ، لأن كلمة « تمثل » غير مناسبة أبداً في هذا المجال ؛ إذ ان جميع الماركسيين ، سواء بصورة انفرادية أو كشكل رسمي ، قد شجبوا بوضوح بالغ وبلا مواربة ولا ابهام أي

عنف قومي أو اضطهاد أو تفاوت في الحقوق ، مهما يكن طفيفاً ؛ واخيراً ، لأن هذه الفكرة التي يقرّ بها جميع الماركسيين ، قد وردت بمنتهى الصراحة في المقال المنشور في « سيفيرنايا برافدا » الذي هاجمه صاحبنا البوندي هجوماً شديداً .

كلا . المواربة مستحيلة في هذا المضمار . فقد شجب السيد ليبمن «التمثل» دون أن يقصد بهذه الكلمة لا العنف ولا التفاوت ، ولا الامتيازات . فهل يبقى أي شيء فعلي واقعي في فكرة التمثل إذا جرّدت من كل عنف وكل تفاوت؟؟

نعم ، يبقى شيء بكل تأكيد ، هو اتجاه الرأسمالية التاريخي العالمي الى تحطيم الحواجز القومية ، الى محو الفروق القومية ، الى تمثل القوميات ، وهو اتجاه يزداد بروزاً ورسوخاً في كل عقد من العقود ، ويشكل واحداً من أهم العوامل التي تحول الرأسمالية الى اشتراكية .

فليس بماركسي ، حتى ولا بديموقراطي ، مَن لا يقرّ بالمساواة بين القوميات واللغات ولا يدافع عنها ، ومن لا يناضل ضد كل اضطهاد قومي ، وضد كل عدم مساواة قومية . ذلك أمر لا ريب فيه . ولكن ، مما لا ريب فيه ايضاً أن الماركسي المزيف الذي يتهكم على ماركسي من قومية أخرى ويسخر منه متهماً إياه « بالتمثل » ليس في الواقع سوى مجرد قومي تافه ضيق الأفق . والى هذه الفئة من الناس غير الجديرين بالاحترام ينتسب البونديون جميعهم ؛ وكذلك (كما سنرى بعد حين) القوميون ـ الاشتراكيون الأوكرانيون ، أمثال السيدين يوركيفيتش ودونتسوف وشركاهما .

ولكي نبيّن بصورة مشخصة ما تنطوي عليه مفاهيم هؤلاء القوميين التافهين الضيقي الأفق من طابع رجعي ، نورد فيما يلي ثلاثة أنواع من المعطيات .

إن أشد من يقيم الأرض ويقعدها ضد « تمثل » الماركسيين الروس القومي المبدأ ، هم القوميون اليهود في روسيا بعامة والبونديون بخاصة . والواقع أنه يتبين

من المعطيات المذكورة آنفاً أن من أصل عشرة ملايين ونصف مليون يهودي في العالم أجمع يقطن قرابة نصفهم في العالم المتمدن في ظروف يطبق فيها « التمثل » على أوسع نطاق ، بينما يعيش يهود روسيا وغاليسيا التعساء ، المرهقون ، المحرومون من الحقوق ، المسحوقون تحت وطأة البوريشكيفيتشيين (الروس والبولونيين) في ظروف يطبق فيها « التمثل » على اضيق نطاق ، والتميز والانعزالية على أوسع نطاق ، حتى ليصل الأمر الى فرض (منطقة إقامة اجبارية) على اليهود ، لا بل الى إقرار (معدلات ونسب مئوية)لهم وغير ذلك من الطرائف على طريقة بوريشكيفيتش .

إن اليهود المقيمين في العالم المتمدن لايشكلون أمة. فقد اندمجوا بالسكان أكثر مما اندمجوا في أي مكان آخر ، كما يقول كاوتسكي وباوير . وفي روسيا وغاليسيا لا يشكل اليهود أمة ، فهم ليسوا في هذين البلدين ، مع الأسف ،الا فئة مغلقة معزولة (لا بسببهم هم ، بل بسبب البوريشكيفيتشيين) . وهذا هو الرأي الثابت الذي يقول به أولئك الذين يعرفون التاريخ اليهودي معرفة أكيدة ، ويأخذون بالحسبان الوقائع المذكورة أعلاه .

فعلام تدل هذه الوقائع ؟ انها تدل على أن الذين يستطيعون ، وحدهم دون سواهم ، أن يقيموا الدنيا ويقعدوها ضد « التمثل » ، انما هم أولئك اليهود الرجعيون التافهون الضيقو الأفق الذين يريدون أن يعيدوا عجلة التاريخ الى الوراء، أن يجبروها على السير ، لا من النظام القائم في روسيا وغاليسيا باتجاه النظام القائم في باريس ونيويورك ، بل بالاتجاه المعاكس .

أما النسبة التي تستمر بها ، بصورة عامة ، عملية تمثل القوميات في النطاق الحالي للرأسمالية المتقدمة ، فإننا نستطيع أن نكون عنها فكرة تقريبية من المعطيات المتعلقة بالهجرة الى الولايات المتحدة الامريكية الشمالية مثلاً . فقد تدفق

عليها من اوربا ٣ ملايين و ٧٠٠ ألف شخص خلال عشر سنوات ، من ١٨٩١ إلى ١٩٠٠، و ٧ ملايين و ٢٠٠ألف شخص خلال تسع سنوات،من ١٩٠١إلى١٩٠٩. ويستفاد من احصاء سنة ١٩٠٠ أنه كان في الولايات المتحدة أكثر من ١٠ ملايين أجنبي. فولاية نيويورك،التي بيّن هذا الاحصاء أن فيها أكثر من ٧٨٠٠٠ نمساوي و ١٣٦٠٠٠ انجليزي ، و ٢٠٠٠٠ فرنسي و ٤٨٠٠٠٠ الماني و ٣٧٠٠٠ مجري و ٤٢٥٠٠٠ ايرلندي ، و ١٨٢٠٠٠ ايطالي ، و ٧٠٠٠٠ بولوني و ١٦٦٠٠٠من روسيا (معظمهم من اليهود) و ٤٣٠٠٠ اسوجي الخ ، أشبه بطاحون يطحن الفوارق القومية . وما يجري في نيويورك على نطاق واسع وعالمي ، يجري في كل مدينة كبيرة وحاضرة عمالية .

إن من لم يغرق في الأوهام القومية لابدّ أن يرى في هذه العملية ، أي في تمثل الرأسمالية للقوميات ، خطوة تاريخية هائلة الى الأمام ، تقضي على الجمود القومي في شتى الأصقاع النائية ، ولاسيما في البلدان المتأخرة كروسيا مثلا .

انظروا الى روسيا وإلى موقف الروس من الاوكرانيين . يقيناً ان أي ديموقراطي ، وبالأحرى أي ماركسي ، سيناضل بحزم ضد اذلال الاوكرانيين ، وسيطالب بمساواتهم التامة في الحقوق مع الروس . ولكننا نكون قد اقترفنا خيانة مباشرة بحق الاشتراكية واتبعنا سياسة خرقاء ،حتى من وجهة نظر«مهمات» الاوكرانيين « القومية » البرجوازية ، اذا خففنا التحالف والصلة القائمة حالياً بين البروليتاريا الاوكرانية والبروليتاريا الروسية في نطاق الدولة الواحدة .

والسيد ليفبور كيفيتش ، الذي يدّعي أيضاً أنه « ماركسي »(مسكين ماركس !) ، يعطي مثالاً عن هذه السياسة الخرقاء . فقد كتب بوركيفيتش يقول أن سوكولوفسكي (باسوك) ولوكاشيفيتش (تونشابسكي) أكدا في عام ١٩٠٦ أن البروليتاريا الاوكرانية قد « تروسنت » تماماً ، وأنها لم تبق بحاجة الى

منظمة خاصة بها . واذا بيوركيفيتش يمسك بتلابيبها ، دون أن يحاول تقديم أية واقعة من حيث جوهر المسألة ، ويصيح بصورة هيستيرية - تماماً كما يفعل أي قومي متعصب ، زائف القدر وضيق الأفق ، ورجعي - بأن تأكيدهما ينطوي ، حسب زعمه ، على « سلبية قومية » على « جحود قومي » وبأنها « شقا (!!) صفوف الماركسيين الاوكرانيين » ، الخ . . . واذابيوركيفيتش يؤكد أن أقلية العمال في اوكرانيا « واعية قومياً » في الوقت الحاضر ، رغم «نهوض الوعي القومي الاوكراني بين العمال» ، بينما الأغلبية « لا تزال تحت تأثير الثقافة الروسية » . ثم يهتف صاحبنا القومي التافه ، الضيق الأفق ، بأن مهمتنا « لا السير وراء الجماهير بل قيادتها وتوضيع المهمات القومية لها » (مجلة « دزفين[١٥] » ، ص ٨٩) .

إن محاكمة السيد يوركيفيتش هذه كلها قومية برجوازية تماماً . ولكنها لا تصمد أمام النقد ، حتى من وجهة نظر القوميين البرجوازيين الذين يريد بعضهم الحكم الذاتي لاوكرانيا ومساواتها التامة مع روسيا ، والبعض الآخر يريد دولة اوكرانية مستقلة تماماً . ذلك أن عدو المطامح التحررية للاوكرانيين انما هو طبقة الملاكين العقاريين الروس والبولونيين ، ثم الطبقة البرجوازية الروسية والبولونية . فأي قوة اجتماعية تستطيع الصمود بوجه هاتين الطبقتين ومقاومتها ؟ لقد أعطى العقد الأول من القرن العشرين جواباً عملياً على هذا السؤال : هذه القوة هي ، حصراً ، الطبقة العاملة التي تقود وراءها طبقة الفلاحين الديموقراطية . ان السيد يوركيفيتش يخون ، لا مصالح الديموقراطية بوجه عام وحسب ، بل مصالح وطنه اوكرانيا أيضاً ، بمحاولته تفريق ، وبالتالي أضعاف ، القوة الديموقراطية الحقة التي يستحيل مع انتصارها نشوء القهر القومي . إن قيام اوكرانيا حرة أمر ممكن بالعمل الموحد للبروليتاريين الروس والاوكرانيين ، وبدون هذه الوحدة لا يمكن الحديث في هذا الموضوع بتاتاً .

الا أن الماركسيين لا يقتصرون على وجهة النظر القومية البرجوازية ».

فمنذ عشرات السنين تبين أن جنوب البلاد ، أي اوكرانيا ، يتطور اقتصادياً بأسرع مما تتطور أنحاء البلاد الأخرى ، جاذباً من روسيا عشرات ومئات الألوف من الفلاحين والعمال الى مزارع الرأسماليين والمناجم والمدن. إن « تمثل » البروليتاريا الروسية والاوكرانية ـ ضمن هذه الحدود ـ واقع لاشك فيه . وهذا الواقع تقدمي قطعاً . فمكان الموجيك الروسي أو الاوكراني المحدود التفكير ، الجامد ، المستقر ، المتوحش ، تضع الرأسمالية البروليتاري المتحرك ، المتنقل ، الذي تحطم ظروف معيشته ضيق الأفق القومي الصرف ، الروسي أو الاوكراني . ولنفترض أن حدوداً دولية فصلت ذات يوم بين روسيا واوكرانيا ، ففي هذه الحالة ، أيضاً ، سيتسم « تمثل » العمال الروس والاوكرانيين بطابع تقدمي تاريخي لاشك فيه ، يماثل تقدمية انصهار القوميات في اميركا . وبقدر ما تتمتع روسيا واوكرانيا بمزيد من الحرية ، يزداد تطور الرأسمالية سرعة وشمولاً مجتذباً ، بقوة أكبر ، عمال جميع القوميات ، من جميع مناطق الدولة وجميع الدول المجاورة (لو أن الدولة الروسية أصبحت مجاورة لاوكرانيا) الى المدن والمناجم والمعامل.

وحين ينبذ السيد ليف يوركيفيتش مصلحة بروليتاريا القوميتين في الاتحاد والاندماج والتمثل ، في سبيل نجاح آني للمهمات القومية الاوكرانية ، فهو يسلك سلوك برجوازي حقيقي ، بل سلوك برجوازي تافه ، قصير النظر ، ضيق الأفق ، محدود التفكير . فالقوميون البرجوازيون ، ومن بعدهم اليوركيفيتشيون والدونتسوفيون وغيرهم من الماركسيين المزعومين يقولون : المهمات القومية أولاً ثم البروليتارية . أما نحن ، فنقول : المهمات البروليتارية أولاً ، لأنها لا تؤمن مصالح العمل الدائمة الجذرية وحسب ، ولا تضمن مصالح الانسانية وحسب ، بل تؤمن ايضاً مصالح الديمقراطية ؛ فبدون الديمقراطية لا يمكن مجرد التفكير في حكم ذاتي لاوكرانيا أو في استقلالها .

ومن المهم ، أخيراً ، أن نشير في محاكمة بوركيفيتش ، الزاخرة بالآيات القومية ، الى الآية التالية وهي قوله : ان أقلية العمال الاوكرانيين واعية قومياً، بينما « لا تزال الأغلبية تحت تأثير الثقافة الروسية » .

ولكن معارضة الثقافة الاوكرانية بمجموعها بالثقافة الروسية بمجموعها ايضاً،إنما تعني أوقح خيانة لمصالح البروليتاريالصالح التعصب القومي البرجوازي.

واننا نقول لجميع القوميين – الاشتراكيين : إن في كل أمة معاصرة أمتين ، وفي كل ثقافة قومية ثقافتين قوميتين . فهناك ثقافة روسية مقرونة بأسماء بوربشكيفيتش وغوتشكوف وستروفه وأمثالهم،وهناك ايضاً ثقافة روسيةمقرونة باسماء تشيرنيشفسكي وبليخانوف وامثالهما . كذلك ثمة ثقافتان مماثلتان في اوكرانيا ، وكذلك في المانيا ، وفرنسا وانكلترا ، وعند اليهود ، الخ ... فإذا كانت اغلبية العمال الاوكرانيين واقعة تحت تأثير الثقافة الروسية ، فإننا نعلم علم اليقين أن لأفكار الحركة الديموقراطية والديموقراطية الاشتراكية الروسية تأثيرها إلى جانب تأثير افكار الثقافة الروسية الإكليريكية والبرجوازية . فالماركسي الاوكراني يحارب النوع الثاني من الثقافة ، ويبرز الثقافة الأولى ، ويقول للعمال الاوكرانيين : « ينبغي علينا حتماً أن نتمسك بكل قوانا بأي امكانية للاتصال بالعامل الروسي الواعي وأدبه وافكاره ، وأن نستخدم هذه الامكانية وندعمها . فهذا ما تقتضيه المصالح الجذرية للحركة العاملة الاوكرانية والروسية على السواء .

فإذا انجرف الماركسي الاوكراني في تيار حقد **مشروع وطبيعي تماماً** على الطغاة المضطهدين الروس ، **الى حد** أن يكن ولو قدراً طفيفاً جداً من الحقد، ولو شعوراً من البغضاء، على ثقافة العمال الروس البروليتارية وقضيتهم البروليتارية فان هذا الماركسي ينزلق ، بالتالي ، في مستنقع التعصب القومي البرجوازي . كذلك ينزلق الماركسي الروسي في مستنقع التعصب القومي ، لا البرجوازي

وحسب ، بل الفارق في رجعية « المائة السود » ايضاً ، إذا نسي لحظة واحدة مطلب المساواة التامة بين الاوكرانيين والروس ، أو حق الاوكرانيين في اقامة دولة مستقلة .

وطالما أن العمال الروس والاوكرانين يعيشون في اطار دولة واحدة ، ينبغي عليهم أن يعملوا معاً ، بأوثق ما يكون من الوحدة والاندماج التنظيمي ، على الدفاع عن ثقافة الحركة البروليتارية ، المشتركة أو الأممية ، وأن يبدوا اقصى ما يكون من التسامح والتساهل فيما يتعلق بلغة الدعوة وأن يأخذوا بعين الاعتبار المسائل التفصيلية المحلية الخالصة ، أو القومية الخالصة لهذه الدعوة . ذلك ما تتطلبه الماركسية بالضرورة . وكل دعوة ترمي الى فصل عمال قومية ما عن عمال قومية أخرى ، وكل حملة على « التمثل » الماركسية ، وكل محاولة في قضايا البروليتاريا لمعارضة ثقافة قومية بمجموعها بثقافة قومية أخرى يزعم انها واحدة الخ ... ذلك كله ضرب من التعصب البرجوازي ينبغي حتماً مكافحته بلا هوادة.

كتب فيما بين ت ١ – ك ١ ١٩١٣

ج ٢٤ ص ١١٩ – ١٣٠

بصدد كرامة الروس القومية

ما اكثر ما يتكلمون اليوم وما يتباحثون ويصيحون بصدد القومية والوطن! الوزراء الليبراليون والراديكاليون في انكلترا ، وجمهرة من الكتاب السياسيين الفرنسيين « التقدميين » (الذين بدوا على وفاق تام مع كتاب الرجعية السياسيين) ، وكثرة من الكتبة الرسميين والكاديت والتقدميين (وحتى بعض من الشعبيين و « الماركسيين ») في روسيا ، يتغنون كلهم بالف لحن ولحن بحرية « الوطن » واستقلاله ، وبعظمة مبدأ الاستقلال الوطني ، حتى غدا من العسير على المرء ان يميز في هذه الجوقة الحد الفاصل بين المأجور الذي يكيل آيات الثناء للجلاد نيقولاي رومانوف ، أو لمعذبي الزنوج وسكان الهند ، وبين الأخرق الضيق الأفق الذي يسبح مع « التيار » لبلاهته او لضعف في نفسه . ليس من المهم التمييز بين هذا او ذاك . فأمامنا تيار فكري واسع جداً وعميق جداً ، جذوره على صلة وثيقة بمصالح السادة ملاكي الأراضي والرأسماليين في الأمم العظمى . وتنفق على الدعاية للأفكار الملائمة لمصالح هاتين الطبقتين عشرات ، بل مئات الملايين في السنة : وهي طاحونة كبيرة تتلقى الماء من كل ناحية ، ابتداء من الشوفيني ايماناً كمنشيكوف ، وانتهاء بالشوفينين انتهازاً أو ضعفاً كأمثال بليخانوف وماسلوف وروبانوفيتش وسميرنوف وكروبوتكين وبورتسيف .

فلنحاول ايضاً ، نحن الاشتراكيين - الديموقراطيين الروس ، تحديد موقفنا من هذا التيار الفكري . فلا يليق بنا ، نحن ممثلي الأمة العظمى الممتدة إلى أقصى الشرق من اوروبا والى قسم كبير من آسيا ، أن ننسى مدى أهمية المسألة

القومية ، لا سيما في بلاد توصف بحق بأنها « سجن الشعوب » ، وفي وقت بدأت فيه الرأسمالية توقظ للحياة وللادراك ، وعلى التحديد في اقصى شرق اوربا وفي آسيا ، مجموعة من أمم « جديدة » كبيرة وصغيرة ، وفي ظرف جندت فيه القيصرية الملايين من الروس وغير الروس « لحل » مجموعة كاملة من المسائل القومية وفقاً لمصالح مجلس النبلاء المتحدين [١٦] وغوتشكوف و كريستوفنيكوف ودولغوروكوف و كوتلير ورودیتشیف وأضرابهم .

هل غريب علينا ، نحن البروليتاريين الروس الواعين ، الشعور بالكرامة القومية ؟ كلا ، بالطبع ! نحن نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، ونبذل قصارى جهودنا لكي ننهض بجماهير شغيلته (اي بتسعة اعشار سكانه) الى مستوى حياة الديمقراطيين والاشتراكيين الواعية . وا كثر ما يحز في انفسنا أن نرى ما يتعرض له وطننا الرائع من الوان القهر والاضطهاد والمهانة على ايدي الجلادين أعوان القيصر ، نبلاء ورأسماليين ، ونحن نعتز بأن هذا العنف قد لاقى المقاومة من بيئتنا ، من بيئة الروس ، وبأن هذه البيئة قد ابرزت راديشيف والديسمبريين والثوريين اللانبلاء في العقد الثامن ، وبأن الطبقة العاملة الروسية قد اسست سنة ١٩٠٥ حزباً جماهيرياً ثورياً قوياً ، وان الموجيك الروسي بدأ ، في الوقت نفسه ، يصبح ديمقراطياً ، بدأ يزيح عن أكتافه الكاهن والاقطاعي .

نحن ما نزال نذكر أن الديموقراطي الروسي تشيرنيشيفسكي قال منذ نصف قرن مضى ، عندما وهب قضية الثورة حياته : « امة وضيعة ، امة عبيد ، الجميع عبيد من اعلى الى أسفل » . إن العبيد الروس السافرين والمستترين (عبيد القيصرية) لا يروقهم أن يتذكروا هذه الكلمات . على أن هذه الكلمات هي ، في رأينا ، كلمات حب صادق للوطن ، حب أصابه السأم لانعدام الروح الثورية بين جماهير السكان الروس . كانت هذه الروح معدومة آنذاك ، وهي اليوم ضعيفة ، ولكنها موجودة.

ونحن مفعمون بالكرامة القومية ، لأن الأمة الروسية انشأت هي ايضاً طبقة ثورية برهنت ، هي ايضا ،أنها أهل لأن تعطي البشرية لا المذابح العظمى وصنوف المشانق والسجون والمجاعات الكبرى والخنوع العظيم أمام القسس والقياصرة والاقطاعيين والرأسماليين فحسب ، بل آيات رائعة من النضال من أجل الحرية والاشتراكية أيضاً .

نحن مفعمون بالكرامة القومية ، ولذلك بالضبط نمقت أشد المقت ماضينا الذليل (عند ما كان النبلاء الاقطاعيون يسوقون الموجيك الى الحرب لخنق حرية هنغاريا وبولونيا وايران والصين) ، ونمقت أشد المقت حاضرنا الذليل ، حيث يسوقنا الاقطاعيون أنفسهم ، يساعدهم الرأسماليون ، الى الحرب كي نخنق بولونيا واوكرانيا ، وكي نقمع الحركة الديموقراطية في ايران والصين ، وندعم العصابة التي تهين كرامتنا القومية الروسية ،عصابة رومانوف وبوبرينسكي وبوريشكيفيتش واضرابهم . لا يلام العبد إذا ولد عبداً ، غير أن العبد الذي يبرأ من النزوع الى الحرية ، ويبرر بالاضافة إلى ذلك عبوديته ويزينها (يسمي مثلاً خنق بولونيا واوكرانيا ، الخ ... « دفاعاً عن وطن الروس) ، إن مثل هذا العبد هو نذل ووضيع ، يستدعي بحق شعور السخط والاحتكار والاشمئزاز.

« إن شعباً يظلم شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً ـ هذا ما قاله رجلان هما اكبر ممثلي الديموقراطية المتماسكة في القرن التاسع عشر ،نعني ماركس وانغلز ، اللذين اصبحا معلمي البروليتاريا الثورية . ونحن ، العمال الروس المفعمين بشعور الكرامة القومية ، نريد ، مهما كلف الامر ، روسيا عزيزة جمهورية ديموقراطية ، مستقلة ، حرة ، تبني علاقاتها مع جيرانها على أساس مبدأ انساني من المساواة ، لا على أساس مبدأ الامتيازات الاقطاعي المهين لأمة عظمى . ونظراً لأننا نريدها كذلك ، نقول : في اوروبا القرن العشرين (حتى ولو في اقصى

شرق اوروبا) لا يمكن « الدفاع عن الوطن » إلا عن طريق النضال بجميع الوسائل الثورية ضد الملكية والاقطاعيين والرأسماليين في وطننا نحن ، اي ضد أسوأ أعداء وطننا ؛ لا يمكن للروس أن « يدافعوا عن الوطن » عن غير طريق الرغبة بانهزام القيصرية في كل حرب ، باعتبار ذلك أهون الشرين لتسعة اعشار سكان روسيا العظمى ، لأن القيصرية لا تظلم تسعة اعشار السكان هذه اقتصادياً وسياسياً وحسب ، بل هي تفسدهم وتحتقرهم وتفقدهم عزتهم وكرامتهم إذ تعودهم على ظلم الشعوب الأخرى وتغطية عارهم بعبارات نفاق تدعي الوطنية .

قد يعترض معترض قائلاً : إنه قد نشأت وتعززت بالاضافة إلى القيصرية وفي كنفها قوة تاريخية أخرى هي الرأسمالية الروسية التي تقوم بعمل تقدمي وتركز وترص ، من الناحية الاقتصادية ، مقاطعات شاسعة . غير أن مثل هذا الاعتراض لا يبرر ، بل يشدد الاتهام الموجه لاشتراكيينا ـ الشوفينيين الذين ينبغي أن ينعتوا بالاشتراكيين القيصريين ـ البوريشكيفيشيين (على غرار ما فعل ماركس إذ نعت اللاساليين بالاشتراكيين الملكيين ـ البروسيين) . ولنفرض أن التاريخ سيحسم المسألة لصالح الرأسمالية الروسية ، ضد مئة أمة وامة من الأمم الصغيرة ، وهذا ليس بالأمر المستحيل ، لأن تاريخ رأس المال باكمله هو تاريخ عنف ونهب ، تاريخ دماء وأقذار . نحن لسنا من انصار الأمم الصغيرة على التأكيد ، ونحن ، في حالة تساوي الشروط الأخرى نقف بصورة قاطعة الى جانب المركزية ضد المثل الأعلى لصغار البرجوازيين القائل بالعلاقات الاتحادية . ولكن ، اولاً ، ليس من شأننا ، حتى في هذه الحالة ، ليس من شأن الديموقراطيين (فضلاً عن الاشتراكيين) أن يساعدوا رومانوف ـ بوبرينسكي ـ بوريشكيفيتش على خنق اوكرانيا ، الخ . . لقد قام بيسمارك على طريقته ، على طريقة اليونكر ، بعمل تاريخي تقدمي ؛ ولكن ما اروع « الماركسي » الذي يفكر استناداً الى ذلك في تبرير مساعدة الاشتراكيين لبيسمارك ! ولا يجب أن يغيب عنا أن بيسمارك قد مهد للتطور

الاقتصادي بتوحيده الألمان المبعثرين الذين كانت تظلمهم الشعوب الأخرى . هذا في حين ان ازدهار روسيا العظمى الاقتصادي وتطورها السريع يتطلبان تخليص البلاد من طغيان الروس على الشعوب الأخرى ، وهـــذا هو الفرق الذي ينساه الروس المغرمون بأشباه بيسمارك الروسي .

ثانياً ، واذا ما حسم التاريخ المسألة لصالح الرأسمالية الروسية ، يستنتج من ذلك أن الدور **الاشتراكي** للبروليتـــاريا الروسية سيكون اكبر باعتبارها المحرك الرئيسي للثورة الشيوعية التي تنشأ عن الرأسمالية . والثورة البروليتارية تتطلب تربيــة العمال ، خلال فترة طويلة ، بروح الإخاء والمساواة **التامة** بين الأمم . وعلى ذلك فمن الضروري ، من وجهة نظر مصالح البروليتاريا الروسية ذاتها ، تربية الجماهير خلال فترة طويلة بروح الدفاع بمنتهى الحزم والاستقامة والجرأة والروح الثورية ، عن المساواة التامة وعن حق الأمم التي يظلمها الروس في تقرير المصير . ان مصلحة كرامة الروس القومية تتفق (ان لم تفهم كما يفهمها العبيد) والمصالح **الاشتراكية** للبروليتاريين الروس (وغير الروس) . ان ماركس ، الذي عاش عشرات السنين في انكلترا واصبح نصف انجليزي وطالب بالحرية والاستقلال الوطني لارلندا وفق مصالح حركة العمال الانكليز الاشتراكيـــة ، لا يزال قدوتنا .

إن اشتراكيينا الشوفينيين الذين ترعرعوا على تربتنـا ، مثل بليخانوف ومن على شاكلته وأضرابه ، يظهرون في الحالة المفترضة الأخيرة التي بحثناها خونة لا لوطنهم وحسب ، لروسيـا العظمى الديمقراطية الحرة ، بل للاخاء البروليتاري بين جميـع شعوب روسيا ، أي خونة لقضية الاشتراكية .

طبع في ١٢/١٢/١٩١٤
ج ٢٦ ص ١٠٦ – ١١٠

من كتاب
« ما العمل ؟ »

المسائل الملحة لحركتنا

لم يسبق أن طرحت أمام أي حزب اشتراكي في العالم مهام كالمهام الوطنية المطروحة أمام الاشتراكية الديمقراطية الروسية . وسنتكلم فيما بعد عن الواجبات السياسية والتنظيمية التي تلقيها على عاتقنا مهمة تحرير الشعب كله من نير الحكم المطلق . وبودنا فقط ان نشير هنا الى أنه **لا يستطيع القيام بدور المناضل الطليعي الا حزب يسترشد بنظرية الطليعة** . واذا أراد القارىء أن يكوّن فكرة مشخصة الى حد ما عما يعنيه ذلك ، فليتذكر اسلاف الاشتراكية الديمقراطية الروسية من أمثال غرتسين وبيلينسكي وتشيرنيشفسكي والمجموعة الرائعة من ثوريي العقد الثامن ؛ وليفكر في الأهمية العالمية التي يكتسبها الأدب الروسي في الوقت الراهن ؛ فليفكر .. ويكفيه هذا ! ..

كتب في خريف ١٩٠١ – شباط ١٩٠٢

ج ٢٦ ص ٢٥

دور مختلف الفئات والطبقات في حركة التحرر

وردت في احدى المجلات الحقوقيـــة احصائيات عن الجرائم السياسية في روسيا[17]. ولهذه المعطيات مغزاها الكبير ، فهي تعطي معلومات دقيقة عن دور الفئات والطبقات في حركة التحرر بمختلف عهودها التاريخية .

هذه المعطيات غير تامة مـع الأسف ، لأنها أبرزت المراحل التالية فقط وهي : ١٨٢٧ – ١٨٤٦ (عهد القنانة) ؛ ١٨٨٤ – ١٨٩٠ (عهد الحركة الروزناتشينية (*) ؛ اختلاط الحركة البرجوازية الليبرالية والليبرالية الشعبية) . وأخيراً الفترتان ، السابقة للثورة مباشرة (١٩٠١ – ١٩٠٣) ، والثورية (١٩٠٥ – ١٩٠٨) أي فترتا الحركة البرجوازية الديمقراطية والبروليتارية .

والمعطيات المتوفرة عن دور الفئات هي التاليـة . من أصل مئة قدموا للمحاكمة بسبب جرائم سياسية كان ما يلي :

الفترة	من النبلاء	من البرجوازيين الصغار والفلاحين	من رجال الدين	من التجار
١٨٢٧ - ١٨٤٦	٧٦	٢٣	؟	؟
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٣٠،٦	٤٦،٦	٦،٤	١٢،١
١٩٠١ - ١٩٠٣	١٠،٧	٨٠،٩	١،٦	٤،١
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٩،١	٨٧،٧	؟	؟

(*) حركة مثقفين لا ينتمون الى النبلاء بل الى مختلف الفئات الشعبية (المعرب)

يظهر بوضوح من هنا كيف أصبحت الحركة التحررية في القرن التاسع عشر اكثر ديمقراطية ، وكيف تبدل تركيبها الطبقي . ان عهد القنانة (١٨٢٧ - ١٨٤٦) يتصف بسيطرة النبلاء . انها الفترة الممتدة من الديسمبريين حتى غرتسن: روسيا الفلاحية مسحوقة وساكنة ، والمحتجون أقلية ضئيلة من النبلاء العاجزين بدون مساندة الشعب . ولكن أفضل الناس من طبقة النبلاء ساعدوا على **ايقاظ الشعب** .

الفترة الروزناتشينية أو الفترة البرجوازية الليبرالية (١٨٨٤ - ١٨٩٠)- ويشكل النبلاء فيها أصغر قسم بين المشاركين في الحركة التحررية . ولكن إذا أضفنا إليهم رجال الدين والتجار ، سيكون لدينا ٤٩٪ **أي النصف تقريباً** . إن نصف الحركة لا زال من صنع الفئات صاحبة الامتيازات ، أي النبلاء والفئات العليا من البرجوازية . ومن هنا عجز الحركة بغض النظر عن بطولة أفرادها .

الفترتان ، الثالثة (١٩٠١ - ١٩٠٣) والرابعة (١٩٠٥ - ١٩٠٨) ، هما فترتان الديمقراطية الفلاحية والبروليتارية . إن دور النبلاء فيهما تافه جداً . البرجوازيون الصغار والفلاحون يشكلون ٨/١٠ قبل الثورة و ٩/١٠ أثناءها . لقد استيقظت الجماهير . ومن هنا نتيجتان : ١ - امكانية الحصول على شيء ماجدي ٢ - حقد الليبراليين على الحركة (ظهور الليبرالية المعادية للثورة) .

والمعطيات المتعلقة بالمهن في الفترات الثلاث الأخيرة فقط أكثر دلالة . فمن أصل مائة مشارك في حركة التحرر ، قدموا للمحاكمة لجرائم سياسية ، كان مايلي:

الفترة	عاملون بالزراعة	بالصناعة والتجارة	أعمال حرة وطلاب	أعمال غير محددة وعاطلون
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٧،١	١٥،١	٥٣،٣	١٩،٩
١٩٠١ - ١٩٠٣	٩،٠	٤٦،١	١٨،٧	٨،٠
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٢٤،٢	٤٧،٤	٢٢،٩	٥،٥

إنها أرقام ذات دلالة عظيمة ، إذ يتضح منها مباشرة دور الروزناتشينين في فترة الشعبية ومحبي الشعب (١٨٨٤ – ١٨٩٠) : فمعظم المشاركين طلاب وأصحاب مهن حرة (٥٣٫٤٪) . إن اختلاط الحركة البرجوازية الليبرالية والليبرالية الشعبية بالدور البارز الذي قام به الطلاب والمثقفون هي الماهية الطبقية للأحزاب والحركة آنذاك . الفلاحون (الزراعة) وعمال الصناعة (الصناعة والتجارة) يشكلون أقلية ضئيلة (٧ و ١٥٪) . أمّا ما يسمى بالناس المنفصلين عن طبقتهم الذين بقوا بدون أي رابطة مع أي طبقة ـ هؤلاء الناس يشكلون الخمس (١٩٫٩٪) ، أي أن عددهم أكبر من عدد الفلاحين وأكبر من عدد العمال !

من هنا نشأت الأشكال الخاصة لهذه الحركة ، ومن هنا عظمة بطولتها وعجزها على حدّ سواء .

وتقترب فترة ما قبل الثورة (١٩٠١ - ١٩٠٣) . إن عامل المدينة (الصناعة والتجارة) يقوم فيها بالدور الأول . ومع أن العمال يمثلون أقلية الشعب ، فإنهم يشكلون **نصف المشاركين** في الحركة تقريباً (٤٦٫١٪) . أمّا المثقفون والطلاب **فقد أصبحوا** في المرتبة الثانية (على الرغم من ادعاءات الليبراليين والتصفويين الخرافية حول الحزب العمالي) . إن دور الفلاحين ضئيل (٩٪ في « الزراعة ») ، لكنه ينمو .

والفترة الأخيرة من (١٩٠٥ – ١٩٠٨) ، وقد نما فيها دور عمال المدن من ٤٦٫١٪ إلى ٤٧٫٤٪ ، هؤلاء الذين أيقظوا بدورهم جماهير الفلاحين التي زادت مشاركتها في الحركة أكثر من الطبقات الأخرى كلها : من ٩٪ حتى ٢٤٫٢٪ ، أي زادت بنسبة **ثلاثة أضعاف تقريباً** . لقد تجاوز عدد الفلاحين عدد المثقفين الليبراليين (٢٢٫٩٪) ، أما دور المنفصلين عن طبقتهم فتافه (٥٫٥٪) . إن

طابع الافتراء والحقد الكامن في النظرة الليبرالية إلى ماهية ثورتنا ، على أنها ثورة « مثقفين » ، غنيّ عن البيان .

البروليتاريا والديمقراطية البرجوازية (الفلاحون) ـ هاتان هما القوتان الاجتماعيتان للحركة . لكن الفلاحين الذين يشكلون الغالبية العظمى من السكان ، بالنسبة للعمال وساكني المدن ، لا زالوا في المؤخرة إذ لا يقدمون إلاّ ربع المشاركين (٢٤٫٢٪) ، ذلك أنهم لمّا يستيقظوا إلاّ بشكل ضعيف .

يبقى علي أن أنهي حديثي بكيل المديح لسياسة ستوليبين الزراعية (سياسة الثالث من حزيران) التي توقظ من تبقى من الفلاحين بنجاح وسرعة وقوّة . . .

طبع في ١٩١٣/٨/٢٨

ج ٢٣ ، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩

من ماضي الصحافة العمالية في روسيا

يرتبط تاريخ الصحافة العمالية في روسيا اوثق ارتباط بتاريخ الحركة الديمقراطية والاشتراكية . ولهذا ، ليس بمقدورنا أن نفهم فعلاً أسباب الاعداد للصحافة العمالية ، ونشوئها بهذا الشكل أو ذاك ، إلاّ إذا عرفنا المراحل الرئيسية لتطوّر الحركة التحررية .

لقد مرّت حركة التحرر في روسيا بثلاث مراحل رئيسية تتّسق والطبقات الرئيسية الثلاث في المجتمع ، التي أضفت طابعها المميّز على الحركة ١ – مرحلة حركة النبلاء ، وتمتد على وجه التقريب من (١٨٢٥ إلى ١٨٦١) . ٢ – المرحلة الروزنتشينية أو البرجوازية الديمقراطية من١٨٦١إلى ١٨٩٥ تقريباً . ٣–المرحلة البروليتارية من ١٨٩٥ حتى يومنا هذا .

كان الديسمبريون وغرتسن أبرز المشاركين في حركة النبلاء . ففي تلك المرحلة لا يمكن التحدث اطلاقاً عن تميز الطبقة العاملة عن الجمهور الواسع من فئة الأقنان « المعدومة الحقوق » ، « الفئة الدنيا » ، « الرعاع » . وكانت الصحافة الديمقراطية العامة غير المراقبة، وفي مقدمتها جريدة غرتسن (الكولوكول[١٨]) السلف الأول للصحافة العمالية (البروليتارية الديمقراطية أو الاشتراكية الديمقراطية) .

وكما أيقظ الديسمبريون غرتسن فقد ساعد هو وصحيفته « الكولوكول » على إيقاظ الرزنوتشينيين ، وهم ممثلون متعلمون للبرجوازية الليبرالية والديمقراطية

لا ينتمون الى الأشراف بل الى فئة الموظفين والبرجوازيين والتجار والفلاحين . وكان ف. غ بيلينسكي ،وفي عهد القنانة، السبّاق الى إظهار إخراج الرازنوتشينين للنبلاءإخراجاً كاملاً من حركة التحرر الوطني . وكانت رسالته الشهيرةالىغوغول، التي أجملت نتائج نشاطه الأدبي ، أحد أفضل مؤلفات الصحافة الديمقراطية غير المراقبة ، التي لا تزال تحتفظ بأهمية بالغة حية حتى يومنا هذا .

وقد استدعى سقوط القنانة ظهورالرازنوتشينيين، بوصفهم أهم المشاركين وأكثرهم جماهيرية ، في حركة التحرر الوطني بعامة ، وفي الصحافة الديمقراطية غير المراقبة بخاصة . وأصبحت الشعبية الاتجاه السائد المطابق لوجهة نظر الرازنوتشينيين . ولم تستطع الشعبية ، بوصفها تياراً اجتماعياً ، أن تتخلص من الليبرالية من اليمين ، والفوضوية من اليسار . لكن تشيرنيشفسكي الذي طوّر، بعد غرتسن ، النظرة الشعبية خطا خطوة هائلة الى الأمام ضد غرتسن . فقد كان اكثر ديمقراطية وتماسكاً وروحاً نضالية من سابقيه ، ومن مؤلفاته تهبّ روح الصراع الطبقي . لقد عرى تعرية عنيفة ، وحتى النهاية ، خيانات الليبرالية ، تعرية لا زالت كريهة على نفوس الكاديت والليبراليين حتى الآن ، وكان ، الى ذلك ، ناقداً عميقاً الى حد الروعة للرأسمالية على الرغم من اشتراكيته الطوباوية .

ويعرف العقدان السابع والثامن بمجموعة كاملة من المؤلفات الصحفية غير المراقبة ذات الطابع الديمقراطي الكفاحي والاشتراكي الديمقراطي بدأت تنتشر بين الجماهير . ويحتل العاملان بيوتر ألكسييف وستيبان خالتورين وغيرهما مكاناً بارزاً جداً بين رجال ذلك العهد . إلا أن التيار البروليتاري الديمقراطي لم يستطع أن يتميز وسط هذا السيل العارم من الشعبية . ولم يصبح تميّزه ممكناً إلا بعد أن تحدد فكرياً اتجاه الماركسية الروسية (جماعة « تحريرالعمل » ، عام١٨٨٣)(١٩)

وبدأت حركة عماليـــة متواصلة مرتبطة بالاشتراكية الديمقراطية (إضرابات بطرسبرج في عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦) .

وسنورد ، قبل الانتقال الى هذه الفـترة ، معطيات تبين بجـلاء الفروق الطبقية بين المراحل التاريخية الثلاث التي أشرنا اليها، وهي معطيات تتناول توزيع الأشخاص الذين قدموا الى المحاكمة لجرائم سياسية ، من حيث فئاتهم ومهنهم (من حيث طبقتهم) . فمن أصل (١٠٠) مائة من هؤلاء كان :

في أعوام	نبـلاء	برجوازيون صغار وفلاحون	فلاحون	عمال	مثقفون
١٨٢٧ - ١٨٤٦	٧٦	٢٣	؟	؟	؟
١٨٨٤ - ١٨٩٠	٣٠،٦	٤٦،٦	٧،١	١٥،١٠	٧٣،٢
١٩٠١ - ١٩٠٣	١٠،٧	٨٠،٩	٩،٠	٤٦،١	٣٦،٧
١٩٠٥ - ١٩٠٨	٧،١	٨٧،٧	٢٤،٢	٤٧،٤	٢٨،٤

ففي مرحلة النبلاء ، مرحلة القنانة (١٨٢٧ - ١٨٤٦) أعطى النبـلاء ، وهم الأقليـة الضئيلة من السـكان ، الغالبية العظمى من « المجرمين السياسيـين » (٧٦ ٪) . وفي المرحلة الشـعبية ، مرحـلة الرازنوتشينية (١٨٨٤ - ١٨٩٠) (ليس عندنا مع الأ ـ ف معطيات مماثلة عن العقدين السابـع والثامن) ، يتراجـع النبلاء الى الصف الثاني ، ولكنهم يعطون مع ذلك نسـبة عظيمة (٣٠،٦ ٪) ، كما يشكل المثقفون الأغلبية الساحقة بين المشاركين في الحركة الديمقراطية (٧٣،٢٪) .

أما الفترة ما بين عامي ١٩٠١ - ١٩٠٣ ، وفيها ، بالضبط ، ظهرت أول صحيفة ماركسية سياسـية ، هي « الإسكرا » [٢٠] القديـمة ، وأصبحت الحركة ديمقراطية تماماً ، (١٠،٧ ٪) من النبلاء و (٨٠،٩ ٪) من « غير ذوي الامتيازات » ، فالأغلبية فيها للعمال (٤٦،١ ٪) على المثقفين (٣٦،٧ ٪) .

ولنسجّل ، سلفاً ، أن مرحلة الحركة الجماهيرية الأولى (١٩٠٥ - ١٩٠٨) تظهر التغيّر بشكل إزاحة الفلاحين (من ٩٠،٠ ٪ الى ٢٤،٢ ٪) للمثقفين عن مواقعهم (من ٣٦،٧ إلى ٢٨،٤ ٪) .

تعتبر جماعة « تحرير العمل » ، التي نشأت خارج البلاد عام ١٨٨٣ ، مؤسسة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا، فقد أخذت مؤلفاتها الادبية غير المراقبة تعرض أفكار الماركسية بانتظام لأول مرة ، وما تستدعيه من نتائج عملية - هذه الأفكار التي تعبّر ، كما تدل على ذلك تجربة العالم كله ، تعبيراً صحيحاً عن ماهية الحركة العمالية ومهامها . ولعل إصدار الصحيفة الاشتراكية الديمقراطية ، غير المراقبة طبعاً ، والمسماة « رابوتشي » [٢١] عام ١٨٨٥ في بطرسبرغ كان خلال اثني عشر عاماً ، من ١٨٨٣ وحتى عام ١٨٩٣ ، المحاولة الوحيدة لإنشاء صحافة عمالية اشتراكية ديمقراطية في روسيا . لكنه لم يصدر من هذه الصحيفة إلا عددان. إذ لم يمكن غياب الحركة العمالية الجماهيرية الصحافة العمالية من أن تتطور تطوراً واسعاً .

وتبدأ منذ عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ ، أي من تاريخ إضرابات بطرسبرج الشهيرة ، حركة عمالية جماهيرية بمشاركة الاشتراكية الديمقراطية وهذه الفترة ، بالذات ، هي فترة ظهور الصحافة العمالية في روسيا بالمعنى الدقيق للكلمة . وكانت أهم منشورات الصحافة العمالية آنذاك بيانات غير مراقبة، وغير مطبوعة في معظمها، بل مسحوبة على الآلة ، ومكرسة للدعوة الاقتصادية (وغير الاقتصادية كذلك) ، أي لعرض حاجات عمال مختلف المعامل وفروع الصناعة ومطالبهم . ومن المسلّم به أنه كان من المتعذر أن يوجد مثل هذا الأدب بدون مشاركة العمال التقدميين مشاركة فعّالة جداً في وضع هذه البيانات وتوزيعها . وبامكاننا أن نذكر من بين عمال بطرسبرج الناشطين آنذاك فاسيلي اندريفتش شيلغونوف الذي فقد بصره فيما

بعد وحرم بهذا امكانية قيامه بالعمل بمثل نشاطه السابق ، ونصير « الاسكرا » المتحمس (١٩٠٠ - ١٩٠٣) « والبلشفيكي » فاسيلي ايفان بابوشكين (١٩٠٣ - ١٩٠٥) الذي أعدم لاشتراكه في الانتفاضة التي حدثت في سيبريا في أواخر عام ١٩٠٥ أو أوائل ١٩٠٦ .

كانت هذه البيانات تصدر عن المجموعات والحلقات والمنظمات الاشتراكية الديمقراطية التي أخذت تسمى منذ أواخر عام ١٨٩٥ « اتحادات النضال من أجل تحرير الطبقة العاملة » . وفي عام ١٨٩٨ أسس مؤتمر ممثلي المنظمات الاشتراكية الديمقراطية المحلية « الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي » .

وبدأت تظهر بعد البيانات صحف عمالية غير مراقبة . ففي بطرسبرج ، مثلاً، صدرت في عام ١٨٩٧ صحيفة « رابوتشي ليستوك [٢٢] » وصحيفة «رابوتشايا ميسل»[٢٣] التي ما لبثت أن انتقلت الى خارج البلاد . ومنذ هذا الوقت والصحف الاشتراكية الديمقراطية المحلية تظهر غير مراقبة حتى الثورة لقد كانت عرضة ، بالطبع ، للقضاء عليها ، لكنها كانت تعود مجدداً الى الظهور في كافة أرجاء روسيا.

وتبدو البيانات العمالية والصحف الاشتراكية الديمقراطة آنذاك ، اي منذ عشرين سنة ، اذا ما أخذت مجتمعة ، السلف المباشر للصحافة العمالية الحالية : ففيها ، كما في الصحافة العمالية الحالية ، فضح لما يجري في المعامل واخبار النضال « الاقتصادي » ، والتوضيح المبدئي لمهام الحركة العمالية من وجهة نظر الماركسية والديمقراطية المتماسكة ، واخيراً **الاتجاهان الرئيسيان نفساهما** : الماركسي والانتهازي .

وهنالك واقع رائع لم يعرف حقه من التقدير حتى الآن ، هو أنه ما إن ظهرت الحركة العمالية **الجماهيرية** في روسيا (في عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦) ، حتى

ظهر الانقسام الى اتجاهين : ماركسي وانتهازي ، هذا الانقسام الذي يغير شكله ولباسه الخ .. لكنه يبقى ، من حيث جوهره ، واحداً من ١٨٩٤ حتى ١٩١٤ . ومن الواضح تماماً أن لهذا الشكل بالذات من الانفصال والصراع داخل الاشتراكية الديمقراطية جذوراً اجتماعية ، طبقية عميقة .

كانت صحيفة « رابوتشايا ميسل » الآنفة الذكر تمثل آنذاك الاتجاه الانتهازي الذي سمي « بالاتجاه الاقتصادي » وقد توضحت معالم هذا الاتجاه في المناقشات التي دارت بين رجال الحركة العمالية المحليين في عامي ١٨٩٤و١٨٩٥ . وقد انتهى ظهور « الاقتصاديين » وتراصهم في الخارج ، حيث أدت يقظة العمال الروس الى ازدهار واسع في الادب الاشتراكي الديمقراطي ، بالانشقاق في ربيع عام ١٩٠٠ (أي قبل ظهور « الاسكرا » التي ظهر العدد الاول منها في آخر عام ١٩٠٠)

إن تاريخ الصحافة الحزبية في عشرين عاماً (١٨٩٤ - ١٩١٤) هو تاريخ اتجاهين في الماركسية الروسية وفي الاشتراكية الديمقراطية الروسية (والأصح في عموم روسيا) . وعلينا كي نفهم تاريخ الصحافة الحزبية في روسيا ، لا أن نعرف فقط (كما لا يكفينا أن نعرف) أسماء الصحف التي لم تعد تعني شيئاً للقارىء المعاصر ، والتي لا تعمل إلا على بلبلة افكاره ، بل ان نعرف ، بالدرجة الأولى ، مضمون الأجنحة المتعددة في الاشتراكية الديمقراطية وطابعها وخطها الفكري .

كانت « رابوتشايا ميسل (١٨٩٧ - ١٩٠٠) و « رابوتشيي ديلو » (٢٤) (١٨٩٨ - ١٩٠١) الصحيفتين الرئيسيتين الناطقتين باسم « الاقتصاديين » . وكان على رأس « رابوتشيي ديلو » ب كريتشفسكي ، الذي انضم فيما بعد الى النقابيين ، والمنشفي البارز أ . مارتينوف وهو الآن تصفوي ، واكيموف وهو الآن « اشتراكي ديمقراطي مستقل » يوافق التصفويين في المسائل الجوهرية كلها .

وكان بليخانوف وجماعة « تحرير العمل » كلهم يناضلون وحدهم ضد « الاقتصاديين » في أول الأمر (مجلة « رابوتنيك »[٢٥] الخ) ثم انضمت اليهم « الاسكرا » (من ١٩٠٠ الى آب ١٩٠٣ ، أي حتى المؤتمر الثاني للحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي الروسي) . ففيم كانت ماهية « الاتجاه الاقتصادي »؟؟

كان « الاقتصاديون » يدافعون ، بالكلمات وحدها ، دفاعاً قوياً بنوع خاص عن الطابع الجماهيري للحركة العمالية ، وعن مبادرة العمال الذاتية ، ويلحون على اولوية التحريض « الاقتصادي » ، وعلى الاعتدال أو التدرج في الانتقال الى التحريض السياسي . وهي نفسها ، كما يرى القارىء ، الكلمات الاثيرة على نفوس التصفويين الذين يتغنون بها . وقد مارس « الاقتصاديون » بالفعل سياسة عمالية ليبرالية عبر عن ماهيتها بايجاز أحد قادة « الاقتصادية » آنذاك السيد س . ن . بروكوبوفتش بقوله : « النضال الاقتصادي للعمال ، والسياسي لليبراليين » . وفي الواقع كان الاقتصاديون ، وهم اكثر الناس كلاماً وصراخاً عن المبادرة العمالية وعن الحركة الجماهيرية ، يشكلون الجناح الانتهازي البرجوازي المثقف في الحركة العمالية .

لقد وقفت الاكثرية الساحقة من العمال الواعين ، ومنهم ٤٦ شخصاً من أصل ١٠٠ شخص قدموا للمحاكمة بتهم سياسية مقابل ٣٧ مثقفاً بين عامي ١٩٠١ - ١٩٠٣ ، الى جانب « الايسكرا » **القديمة** ضد الانتهازية . وكان لنشاط جماعة « الايسكرا » الذي امتد ثلاث سنوات (١٩٠١ - ١٩٠٣) الفضل في وضع برنامج الحزب الاشتراكي الديمقراطي واسس تكتيكه وصيغ الجمع بين نضال العمال الاقتصادي والسياسي على اساس ماركسية متماسكة . وقد نمت الصحافة العمالية من حول « الاسكرا » وتحت قيادتها الفكرية نمواً عظيماً في سنوات ما قبل الثورة ، وكان عدد البيانات غير المراقبة ، والمطابع الممنوعة ، عظيما جداً . كما أن عددها ازداد بسرعة في كافة أرجاء روسيا .

وادى انتصار « الاسكرا » الكامل على « الاقتصادية » ، والتكتيك البروليتاري المتماسك على تكتيك المثقفين الانتهازي في عام ١٩٠٣ ، الى تدفق « الرفاق » من جديد وبقوة على صفوف الاشتراكية الديمقراطية ، فبعثت الانتهازية من جديد فوق ارضية الايسكرا ، بوصفها جزءاً منها ، وبمظهر جديد هو « المنشفية »

لقد تشكلت المنشفية في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي (في آب عام ١٩٠٣) من **أقلية** جماعة « الايسكرا » (ومن هنا تسمية المنشفية التي تعني في اللغة الروسية الأقلية – المترجم) **ومن كافة اعداء « الاسكرا » الانتهازيين**. وعاد « المناشفة » إلى الوراء ، إلى « الاقتصادية » ، بشكل متجدد نوعاً ما ، بالطبع . وامتلأت صفوف « المناشفة » بكافة « الاقتصاديين » الذين بقوا في الحركة وعلى رأسهم أ . مارتينوف .

وأصبحت « الاسكرا » **الجديدة** التي أخذت تصدر منذ تشرين الثاني عام ١٩٠٣ برئاسة تحرير جديدة، لسان حال « المنشفية » الرئيسي . « إن هوة سحيقة تفصل بين « الاسكرا » القديمة و « الاسكرا » الجديدة - هذا ما صرح به المنشفيكي المندفع آنذاك تروتسكي بكل صراحة . وكانت « فبريود »[٢٦] والبروليتاري (١٩٠٥) صحيفتي « البلاشفة » الرئيسيتين اللتين دافعتا عن تكتيك الماركسية المتماسكة الأمين « للاسكرا » القديمة .

كانت اعوام الثورة من ١٩٠٥ حتى ١٩٠٧ اختباراً للاتجاهين الرئيسين ، المنشفي والبولشفي، في الاشتراكية الديمقراطية والصحافة العمالية ، من وجهة نظر الارتباط الفعلي بالجماهير والتعبير عن تكتيك جماهير البروليتاريا . ولم يكن للصحافة الاشتراكية الديمقراطية العلنية أن تبرز مباشرة في خريف عام ١٩٠٥ ، لو لم يهيىء نشاط العمال التقدميين المرتبط بالجماهير التربة لمثل هذه الصحافة . وإذا

كانت الصحافة الاشتراكية الديمقراطية العلنية في اعوام ١٩٠٥ و١٩٠٦ و١٩٠٧ صحافة اتجاهين وجماعتين ، فأمر لا يمكن تفسيره إلا بكونها المعبر عن الفرق بين الخطين ، البرجوازي الصغير والبروليتاري ، في الحركة العمالية آنذاك .

لقد ظهرت الصحافة العمالية العلنية في فترات النهوض والحرية « النسبية » الثلاث كلها : ففي خريف ١٩٠٥ (« نوفاياجيزن » عند البلاشفة ، و« ناتشالو [٢٧] » عند المناشفة . ونحن لا نذكر إلا الصحف الرئيسية ضاربين صفحاً عن بقية الجرائد والمجلات الأخرى العديدة) ، وفي ربيع ١٩٠٦ « فولنا [٢٨] » و « ايخو [٢٩] » عند البلاشفة ، وفي ربيع ١٩٠٧ « النارودنايادوفا [٣٠] » وغيرها عند المناشفة .

لقد عبر ل . مارتينوف نفسه منذ أمد قصير عن ماهية تكتيك المناشفة في تلك الفترة بهذه الكلمات : « لم تر المنشفية من امكانية لمشاركة البروليتاريا مشاركة مثمرة في تلك الأزمة ، إلا بمساندة الديمقراطية البرجوازية الليبرالية في محاولاتها ابعاد الفئة الرجعية من الطبقات الغنية عن السلطة ، وهي مساندة يجب على البروليتاريا أن تحققها مع احتفاظها باستقلالها السياسي التام » . (« بين الكتب » لروباكين . جزء ٢ ص ٧٧٢) . هذا التكتيك القائم على مساندة الليبراليين يعني ، في الواقع ، تبعية العمال لليبراليين ، وهو ، فعلاً ، سياسة عمالية ليبرالية . وكان تكتيك البلاشفة يقوم ، بالعكس ، على توفير الاستقلال الذاتي للبروليتاريا في الأزمة البرجوازية بالنضال من أجل تصعيد الأزمة حتى الذروة ، وبفضح خيانات الليبرالية وتنوير البرجوازية الصغيرة (والريفية منها خصوصاً) ورص صفوفها رداً على هذه الخيانات .

من المعروف (وقد اعترف بهذا المناشفة أنفسهم ، وحتى التصفويون الحاليون من امثال كولتسوف وليفتسكي اكثر من مرة) أن الجماهير العمالية كانت تسير وراء البلاشفة في تلك الاعوام (١٩٠٥ - ١٩٠٧) . كانت البلشفية

تعبر عن الماهية البروليتارية للحركة ، أما المنشفية فكانت تعبر عن الجناح الانتهازي ، جناح المثقفين من البرجوازيين الصغار .

ولا نستطيع أن نصف هنا وصفاً اكثر تفصيلاً مضمون تكتيك هذين الاتجاهين في الصحافة العمالية وأهميته ، بل نكتفي بتحديد الوقائع الأساسية وخطوط التطور التاريخي الرئيسية .

إن للصحافة العمالية في روسيا تاريخاً يناهز نصف قرن – تاريخاً كان في البدء تمهيدياً بمعنى أنه لم يكن تاريخ الحركة العمالية ، البروليتارية ، بل تاريخ حركة التحرر « الديمقراطية العامة » ، أي البرجوازية الديمقراطية . ثم أصبح لهذه الصحافة تاريخها الخاص الذي يمتد عشرين عاماً ، هو تاريخ الحركة البروليتارية ، حركة الديمقراطية البروليتارية أو الاشتراكية الديمقراطية .

لم تولد الحركة البروليتارية في أي مكان من العالم ولم يكن في مقدورها أن تولد ، وقد اتخذت مباشرة شكلاً طبقياً خالصاً ، أو أن تظهر إلى الوجود كاملة ، كما ظهرت منيرفا من رأس جوبيتير . فالحركة البروليتارية الطبقية لم يتيسر لها أن تتميز وتتخلص من كافة أنواع شوائب البرجوازية الصغيرة وقيودها وضيق أفقها وتحريفاتها ، إلا بعد نضال طويل وعمل شاق قام بهما العمال التقدميون أنفسهم والعمال الواعون كافة . إن الطبقة العاملة تعيش جنباً الى جنب مع البرجوازية الصغيرة ، التي تدفع ، مع ازدياد فقرها بصورة مستمرة ، بدخلاء جدد إلى صفوف البروليتاريا . والبرجوازية الصغيرة اكثر انتشاراً في روسيا منها في البلدان الرأسمالية الأخرى ؛ فهي تعيش الآن فترة الثورات البرجوازية ، التي ميزت انكلترا في القرن السابع عشر ، مثلاً ، وفرنسا في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولن ينسى العامل الواعي الذي بدأ عملاً حيوياً له وعزيزاً عليه ، ألا وهو

إنشاء صحافة عمالية وتوطيدها وتطويرها ، لن ينسى هذا العامل تاريخ الماركسية والصحافة الاشتراكية الديمقراطية الذي يمتد عشرين عاماً .

إن أصدقاء الحركة العمالية من المثقفين الضعيفي الأعصاب ، الذين يأنفون من الصراع الداخلي في الاشتراكية الديمقراطية ويملأون الجو صراخاً ودعوات بالابتعاد عن هـذا الصراع ، يؤدون لها خدمة سيئة . انهم أناس طيبون ، لكنهم فارغون ، وفارغة هي دعواتهم .

ولن يرسخ العمال التقدميون وعيهم وصحافتهم العمالية بصورة نهائية ، الا إذا درسوا تاريخ صراع الماركسية ضد الانتهازية ، وإلا إذا تعرفوا ، بشكل مبدئي ومفصل ، على عملية استقلال الديمقراطية البروليتارية عن البرجوازية الصغيرة.

طبع في ٢٢ نيسان ١٩١٤

ج ٢٥ ص ٩٣ – ١٠١

★ ★ ★

من كتاب

« افلاس الأممية الثانيـــة »

لا يشك ماركسي في أن الثورة غير ممكنة بدون وضع ثوري . على أن الوضع الثوري لا يفضي دائماً الى الثورة . فما هي ، بصورة عامة ، سمات الوضع الثوري؟قد لا نكون مخطئين إذا ما أشرنا الى السمات الرئيسية الثلاثالتاليةوهي:

١) عجز الطبقات المسيطرة عن الاحتفاظ بسيطرتها بالشكل السابق ؛ إن أي أزمة « في الفئات العليا » ، أي أزمة في سياسة الطبقة المسيطرة ، تنشىء تصدعاً يتفجر منه استياء الطبقات المظلومة وعدم رضاها . ولا يكفي لحدوث الثورة عادة أن « لا ترضى الفئات الدنيا » ، بل يجب أيضاً « أن لا تستطيع الفئات العليا » أن تعيش على المنوال السابق نفسه .

٢) تفاقم فقر الطبقات المظلومة ومصائبها تفاقماً غير عادي .

٣) ارتفاع كبير في فعالية الجماهير بحكم الأسباب الآنفة الذكر ، هذه الجماهير التي كانت تنهب وقت « السلم » بكل هدوء ، والتي يجذبها الوضع العام للأزمة ، كما تجذبها « الفئات العليا نفسها » الى العمل التاريخي الذاتي المستقل .

ان الثورة غير ممكنة ، بشكل عام ، بدون هذه التغيرات الموضوعية الخارجة عن إرادة بعض الفئات أو الأحزاب ، وحتى عن ارادة بعض الطبقات . وتسمى مجموعة هذه التغيرات الموضوعية بالوضع الثوري .

كان مثل هذا الوضع في روسيا عام ١٩٠٥ ، وفي كافة فترات الثورات

في الغرب . لكنه كان أيضاً في العقد السابع من القرن الماضي في المانيـا ، وفي أعوام ١٨٥٩ – ١٨٦١ – و ١٨٧٦ – ١٨٨٠ في روسيا ، مـع أنه لم تحدث ثورات في مثل هذه الحالات . لماذا ؟؟. لأن الثورة لا تنشأ من أي وضع ثوري ، بل ، على وجه الحصر ، من ذلك الوضع الثوري الذي يحدث فيــه ، اضافة الى التغيرات الموضوعية الآنفة الذكر ، تغير ذاتي ، هو ، على الضبط ، قدرة **الطبقة** الثورية على القيام بأعمال ثورية جماعية قوية ، بحيث تستطيع أن تحطم (أو تحطم جزئياً) الحكومة القديمة التي لن «تسقط» تلقائياً أبداً ، وحتى في أوقات الأزمات ما لم « تـُزَحْ » عنوة .

كتب ما بين النصف الاول من أيار والنصف
الاول من حزيران عام ١٩١٥
ج ٢٦ ص ٢١٨ – ٢١٩

من كتاب

« مرض « اليسارية » الطفولي في الشيوعية »

... لئن استطاعت البلشفية أن توجد في سنوات ١٩١٧ – ١٩٢٠ ، وأن تحقق ، بنجاح وفي ظروف شاقة لا مثيل لها ، مركزية صارمة للغاية وانضباطاً حديدياً ، فذلك يعود الى مجموعة من الخصائص التاريخية في روسيا لا غير .

فمن جهة ، ظهرت البلشفية في عام ١٩٠٣ على أرسخ قاعدة من نظرية الماركسية . ولم تثبت صحة هذه النظرية الثورية ، وهذه النظرية وحدها ، تجربة القرن التاسع عشر العالمية فقط ، بل تجربة ضلالات الفكر الثوري في روسيا وتذبذباته وأخطائه وخيبات أمله أيضاً . ففي غضون نصف قرن تقريباً ، أي منذ حوالي العقد الخامس حتى العاشر من القرن الماضي ، كان الفكر التقدمي يبحث بظمأ ، وهو يعاني من اضطهاد قيصرية همجية رجعية لا مثيل لها ، عن نظرية ثورية صحيحة ، متتبعاً بدأب ومثابرة مدهشين « أحدث » ما تصل اليه أوروبا وأميركا في هذا المضمار . والحق أن روسيا قد عاشت نصف قرن من آلام وتضحيات لا مثيل لها ، ومن بطولة ثورية ليس لها نظير ، وحماسة لا يمكن تصورها ، وتفانٍ في البحث والتعلم والتجربة العملية ، وخيبة أمل ومراجعة لتجارب اوروبا ومقارنتها ، حتى حصلت على الماركسية بوصفها النظرية الثورية الصحيحة الوحيدة . كانت روسيا الثورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بسبب الهجرة التي كانت

تفرضها القيصرية ، أغنى بروابطها الأممية ، وأوسع اطلاعاً على صيغ الحركة الثورية ونظرياتها العالمية من أي بلد آخر .

ومن جهة أخرى ، أمضت البلشفية ، التي نشأت على هذه القاعدة النظرية الصلبة ، خمسة عشر عاماً (١٩٠٣ - ١٩١٧) من تاريخ عملي لا يضارعه في غنى تجربته أي تاريخ آخر في العالم . إذ لم يشهد أي بلد خلال هذه الحقبة ذاتها ، ولو بصورة تقريبية ، مثل هذه الأعمال الكثيرة ، ونعني بها الخبرة الثورية والسرعة والتنوّع في تعاقب مختلف أشكال الحركة ، من شرعية وغير شرعية ، هادئة وعاصفة ، سرية وعلنية ، حركة بشكل حلقات أو حركة جماهيرية ، برلمانية وإرهابية . ولم يتوفر في أي بلد ، وفي مثل هذه الحقبة القصيرة من الزمن ، مثل هذا الغنى في صيغ وفروق وطرق نضال تقوم به طبقات المجتمع الحديث كلها ، نضال كان ، بحكم تأخر البلد ووطأة ظلم القيصرية ، ينضج بسرعة خاصة ،ويتمثل بلهفة ونجاح ما يلائمه من «أحدث» أنواع التجربة السياسية الاميركية والأوروبية.

كتب في نيسان - أيار ١٩٢٠

ج ٤١ ص ٧ - ٨

في الشعبيّين والدّيمقراطيّين الثوريّين

من مقال

(المحتوى الاقتصادي للشعبية
ونقده في كتاب السيد ستروفي)

« انعكاس الماركسية في الكتابات البرجوازية »

... يعاني المنتج الصغير كثيراً من الأنظمة المعاصرة ، لكنه يقف بعيداً عن التناقضات المباشرة الظاهرة بجلاء ويخافها ، ويعلل النفس بأحلام رجعية ساذجة كقوله : « إن على الدولة أن تأخذ بوجهة النظر الأخلاقية » ، أي ، على وجه الضبط ، بوجهة النظر الأخلاقية الأثيرة جداً على قلب المنتج الصغير .

كلا ، لستم على حق . إن على الدولة ، التي تتوجهون اليها ، الدولة المعاصرة ، الحالية ، أن تأخذ بوجهة النظر الأخلاقية الأثيرة على قلب البرجوازية العليا — أقول عليها ، لأن هذا هو توزع القوى الاجتماعية بين الطبقات القائمة في المجتمع .

إنكم مستاؤون . وستبدأون بالصراخ قائلين إن الماركسي ، باعترافه بهذا « الوجوب » ، بهذه الضرورة ، يدافع عن البرجوازية .

ليس هذا صحيحاً . إنكم تشعرون أن الواقع ضدكم فتلجأون الى الشعوذة وتعزون الرغبة في الدفاع عن البرجوازيين الى مَنْ يدحض أحلامكم الضيقة في اختيار الطريق بدون البرجوازية استناداً الى واقع سيطرة البرجوازية ، تعزونها الى من يدحض جدوى إجراءاتكم الصغيرة التافهة ضد البرجوازية استناداً الى

جذورها العميقة في بنية المجتمع الاقتصادية ، والى صراع الطبقات الاقتصادي القائم في أساس « المجتمع » و « الدولة » ، الى من يطالب إيديولوجي الطبقة الكادحة بالانفصال التام عن هذه العناصر وخدمة من « ابتعد عن حياة » المجتمع البرجوازي فقط .

« نحن لا نعتقد ، بالطبع ، ان تأثير الأدب عديم القدرة تماماً . ولكن عليه (الأدب) : ١ ـ أن يفهم رسالته فهماً أفضل ، وأن لا يكتفي فقط بتربية الكولاكية (هكذا !!!) ، بل ان يوقظ الرأي العام ايضاً » .

إليكم البرجوازي الصغير بصورته النقية ! إذا كان الأدب يربي الكولاكية ، فلأنه يفهم رسالته فهماً سيئاً . ويستغرب هؤلاء الأسياد عندما يقال لهم : انهم سذج ورومنطيقيون .

كلا ايها السيد الشعبي المحترم ، الأمر على عكس ذلك : « فالكولاكية » (*) هي التي تربي الأدب ، تمنحه افكارها (عن العقل ، والطاقة ، وروح المبادرة ، والخطوات الطبيعية للحضارة الوطنية) وتضع بين يديه الوسائل الى ذلك .

ان لجوءكم الى الأدب يدعو الى السخرية ، كما لو ان احدهم اقترب من جيشين متحاربين يقفان وجهاً لوجه وتقدم من ملحق فيلد مارشال احد الجيشين العدوين بطلب متواضع « الرجاء ان تتصرفوا تصرفاً اكثر وداً ! » ، انه الشيء نفسه .

... عندما يصف الشعبي الوقائع ، يضطر هو نفسه دائماً لأن يعترف بأن الواقع هو واقع رأس المال ، وأن تطورنا الفعلي تطور رأسمالي ، وأن القوة في أيدي البرجوازية . وهذا ما اعترف به ، مثلاً ، مؤلف المقال الذي نعلق عليه

(*) انها كلمة ضيقة الى حد كبير. كان من الواجب ان نقول بشكل أدق وأكثر تحديداً البرجوازية .

مقرراً أن الثقافة التي نشأت عندنا « ثقـافة برجوازية » ، وأن البرجوازية هي التي تسوق الشعب الى العمل ، وأن المجتمع البرجوازي مشغول ببطنه وقيلولته فقط، وأن « البرجوازية » أوجدت علماً برجوازياً ، وأخلاقيـة برجوازية ، وسفسطات برجوازية في السياسة ، وأدباً برجوازياً .

كتب في أواخر عام ١٨٩٤ وأوائل عام ١٨٩٥

جزء ١ ص ٤٠٤ – ٤٠٥ ، ٤٠٧

★ ★ ★

من مقال

« أي تراث نرفض ؟ »

- ١ -

واحد من ممثلي « التراث »

... ولنستخلص النتائج . يمكننا أن ندعو سكالدين[٣١] . من حيث طابع أفكاره ، برجوازياً متنوّراً . فأفكاره تذكرنا الى حد كبير جداً بآراء اقتصاديي القرن الثامن عشر (معكوسة بالطبع من خلال الظروف الروسية) . كما انه يعبّر بوضوح كاف عن الطابع « التنويري » العام لتراث الستينات[٣٢]. فسكالدين، كالمتنورين الأوروبيين الغربيين، وغالبية ممثلي الستينات ، ملتهب عداء عنيفاً للقنانة ولكل ما خلفته في المجال الاقتصادي والاجتماعي والحقوقي . هذه هي السمة الأولى ، المميزة « للمنوّر » . والسمة الثانية التي تشمل المنورين الروس كلهم هي الدفاع الحار عن التعليم والإدارة الذاتية والحرية وأنماط الحياة الأوروبية أو « أوْرَبة » روسيا أوْربة كاملة . والسمة الثالثة هي دفاعه عن مصالح الجماهير الشعبية ، وبشكل رئيسي الفلاحين (الذين لم يتحرروا تماماً أو الذين كانوا في طريقهم الى التحرر في عهد المنوّرين) ، وإيمانه المخلص بأن الغاء القنانة ومخلفاتها سيجلب الرخاء العام ، ورغبته المخلصة في المساعدة على ذلك . هذه السمات الثلاث هي جوهر ما يسمى « تراث الستينات » . ومن المهم التأكيد على أنه **لا يوجد شيء من الشعبية في هذا التراث** . وفي روسيا عدد غير قليل من الكتاب تنطبق

عليهم ، من حيث نظرتهم الى الأمور ، هـذه السمات وإن لم يربطهم في أي وقت شيء مشترك بالشعبية . وبوجود السمات المشار اليهـا سـابقاً في نظرة الـكاتب الى العالم ، اعترف به دائماً « محافظاً على تقاليد الستينات » بغض النظر تماماً عن موقفه من الشعبية . ولن يفكر أحد ، بالطبع ، أن يقول إن السيد م. ستاسوليفتش ، الذي احتفل بيوبيله منذ أمد قريب ، « تخلى عن التراث » على اساس أنه كان مناهضاً للشعبية أو أنه وقف موقف اللامبالاة من المسائل التي طرحتها . وقد أخذنا من سكالدين (*) مثالاً لأنه كان في وقت واحد ممثلاً «للتراث» **لا يرقى اليه الشك**، وعدواً مطلقاً للمؤسسات القديمة التي دافعت عنها الشعبية .

قلنا سابقاً إن سكالدين برجوازي . وقد أوردنا بما فيه الكفاية براهين على ذلك . ولكن علينا أن نلاحظ أن هذه الكلمة كثيراً ما تُفهم عندنا فهماً ضيقاً، غير تاريخي وخاطئاً الى حد كبير ، إذ يربط بهـا **(دون تمييز للفترات التاريخية)** الدفاع الأناني عن مصالح الأقلية . علينا ألا ننسى انه في الفترة ، التي كتب فيهـا منوّرو القرن الثامن عشر (الذين يعترف بهم الرأي العـام قادةً للبرجوازية) وكتب فيها منورونا ، أي من الاربعينات حتى الستينات، كانت المسائل الاجتماعية

(*) قد يعترض بعضهم قائلاً إن سكالدين، بعدائه للمشاعة وبنغمته ، لم يكن نموذجياً بالنسبة للستينات . لكن القضية هنا ليست في المشاعة وحدها ، بل في مجمل الآراء المشتركة بين المنورين التي يشاطرهم إياها سكالدين . ومن حيث نغمته فهي في الواقع غـير نموذجية لطريقة تفكيره المادىء واعتداله وتطوريته ... وليس عبثاً أن انغلز دعا سكالدين محافظاً معتدلاً . إلا انه من غير الملائم ان نأخذ مثلاً آخر للتراث يكون ذا نغمـة نموذجية . أولاً ، هذا غير ملائم لأسباب مختلفة ؛ وثانياً ، لأن هذا قد يولد سوء تفـاهم عند المقارنة بالشعبية المعاصرة . ومن حيث الطابع الاساسي لمهمتنا فإن النغمة (بعكس ما يقوله المثل الدارج) لا تصنع موسيقى . ونغمة سكالدين غير النموذجية تبرز موسيقاه ،أي مضمون نظراته ، بشكل أكثر حدة . وهذا ما يهمنا هنا . إننا ننوي المقارنة بين ممثـلي التراث وشعبيينا المعاصرين من حيث مضمون أفكارهم (وليس بنغمة الكتاب) .

كلها تقتصر على النضال ضد نظام القنانة وآثاره . كانت العلائق الاجتماعية الاقتصادية وتناقضاتها آنذاك في حالة جنينية . ولهذا لم تظهر في ايديولوجيي البرجوازية آنذاك أي أنانية خاصة ؛ بل ، على العكس ، كانوا ، في الغرب وفي روسيا ، يؤمنون بالرخاء العام مخلصين تماماً ، ومخلصين يتمنونه . ولم يروا ، وهم مخلصون ايضاً (لم يستطيعوا أن يروا الى حد ما) ، التناقضات في النظام الذي نشأ من الاقطاعية . وليس عبثاً أن سكالدين يستشهد في كتابه بآدم سميث . لقد رأينا أن آراء سكالدين وطابع حججه هما ، الى حد كبير ، ترداد لموضوعات هذا الايديولوجي العظيم للبرجوازية التقدمية .

وإذا قارنا أمنيات سكالدين العملية بآراء الشعبيين المعاصرين من جهة ، وبموقف « التلاميذ الروس » منهم من جهة أخرى ، سنرى أن « التلاميذ » سيؤيدون أمنيات سكالدين، لأن هذه الأمنيات تعبر عن مصالح الطبقات الاجتماعية التقدمية ، عن المصالح الحيوية للتطور الاجتماعي كله في الطريق الحالية ، أي الطريق الرأسمالية . وما بدّله الشعبيون من أماني سكالدين العملية أو من طرحه للمسائل هو « حد أدنى » يرفضه « التلميذ » . إن التلاميذ « ينقضون » لا على « التراث » (فهذا اختلاق فارغ) ، بل على إضافات الشعبيين الرومنطيقية والبرجوازية الصغيرة إلى التراث .

وسننتقل الآن إلى هذه الاضافات .

- ٢ -

اضافة الشعبية الى « التراث »

ولننتقل من سكالدين الى انغليغارت . إن رسائله « من القرية » تحقيقات اجتماعية عن حياة القرية . فكتابه يشبه شبهاً كبيراً في محتواه وشكله كتاب

سكالدين ، الا ان انغليغارت أعظم موهبة من سكالدين ، ورسائله من القرية كتبت بحيوية وجمال أكبر ، فليس عنده محاكمات مطولة كما عند صاحب « في الريف وفي المدينة » الوقور ، بل عنده ، بالمقابل ، من الصور والأوصاف الدقيقة أكثر مما عند سكالدين . فليس من الغريب أن يحظى كتاب انغليغارت بمثل هذا العطف القوي من القراء . لقد أعيد طبع كتابه ، في حين أن كتاب سكالدين يكاد يكون منسياً على الرغم من أن رسائل الأول بدأت تظهر في « الأوتيتشسفيني زابيسكي »[٣٣] بعد عامين من نشر كتاب سكالدين . لسنا بحاجة ، إذاً ، لاطلاع القارىء على محتوى كتاب انغليغارت ، بل سنكتفي بوصف موجز لجانبين من آرائه : أولاً ، الآراء الخاصة « بالتراث » بوجه عام ، والآراء المشتركة بين انغليغارت وسكالدين بنوع خاص ؛ ثانياً الآراء الشعبية البحتة . انغليغارت شعبي ، لكن لا يزال في نظراته كثير من السمات المشتركة مع نظرات المنورين كلهم ، وكثير مما رفضه ، أو عدّله ، الشعبيون المعاصرون ، حتى ليتعذر عليك تصنيفه : أهو في قائمة ممثلي « التراث » عامة دون أي صبغة شعبية ، أم في قائمة الشعبيين .

إن ما يقرّب انغليغارت من الأولين هو ، في المقام الأول ، بصيرته النافذة ووصفه البسيط والمباشر للواقع وكشفه الذي لا يرحم عن السلبيات و « المبادىء كلها » بعامة ، ومبادىء « الفلاحين » بخاصة ، هذه « المبادىء » التي يعتبر تجميلها وصبغها وتمجيدها المزيف ركناً أساسياً وضرورياً من أركان الشعبية . ولهذا فان شعبية انغليغارت ، التي عبّر عنها تعبيراً ضعيفاً جداً ووجلاً ، تتناقض تناقضاً مباشراً وفاضحاً مع واقع القرية الذي رسمه بمثل هذه الموهبة . وإذا ما

أخذ اقتصـــادي ما ، أو كاتب اجتماعي ما (*) ، **المعطيات والملاحظات** ، التي أوردها انغليغارت، أساساً لحكمه على القرية ،سيكون من غير الممكن استخلاص أي استنتاجات شعبية . إن تمجيد الفلاح ومشاعته أحد الاركان الضرورية في الشعبية . وقد فقد الشعبيون من مختلف الألوان ابتداء من السيد ف . ف وانتهاء بالسيد ميخايلوفسكي الشيء الكثير بسبب ميلهم الى تأليه المشاعة وتزويقها ولكننا لا نجد أثراً لهذا التزويق عند انغليغارت .

إنه يكشف بقسوة تامة فردية المزارع الصغير المدهشة ، بعكس ما تدعيه الاقوال الفارغة الشائعة عن الروح المشاعية في فلاحنا ، وما تدعيه المقارنات الشائعة بين « هـــذه الروح المشاعية » وبين فردية المدن والتنافس في الاقتصاد الرأسمالي الخ ... ويظهر بإسهاب ان « فلاحينا اكثر الملاكين تطرفاً في مسائل الملكية الخاصة » (ص ٦٢ من طبعة عام ١٨٨٥) ، وانهم لا يستطيعون ان يتحملوا « العمل المشترك ، العمل بالجملة » ، ويبغضونه لاسباب شخصية وانانية ضيقة ، إذ يخاف أي واحد منهم ان يعمل اكثر من الآخرين » (ص ٢٠٦) . ويبلغ هذا الخوف من ان يعمـــل الواحد منهم اكثر من الآخرين اعلى درجات المهزلة (او بالاحرى اعلى درجات التراجيكوميديا) ، عندما يحدثنا الكاتب كيف ان نساء يسكنّ بيتاً واحداً ويرتبطن بعمل واحد وبصلات قربى تنظف كل منهن وبمفردها حصتها من طاولة الطعـــام ، او يحلبن البقرات ، كل منهن

(*) ونقول بالمناسبة ان هذا لن يكون أمراً شيقاً جداً وذا دلالة وحسب ، بل وسيلة مشروعة تماماً من أساليب الباحث الاقتصادي. واذا كان العلماء يثقون بمعطيات الاستمارات التي هي عبارة عن أجوبة وآراء كثير من الملاكين المتحيزين ، القليلي العلم ، الذين لا رأي متكامل لهم ، والذين لم يفكروا فيما يؤمنون به ، فلماذا لا نثق بملاحظات جمعها خلال أحد عشر عاماً انسان ذو قوة ملاحظة رائعة وذو اخلاص مطلق ، انسان درس ما يتحدث عنه دراسة ممتازة ؟ .

بدورها ، وتجمع كل منهن الحليب لابنها (خوفاً من اخفاء الحليب) ، وتحضر كل منهن بمفردها السميد لابنها (ص٣٢٣). ويسهب انغليغارت في اظهار هذه السمات ويؤكدها بعدد كبير من الامثلة حتى يستحيل معها القول إنها وقائع عارضة . فواحد من اثنين : إما ان يكون انغليغارت ملاحظاً غير صالح بالمرة وغير اهل للثقة ، وإما ان تكون هذه الاقاويل عن روح فلاحنا المشاعية وصفاته المشاعية وهماً فارغاً يخلع على **الاقتصاد الزراعي** سمات مجردة مأخوذة من شكل **ملكية الأرض** (ومن شكل ملكية الارض هذا اخذت كافة جوانبها المالية والادارية).

ويبين انغليغارت ان الفلاح ينزع في نشاطه الاقتصادي الى الكولاكية : « إن نسبة ما من الروح الكولاكية تستحوذ على كل فلاح » (ص ٤٩١) ، « المثل الكولاكية تسيطر في الوسط الفلاحي » . . . « اشرت اكثر من مرة الى ان الفردية والانانيـــة ونزعة الاستغلال متطورة الى حد كبير في الفلاحين » . . . « يفخر الواحد منهم انه كراكي ويسعى الى التهام الشبوط » . إن اتجاه الفلاحين لا ينحو ابداً الى النظام « المشاعي » ولا الى « الانتاج الشعبي » ، بل الى نظام بسيط جداً يرافق المجتمعات الراسمالية كلهـــا ، هو النظام البرجوازي الصغير . وانغليغارت يظهر هذا كله بشكل رائع . وما وصفه انغليغارت وبرهن عليه بشكل لا يدحض هو محاولات الفلاح الغني الدخول في عمليات تجارية (٣٦٣) ، وتوزيع القمح لقاء عمل ما وشراء عمل الفلاح الفقير (ص ٤٥٧ ، ٤٩٢ وغيرهما) ، اي تحويل الفلاحين الملاك الى برجوازية ريفية إذا ما تكلمنا بلغة الاقتصاد ، ويقول انغليغارت : إذا لم ينتقل الفلاحون الى الزراعة التعاونية وظل يعمل كلٌ منهم في ملكه الخاص سيوجد بين هؤلاء الفلاحين المزارعين ، مستقبلاً ، اجراء ومحرومون من الارض على الرغم من توفر الاراضي . وسأقول اكثر من ذلك : إني اعتقد ان الفرق بين ما يملكه الفلاحون سيكون أكبر مما هو عليه الآن . وعلى الرغم من الملكية المشاعية للأرض ، سيكون الى جانب « الاغنياء » كثير من الأجراء الذين فقدوا

الأرض فعـلاً . ماذا ينفعني أو ينفع اولادي إذا كان لي الحق في الارض ، وأنا لا أملك لا رأس المال ولا الادوات اللازمة لفلاحة الارض ؟ هذا يشبه تماماً أن تعطي الأعمى ارضاً وتقول له : « كُلْها ! » (ص ٣٧٠) إن فكرة « الزراعة الجماعية » تنتصب هنا وحيدة تدعو الى سخرية حزينة ، وتبدو أمنية طيبة بريئة ، لكنها أمنية لا تنبع من المعطيات المتعلقة بالفلاحين ، لا بل ان هـذه المعطيات تدحضها وتنفيها .

والسمة الاخرى التي تقرب انغليغارت من ممثلي التراث الذين لايصطبغون بأي صبغة شـعبية ، هي ايمانه بان فقر الفلاحين الرئيسي والجذري يكمن في مخلفات القنانة والتنظيمات الخاصة بها . أزيلوا هـذه المخلفات وهذا التنظيم يستقم الأمر . ان موقف انغيلغارت ، السلبي دون ريب ، من التنظيم وسخريته المرّة من كافة محاولات اسعاد الفلاح عن طريق التنظيم الفوقي يتعارضان تعارضاً حاداً جداً وآمال الشعبية المتعلقة « بعقل الطبقات الحاكمة وضميرها ومعرفتها ووطنيتها (الكلمات للسيد يوجاكوف في « روسكويي بوغاتستفا — العـدد ١٢ ، ١٨٩٦ ص ١٠٦) ، والتخطيط الشعبي الفارغ « لتنظيم الانتاج » — . ولنذكر كيف يتهجم انغيلغارت بتهكم لاذع على القانون الذي يمنع بيـع الفودكا في المطاحن ، هذا القانون الذي يبغي « خير » الفلاح ، ولنذكر بأي سـخط يتحدث عن قرار بعض الزيمستفات الصادر عام ١٨٨٠ والقاضي بمنع زرع الشعير قبل الخامس عشـر من آب ، عن هذا التدخل الفظّ من علماء « المكاتب » في عمل ملايين الملاك الزراعيين الذي استوجبه خير الفلاح هذه المرة ايضاً (٤٢٤) . وبعد ان يشير انغليغارت الى امثال هذه القواعد والاوامر كعدم التدخين في غابات الصنوبر والشوح وعدم صيد الكراكي في الربيـع وقطع اشجار البتولا في « ايار » وتهديم الاعشاش الخ.. يلاحظ متهكماً : « ... إن الاهتمام بالفلاح كان ولا زال السبب في اسى المثقفين.

من يعيش لنفسه ؟ إننا جميعاً نعيش في سبيل الفلاح ! . . . الفلاح غبي لا يعرف كيف ينظم أموره بنفسه . وإن لم يهتم به أحد سيحرق الغابات كلها ، وسيقتل الطيور كلهـا ، وسيصطاد الأسماك كلها ، و سيفسد الأرض ، وسيهلك أخيراً » (٣٩٨) . قل لي ، أيها القارىء ، هل يستطيع هذا الكاتب أن يتعاطف حتى مع القوانين الحبيبة إلى قلوب الشعبيين والقائلة بعدم امكانية نزع ملكية الأرض ؟ وهل كان بمقدوره أن يقول شيئاً ، يشبه ما ذكره سابقاً أحد أعلام «روسكوبي بوغاتستفو » ؟ وهل كان بإمكانه أن يشاطر علماً آخر من أعـلام المجلة نفسها هو السيد كاريشيف (*) وجهة نظره ،هذا السيدالذي يعتب على« زيمستفا»[٣٤] المقاطعات (في التسعينات !) ، لأنها « لم تجد مكاناً » « للانفاق الجدي الواسع والمنتظم على تنظيم العمل الزراعي » ؟

ولنشر أيضاً الى سمة أخرى تقرّب انغليغارت من سكالدين ، وهي علاقته اللاواعية بكثير من الأمنيات والاجراءات البرجوازية المحضة . وليست القضية في أن انغليغارت حاول ان يزين البرجوازيين الصغار أو أن يختلق تحفظات (على طريقة السيد ف. ف) على استخدام هذا الوصف بالنسبة لهذا أو ذاك من أصحاب المشاريع . كلا ليست القضية هنا . ان انغليغارت ، وهو المالك العملي ، مولع ، بكل بساطة ، بكل أشكال التقدم والتحسين في الزراعة ، دون ان يلاحظ بتاتاً أن الشكل الاجتماعي لهذه التحسينات يقدم أفضل تكذيب لنظرياته ذاتها القائلة بعدم امكانية قيام الرأسمالية عندنا. ولنذكر على سبيل المثال كيف أولع انغليغارت بالنجاح الذي تم له بفضل نظام **الاجر على أساس القطعة** (دعك الكتان ، درس الحنطة) . وانغليغارت لا يشك حتى في أن استبدال الأجر بحسب الزمن بالأجر حسب القطعة واحد من اكثر أساليب الاقتصاد الرأسمالي المتطور انتشاراً .

(*) المجلة المذكورة عدد ٥ أيار ١٨٩٦ .

فهذا الاقتصاد يتوصل بهذه الطريقة إلى زيادة تكثيف العمل وزيادة معيار فضل القيمة. واليكم مثلاً آخر. يسخر انغليغارت من برنامج «زيمليديلتشسكايا غازيتا»[٣٥] القاضي « بالتوقف عن توزيع الأراضي ، وبتظيم استثمارات للعمال الزراعيين ، وإدخال الآلات والأدوات الحديثة المحسنة ، وتحسين أنواع المواشي ، ونظام دورة المزروعات ، وتحسين المروج والمراعي الخ ... » .

ويهتف انغليغارت : « هذا كله كلام غير محدد لا يعني شيئاً » . ومع هذا ، فقد حقق انغليغارت هذا البرنامج نفسه في ممارسته الزراعية العملية وأنجز هذا التقدم التقني فيه على أساس تنظيم الأجراء بالضبط . واليكم هذا المثال ايضاً . راينا كيف فضح انغليغارت بصدق وصراحة الميول الحقيقية للفلاح ، لكن هذا لم يمنعه من التأكيد « بأن ما نحتاجه ليس المصانع ولا المعامل ، بل معامل تقطير خمر ومعاصر زيت قروية صغيرة (التشديد لانغليغارت) الخ . . » (ص٣٣٦) اي « يجب » انتقال البرجوازية الريفية إلى الانتاج الزراعي التقني وهو انتقال كان دائماً وفي كل مكان واحداً من اهم دلائل الراسمالية الزراعية . وما له تأثيره هنا ان انغليغارت لم يكن منظرا بل مالكاً يمارس نشاطه . ان الامر يختلف حين يفكر المرء في إمكانية التقدم بدون الرأسمالية وحين يكون هو نفسه يعمل . لقد ترتب على انغليغارت ، وهو ينظم اعماله الزراعية تنظيماً عقلانياً ، ان يتوصل ، بحكم الظروف المحيطة به ، الى ذلك بأساليب رأسمالية بحتة ، وان يترك جانباً شكوكه كلها ، النظرية والمجردة ، بخصوص «الاجراء» . كان سكالدين يفكر ، نظرياً ، كمنشستيري نموذجي ، دون ان يلاحظ ابداً لا طابع تفكيره هذا ولا مطابقته لحاجات تطور روسيا الرأسمالي . اما انغليغارت فاضطر ، عملياً ، لأن يتصرف كمنشستيري نموذجي على الرغم من احتجاجه النظري على الرأسمالية ، وعلى الرغم من رغبته في الايمان بطرق خاصة بوطنه .

وقد كان هــذا الايمان موجوداً عند انغلغارت مما يضطرنا لان ندعوه شعبياً . فهو يرى بوضوح الاتجاه **الفعلي** لتطور روسيا الاقتصــادي لكنه **يغض الطرف** عن تناقضات هـذا التطور . ويجهد نفسه للبرهنة على عدم امكانية نشوء رأسمالية زراعيـــة في روسيا ، وللبرهنة على « عدم وجود ركيزة عندنا لذلك » (ص ٥٥٦) ، مع انه دحض هو نفسه باسهاب كبير التقولات عن ارتفاع قيمة اليد العاملة عندنا ، وأظهر هو نفسه الأجر الزهيد الذي يتقاضاه كلافه بيوتر الذي يعمل مع أسرته عنده والذي لا يبقى له ، بعد القيام بأود العائلة ، الا ستةروبلات في العام « لشراء الملح والزيت واللباس » (ص ١٠) . « ويُحْسَد (أي بيوتر) مع ذلك . فاذا رفضت أن أستخدمه عندي ، سيوجد في الحـــال خمسون من الراغبين في الحلول محله » (ص ١١) ويهتف انغليغارت ظافراً ، وهو يشير الى نجاح أعماله ومهارة العمال في استخدام المحراث : « ومن هم هؤلاء الحارثون ؟ إنهم الفـلاحون الروس الجهلة المهملون » (ص ٢٢٥) .

إلا ان انغليغارت ، وقد دحض بتجربته الخاصة في الزراعة وبتعريته لفردية الفلاح الأوهام حول « المشاعية » ، لم يكن « يؤمن » بامكانية انتقال الفـــلاحين الى الزراعة الجماعية وحسب ، بل أبدى « قناعته » بحدوث ذلك مستقبلاً وبأننا ، نحن معشر الروس ، سنقوم بهذا العمل العظيم وسندخل اساليب جديدة في ادارة اقتصادنا . « وفي هذا أصالة وجودنا المتميز واصالة اقتصادنا » (ص ٣٤٩) .

وهنا يتحول انغلغارت الواقعي إلى رومنطيقي يعوّض الغيـــاب الكامل « للأصالة » في اساليب اقتصاده وفي الأساليب التي لاحظها في اقتصاد الفـلاحين « بايمانه » « بالأصالة » العتيدة ! ولم يبق من هـذا الايمان حتى السمات الشعبية المتطرفة – التي نصادفها عنده متفرقة في الحقيقة – الا خطوة ، لم يبق الا خطوة حتى القومية الضيقة التي تقع على حدود « الشوفينية (« سنصدّع أوربا ، وفي أوربا

سيكون الفلاح الى جانبنا » (ص ٣٨٧) . هذا ما كان يبرهن عليه انغليغارت لأحد الاقطاعيين بمناسبة الحرب)، لم يبق الا خطوة حتى تمجيد الأجور ! أجل، انغليغارت نفسه الذي كرس كثيراً من الصفحات الرائعة في كتابه لوصف وضع الفلاحين المهين والذليل ، الفلاحين الذين يستدينون المال او القمح مقابل عملهم، ويجبرون في أسوأ ظروف الاستعباد على عمل يكاد يكون مجانياً، انغليغارت هذا وصل الى حد القول « سيكون أمراً حسناً لو أن الدكتور (الحديث يدور حول نفع الطبيب وضرورته للقرية . ف . إ .) زراعته هنا ، لاستطاع الفلاح أن يعمل ويدفع نفقه تطبيبه » (ص ٤١) . لا حاجة بنا هنا الى التعليق .

وبشكل عام ، إذا قارنا السمات الايجابية في نظرية انغليغارت (أي السمات المشتركة بينه وبين ممثلي « التراث » دون أي صبغة شعبية) بسماتها السلبية (أي الشعبية) ، علينا أن نقر أن السمات الأولى تتفوق قطعاً ، في حين تبدو السمات الأخرى وكأنها جانبية ، أو حاشية عرضية موحى بها من الخارج لا تنسجم مع اللهجة الرئيسية لكتابه « من القرية » .

— ٣ —

هل ربح « التراث » من ارتباطه بالشعبية ؟

قد يسأل القارىء : وماذا تعني بالشعبية . لقد ذكرت سابقاً ما معنى « التراث » إلا أنك لم تحدد حتى الآن مفهوم « الشعبية » .

— نعني، بقولنا « الشعبية »، نظام آراء ينطوي على السمات الثلاث التالية :

١) اعتبار الرأسمالية في روسيا انحطاطاً ، تراجعاً الى الوراء . ومن هنا تمنيات الشعبيين ، ومحاولاتهم « عرقلة تحطيم » الرأسمالية لمرتكزات الحياة القديمة « وايقافه » ، « والكف عنه » وغير ذلك من العويل الرجعي . **٢) الاعتراف بأصالة البناء الاقتصادي الروسي عامة ، والفلاحي بشاعته وتعاونيته الخ**

خاصة . فهم يعتبرون أن لا حاجة الى تطبيق المفاهيم التي وصل اليها العلم المعاصر، مفاهيم الطبقات الاجتماعية المختلفة وصراعها ، على العلائق الاقتصادية الروسية . فالمشاعية الفلاحية أرقى وأفضل من الرأسمالية ، ومن هنا تمجيد « مبادىء » الحياة الروسية . إنهم ينفون ويطمسون التناقضات القائمة بين الفلاحين ، والمميزة لأي اقتصاد سلعي أو رأسمالي ، وينفون ارتباط هذه التناقضات بشكلها الأكثر تطوراً المتمثل في الصناعة الرأسمالية والزراعة الرأسمالية . ٣) **انكار ارتباط «المثقفين» والمؤسسات الحقوقية والسياسية في البلد بالمصالح المادية لطبقات اجتماعية معينة** . إن نفي هذا الارتباط وفقدان الشرح المادي لهذه العوامل الاجتماعية يجبران الشعبيين على أن يروا فيها قوة تستطيع أن « تجرّ وراءها التاريخ في خط آخر » (السيد ف. ف) « وأن تحوّله عن مساره » (السيد ن. والسيد يوجاكوف وغيرهما) الخ ...

هذا ما نعنيه بقولنا « الشعبية » . ويرى القارىء أننا نستعمل هذا التعبير بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ، تماماً كما يستعمله « التلاميذ الروس » كلهم ، الذين يناهضون هذا النظام من الآراء بأكمله ، لا بعض ممثليه فقط . وتوجد ، بالطبع ، اختلافات ، قد تكون أحياناً غير قليلة ، بين ممثلي الشعبية . إن أحداً منّا لا يتجاهلها . لكن السمات التي أشرنا اليها سابقاً مشتركة بين مختلف ممثلي الشعبية بدءاً من ... ولنقل من السيد يوزوف وانتهاء بالسيد ميخايلوفسكي . ان السادة من أمثال يوزوف وسازونوف و ف.ف وغيرهم يضيفون الى السمات السلبية المشار اليها سمات أخرى سلبية لانراها مثلاً عندالسيد ميخايلوفسكي وآخرين من مساعديه في مجلة « روسكويي بوغاتستغو » الحالية .

إن نفي هذه الفروق بين الشعبيين بالمعنى الضيق للكلمة ، وبين الشعبيين بوجه عام ، سيكون غير صحيح بالطبع ، ولكن ، سيكون خطأ اكبر أن

نتجاهل تطابق النظرات الاقتصادية والاجتماعية **الأساسية** في النقاط الرئيسية التي أشرنا اليها سابقاً عند الشعبيين جميعهم. وبما أن « التلاميذ الروس » يرفضون هذه النظرات الأساسية بالذات، وليس « الانحرافات المؤسفة » عنها الى الجانب الأسوأ فقط، فإن لهم الحق كله، بالطبع، في أن يستعملوا مفهوم « الشعبية » بالمعنى الواسع للكلمة. وأقول اكثر من ذلك: ليس لهم الحق فقط، بل انهم لا يستطيعون أن يفعلوا غير هذا.

إذا استعرضنا الآراء الرئيسية للشعبية التي أوردناها سابقاً، علينا ان نقرر قبل كل شيء **أنه ليس** « للتراث » **علاقة اطلاقاً بهذه الآراء**. إذ توجد مجموعة كاملة من ممثلي « التراث »، والأمناء عليه الذين لا يُشك فيهم، لا يربطها بالشعبية أي رابط، وهي لا تؤمن اطلاقاً بأصالة روسيا والمشاعة الفلاحية الخ، ولا تطرح أبداً مسألة الرأسمالية، ولا ترى في المثقفين وفي المؤسسات السياسية والحقوقية أي عامل يستطيع « ان يحول التاريخ عن مساره ». وكنا قد ذكرنا مثالاً على ذلك محرر « فيستنك اوروبا » وصاحبها، الذي يمكن اتهامه بأي شيء إلا بتخطي تقاليد التراث. وبالعكس، هناك أناس قريبون جداً من الشعبية في أسسها الرئيسية، لكنهم « يتبرأون علناً من التراث ». ولنذكر السيد يوزوف والسيد يا. أبراموف نفسه، الذي أشار اليه السيد ميخايلوفسكي. الشعبية التي يحاربها « التلاميذ الروس » لم تكن موجودة حتى مجرد وجود حينما « اكتشف » التراث (إذا ما استعملنا تعبيراً حقوقياً)، أي في الستينات. لم تكن بذور الشعبية، بداياتها، في الستينات فقط، بل في الأربعينات أو حتى قبل ذلك الوقت. ان تاريخ الشعبية لا يشغل بالنا الآن، إنما يهمنا فقط، ونردد ذلك مرة اخرى، أن نقرر أنه ليس « لتراث » الستينات بالمعنى الذي رسمنا خطوطه سابقاً أي قاسم مشترك مع الشعبية، أي ليس بينهما ما هو عام في جوهر آرائهما، فهما يطرحان مسائل مختلفة.

يوجد أمناء على « التراث » غير شعبيين ويوجد شعبيون « يتبرأون من التراث ». وبالطبع يوجد ايضاً شعبيون يحافظون على « التراث » أو يدّعون الحفاظ عليه. ولهذا ، نحن نتحدث عن علاقة التراث بالشعبية . فلنرَ ما أعطت هذه العلاقة .

١ ـ خطت الشعبية **خطوة** جبارة **الى الأمام** بالمقارنة مع التراث **بطرحها** أمام الفكر الاجتماعي مسائل للحلّ ، لم يستطع الامناء على التراث (آنذاك) أن يطرحوا بعضها ، وبعضها الآخر لم يطرحوه ولا يطرحونه اضيق نظرتهم . إن طرح هذه المسائل لفضل **تاريخيّ** عظيم للشعبية . فمن الطبيعي والمفهوم أن الشعبية ، **بتقديمها** حلاً لهذه المسائل (بغضّ النظر عن ماهية هذا الحل) ، تبوأت مكاناً طليعياً بين التيارات التقدمية في الفكر الاجتماعي الروسي .

لكن حل الشعبية لهذه المسائل كان غير صالح بالمرّة ، كان مبنياً على نظريات متأخرة رمتها أوروبا الغربية عنها منذ زمن بعيد، ومبنياً على نقد رومنطيقي وبرجوازي صغير للرأسمالية ، وعلى تجاهل الوقائع الضخمة جداً في تاريخ روسيا وواقعها . وقد استطاع هذا النقد البدائي للرأسمالية أن يصمد حين كان تطور الرأسمالية في روسيا وما يلازمها من تناقضات لما يزل ضعيفاً جداً . أما الشعبية الآن فلا تستجيب للتطور المعاصر للرأسمالية في روسيا ، ولا لدرجة معارفنا الحالية عن واقع روسيا وتاريخها الاقتصاديين ، ولا لمتطلبات النظرية الاجتماعية المعاصرة . الشعبية الآن نظرية رجعية و ضارة تثير البلبلة في الفكر الاجتماعي، وتساعد على الجمود والاسيوية بمختلف أشكالها ، بعد أن كانت (الشعبية) ظاهرة تقدمية في حينها،باعتبارها أول طرح لمسألة الرأسمالية . وقد أضفى الطابع الرجعي للنقد الشعبي للرأسمالية على الشعبية ذاتها،في الوقت الراهن ، سمات جعلتها في وضع

أدنى من النظرية التي تكتفي بالحفاظ الأمين على التراث(*) وسنحاول أن نظهر هذا الواقع بتحليل كلّ من السمات الأساسية الثلاث في نظرية الشعبية.

السمة الأولى هي اعتبار الرأسمالية في روسيا انحطاطاً، رجوعاً إلى الوراء. فما ان طرحت مسألة الرأسمالية في روسيا حتى أتضح أن تطورنا الاقتصادي رأسمالي. وأعلن الشعبيون أن هذا التطور رجوع إلى الوراء، غلطة وانحراف عن طريق رسمها تاريخ الأمة كله، عن طريق كرسته «مبادىء» امتدت عبر الأجيال الخ فحل عدم الثقة بهذا التطور الاجتماعي محل ايمان المنورين الحاربه، ومحل التفاؤل التاريخي والنشاط تشاؤم وكآبة على أساس أن الأمور ستزداد سوءاً بقدر ما ستسير الأمور على ما هي عليه الآن، وسيكون من الأصعب فالأصعب حل المهام التي يطرحها التطور الجديد، من هنا الدعوات إلى «عرقلة» هذا التطور «وايقافه»، ومن هنا النظرية القائلة بأن في التأخر سعادة روسيا الخ الخ. . لاشيء يجمع، إذاً، بين هذه السمات في الشعبية وبين «التراث»، لا بل إنها تتناقض معه تناقضاً مباشراً. فاعتبار الرأسمالية الروسية «انحرافاً عن الطريق» وانحطاطاً يؤدي الى افساد التطور الاقتصادي كله في روسيا، إلى إفساد هذا التغيير الذي يجري أمام أعيننا. إن الشعبي، مأخوذاً برغبته في عرقلة وايقاف تحطيم الرأسمالية للمرتكزات القديمة، يصاب بفقدان مدهش للحس التاريخي، وينسى أنه لم يكن قبل هذه الرأسمالية إلا استغلال مماثل، أضيفت إليه أشكال لامتناهية من العبودية والتبعية الشخصية أرهقت وضع الكادح، لم يكن إلا الرتابة والجمود في الانتاج

(*) أتيحت لي الفرصة سابقاً في مقالي عن الرومنطيقية الاقتصادية أن ألاحظ أن أعداءنا يظهرون قصر نظر مدهش حين يفهمون عبارتي: رجعي وبرجوازي صغير على أنها نزوات جدل، مع أن لهاتين العبارتين معنى تاريخياً فلسفياً محدداً تماماً (انظر. ف. إ. لينين مؤلفات كاملة ج ٢ ص ٢١١. — هيئة التحرير.)

الاجتماعي ، وبالتالي في مختلف مستويات الحياة الاجتماعية . إن الشعبي يتخلى ، وهو يكافح الرأسمالية من وجهة نظره الرومنطيقية البرجوازية الصغيرة ، عن الواقعية التاريخية اذ يقارن على الدوام **واقع** الرأسمالية **بأوهامه** حول نظام ما قبل الرأسمالية . « وأصحاب تراث » الستينات ، بايمانهم الحار بتقدمية التطور الاجتماعي الراهن وبعدائهم الشديد الموجه كله ، حصراً ، ضد مخلفات القديم ، وبقناعتهم بأنه يكفي محو هذه المخلفات محواً تاماً لتسير الامور على خير ما يرام - أصحاب « التراث » هؤلاء لا يمتون بأي سبب الى الشعبيين ، لا بل يناقضونهم مباشرة .

والسمة الثانية للشعبية هي الإيمان بأصالة روسيا وتمجيد الفلاح والمشاعة الخ .. إن تعاليم الشعبيين المتعلقة بأصالة روسيا أجبرتهم على التمسك بالنظريات الأوروبية الغربية القديمة ، ودفعتهم إلى الوقوف من كثير من مكتسبات الثقافة الأوروبيةالغربية موقف الرعونة والطيش المدهشين ؛ وهم يهدئون قلقهم بقولهم : إذا لم تتوفر فينا هذه الخصائص أو تلك من خصائص الانسانية المتمدنة ، « **فقد كتب علينا** » ، بالمقابل ، أن نري العالم أساليب جديدة في إدارة الاقتصاد الخ .. لم يكن الشعبيون يقبلون بتحليل الفكر الأوروبي الغربي التقدمي للرأسمالية ولمختلف تجلياتها مطبقاً على روسيا المقدسة وحسب ، بل كانوا يختلقون تحفظات لا تسمح لهم أن يستخلصوا ، بالنسبة للرأسمالية الروسية ، ما استخلصه الغربيون من نتائج بالنسبة للرأسمالية الأوروبية . كان الشعبيون ينحنون احتراماً أمام أصحاب هذا التحليل ، ويظلون ، كما كانوا وبكل راحة بال ، رومنطقيين . مع أن أصحاب هذا التحليل ناضلوا حياتهم كلها ضد أمثال هؤلاء الرومنطقيين . وهذه التعاليم المشتركة بين الشعبيين جميعاً لا تمت بأي سبب إلى « التراث » بل تتناقض معه مباشرة . وبالعكس حاول رجال الستينات أوربة روسيا ، وآمنوا باشراك روسيا

في الثقافة الأوروبية العامة ، واهتموا بادخال مؤسسات هذه الثقافة إلى ارضنا غير الأصيلة بتاتاً . إن اي قول بأصالة روسيا لا ينسجم مطلقاً مع روح الستينات وتقاليدها . كما لا ينسجم مع هذه التقاليد ، وبقدر اكبر ، تمجيد الشعبية للقرية وتزويقها لها . إنه تمجيد مزيف يود بأي ثمن كان أن يرى في قريتنا شيئاً ما خاصاً ، لا يشبه ابداً نظام أي قرية أخرى في أي بلد آخر في فترة علائق ماقبل الرأسمالية. وهذا التمجيد يناقض مناقضة فاضحة تقاليد التراث الواقعي الواعي . فبقدر ما كانت الرأسمالية تتطور تطوراً أبعد واعمق ، كانت التناقضات المشتركة بين المجتمعات السلعية الرأسمالية تظهر بقوة اكبر ، وكان التناقض يبرز بحدة متزايدة بين اقاويل الشعبيين الحلوة عن « مشاعية » الفلاح و « تعاونيته » الخ .. وبين الانشقاق الفعلي للفلاحين الى برجوازية قروية وبروليتاريا ريفية ، وكان الشعبيون الذين ظلوا ينظرون إلى الأمور بعيني الفلاح يتحولون بسرعة اكبر من رومنطقيين عاطفيين إلى ايديولوجيي البرجوازية الصغيرة ، إذ ان المنتج الصغير في المجتمع المعاصر كان يتحول الى منتج سلع . وأدى التمجيد المزيف للقرية ، والاحلام الرومنطيقية حول « المشاعية » إلى وقوف الشعبيين موقفاً طائشاً أرعن من الحاجات الفعلية التي فرضها هذا التطور الاقتصادي على الفلاح . كان بإمكان الشعبيين أن يتحدثوا نظرياً ، بقدر ما يطيب لهم ، عن قوة المرتكزات والمبادىء الروسية ، ولكن كل شعبي كان يشعر ، عملياً ، شعوراً واضحاً للغاية أن إزالة آثار القديم ، آثار نظام ما قبل الإصلاح الذي لا زال يكبل فلاحينا حتى الآن من أعلى الرأس حتى أخمص القدم ، تفتح الطريق أمام التطور الرأسمالي بالذات ، وليس أمام أي تطور آخر . نفضل الجمود على التقدم الرأسمالي – هذه هي ، في جوهرها ، وجهة نظرة أي شعبي إلى القرية ، مع أن الشعبيين لا يجرؤون كلهم ، بالطبع ، على الافصاح عن ذلك علناً ، كما فعل السيد ف. ف بصراحته الساذجة . « يبدو كأن الفلاحين المسمرين إلى قطعة الأرض والجمعيّات ، المحرومين من ممارسة عملهم في

المكان الذي يكون اكثر انتاجية وانفع لهم ، قد تجمدوا في ذلك النمط الضيق ، غير المنتج ، الشبيه بنمط الحيوانات في الحياة ، الذي وجدوا انفسهم فيه بعد أن تخلصوا من نظام القنانة ».. هكذا يرى احد ممثلي التراث من وجهة نظره الخاصة باعتباره « منوّراً » [٣٦] . « الأفضل أن يبقى الفلاحون متجمدين في نمط حياتهم الأبوي الرتيب من أن يمهدوا الطريق أمام الرأسمالية » ـ هكذا في الأساس ينظر إلى الامور أي « شعبي » . وبالفعل ، لن تجد ، على الأرجح ، شعبياً واحداً يجسر على أن ينكر أن الانطواء الطبقي للمشاعة الفلاحية ، بتكافلها وتضامنها ومنع بيع الأرض ورفض تقسيمها ، يقع في تناقض حادٍ جداً مع **الواقع** الاقتصادي المعاصر ، مع العلائق السلعية الرأسمالية المعاصرة وتطوّرها . وانكار هذا التناقض غير ممكن . لكن جوهر الموضوع كله هو أن الشعبيين يخافون مثل هذا الطرح للمسألة ، ومثل هذه المقارنة لوضع الفلاحين الحقوقي بالواقع الاقتصادي ، وبالتطور الاقتصادي الراهن ، خوفهم من النار . فالشعبي يريد بعنادٍ أن يؤمن بما ليس موجوداً ، بالتطور دون رأسمالية ، وهو تطور يتخيله بطريقة رومنطيقية . لهذا .. لهذا تراه مستعداً لأن يوقف هذا التطور الذي يسير في طريق الرأسمالية . امّا موقف الشعبي من بعض المسائل ، كانطواء المشاعة الفلاحية الطبقي والتكافل والتضامن ، وحق الفلاحين في بيع الأرض ، أو رفض حصصهم منها ، فموقف يتصف بأعظم قدر من الحذر والتخوف على مصير « المرتكزات » (مرتكزات الجمود والرتابة) ، لا بل ينحط الى درك يحيي معه منع الفلاح بيع أرضه بقوة الشرطة . ويمكننا أن نردّ على هذا الشعبي بكلمات انغيلغارت : « الفلاح غبي . وإذا لم يهتم بـه أحد ، سيحرق الغابات كلها ، وسيقتل الطيور كلها ، وسيصطاد الأسماك كلها ، وسيفسد الأرض وسيهلك اخيراً ». الشعبي يتخلى هنا «عن التراث» صراحة ، ويصبح رجعياً . ولاحظوا أيضاً أن تحطيم الانطواء الطبقي للمشاعة

الفلاحيـة يصبح ، مع التطور الاقتصادي ، ضرورة اكثر فأكثر الحـاحاً بالنسبة للبروليتاريا ، في حين أن المضايقات التي تصيب البرجوازية الفلاحية من ذلك غير كبيرة . « الفلاح الحسن التدبـير » يستطيـع بسهولة أن يستأجر أرضاً في قريته ويفتح مشروعاً في قرية اخرى ، وان ينتقل حيث يشاء ولأي فترة يريدها لقضاء اعماله التجارية . امـا « الفلاح » الذي يعيش بشكل رئيسي من بيـع قوة عمله ، فتثبيته الى قطعة الارض او الجمعية يعني تضييقاً ضخماً على نشاطه الاقتصادي، يعني عدم تمكنه من ان يجد مستأجراً افضل ، يعني ضرورة بيعه قوة عمـله الى مشترين محليين بالذات ، يأخذونها بثمن ارخص ، ويبحثون باستمرار عن اية اسـاليب لاستعباده . فالشعبي ، بوقوعه اسير الاحلام الرومنطيقية ، وبرغبته في ان يقوي ويحافظ على « الركائز » ، على الرغم من حكم التطور الاقتصادي ، قد انزلق دون ان يدري حتى وجـد نفسـه بجـانب الفلاح الغني الذي يتعطش من صميم قلبه للحفاظ على « ارتباط الفلاح بالارض » ، وتقوية هذا الارتباط . « يكفينا ان نذكر كيف ولدّ هـذا الانطواء الطبقي للمشاعـة الفلاحية اساليب جديدة في استئجار العمال ، كان يرسل اصحاب المصانع والاستثمارات ناظريهم الى القرى ، وخصوصاً تلك التي لم تدفع بعد كافة استحقاقاتها من الضرائب ، لاستئجار العمال بأزهد أجر ممكن .. ولكن تطور الرأسمالية الزراعية ، إذ يقضي على « الإقامة الدائمة البروليتاريا » (هذا هو مفعول ما يسمى بالأعمـال الزراعيـة الموسمية) يزيح ، لحسن الحظ ، هذا الاستعباد تدريجياً ، ليستبدله بالاستئجار الحر .

إن تمجيد فكرة ايفاء الدين عملاً ،وهي الظاهرة العامة في تفكير الشعبيين ، تقدم تأكيداً آخر لرأينا في ضرر النظريات الشعبية المعاصرة ، وهو تأكيد لا يقل وضوحاً عن سابقه . وقد أوردنا سابقاً مثلاً على ذلك ، هو أن انغليغارت توصل ، بعد سقوطه في هذه الخطيئة الشعبية ، الى القول بأنه سيكون أمراً حسناً لو طُور

في القرية نظام ايفاء الدين عملًا ! ونجد الفكرة نفسها في مشروع السيد بوجاكوف المعروف، المتعلق بالمدارس الزراعية (« روسكوبي بوغاتستغو » ١٨٩٥ عدده). كما استسلم الى مثل هذا التمجيد السيد ف.ف ، مساعد السيّد انغيلغارت في تحرير المجلة ، في مقالات اقتصادية رصينة ، مؤكداً أن الفلاح انتصر على الاقطاعي الذي يودّ ادخال الرأسمالية كما يقول السيّد ف.ف ، ولكن المصيبة هي ان الفلاح أخذ يعمل في أراضي الاقطاعي لقاء استئجاره أراضي الاقطاعي نفسه اي ان الفلاح أعاد طريقة الزراعة نفسها التي كانت في عهد القنانة . هذه هي اكثر الامثلة بروزاً على موقف الشعبيين الرجعي من مسائل الزراعة في بلدنا . وتجدون هذه الفكرة ، ربما بشكل أقل وضوحاً، عند اي شعبي . ان كل شعبي يتكلم عن ضرر الرأسمالية وخطرها على زراعتنا ، لأن الرأسمالية ، وارجوكم ملاحظة ذلك ، تستبدل الفلاح المستقل بالأجير . ان واقـع الرأسمالية (الأجير) يعارض بوهم الفلاح « المستقل » ، ويقوم هذا الوهم على اساس ان الفلاح كان يملك قبل العهد الرأسمالي وسائل الانتاج، بينما يُغفل بكل تواضع واقـع أنه كان على الفلاح ان يدفـع ضعفي قيمة هذه الوسائل وان وسائل الانتاج هذه تستعمل لايفاء الدين فقط ، وأن مستوى حياة هذا الفلاح « المستقل » منخفض انخفاضاً يمكن معه ادراجه ، في أي بلد رأسمالي، في قائمة المعدمين، وأن الفقر المدقـع الذي يعيش فيه هذا الفلاح المستقل ، وعطالته الفكرية يقترنان ، علاوة على ما تقدم ، بتبعيته الشخصية التي تلازم عادة أشكال اقتصاد ما قبل الرأسمالية .

وترتبط السمة الثالثة للشعبية، وهي انكار علاقة « المثقفين » والمؤسسات السياسية الحقوقية في البلد بالمصالح المادية لطبقات اجتماعية معينة ، ارتباطاً وثيقاً بالسمتين السابقتين . ففقدان الواقعية في المسائل الاجتماعية يستطيع، هو وحده ، ان يولد المذهب القائل « بخطأ » الرأسمالية الروسية وبامكانية « تحويلها عن

مسارها » . ونقول ، مرة أخرى ، ان آراء الشعبيين هذه لا تمت بأي سبب الى « تراث » الستينات وتقاليدها ، **لا بل تتناقض مباشرة وهذه التقاليد** . ومن هذه الآراء ينشأ طبيعياً موقف الشعبيين هذا من كثير من مخلفات تنظيم ما قبل الاصلاح في الحياة الروسية ، وهو موقف لا يمكن لممثلي « التراث » ان يشاركوهم فيه بأي حال من الأحوال . وسنسمح لأنفسنا باستخدام ملاحظات السيد ف. ايفانوف الرائعة في مقاله «وهم سيء» (نوفويي سلوفا [٣٧] – ايلول عام ١٨٩٧) لوصف هذا الموقف. يتحدث الكاتب ايفانوف عن رواية السيد بوبوريكين الشهيرة « بشكل آخر » ، ويكشف عن عدم فهم صاحب الرواية للنقاش الدائر بين الشعبيين « والتلاميذ » ، اذ يجعل بطل روايته ، وهو شعبي ، يوجه الى « التلاميذ » عتاباً ، فحواه « أن التلاميذ » يحلمون « بثكنة تنظيم لا يطاق استبدادها. ويلاحظ السيد ف. ايفانوف بصدد ذلك ما يلي :

ليس الأمر في أن الشعبيين لم يتكلموا عن استبداد « التنظيم » الذي لا يطاق بوصفه « حلم » اعدائهم فقط ، بل انهم **لا يستطيعون أن يتكلموا ويظلوا مع ذلك شعبيين ، وهم لن يفعلوا ذلك** . وجوهر نقاشهم مع « الماديين الاقتصاديين » **في هذا المجال** هو أن بقايا التنظيم القديم التي لا زالت موجودة عندنا تستطيع ، في رأي الشعبيين ، ان تكون أساساً لتطور مقبل للتنظيم . لكنهم يرون أن هذا التنظيم لا يطاق لتصورهم الخاطىء بأن النفس الفلاحية ذاتها (الواحدة التي لا تتجزأ) تتطور نحو التنظيم من جهة ، ولقناعتهم ، من جهة أخرى ، بما في المثقفين ، « المجتمع الراقي » أو الفئات الحاكمة بوجه عام ، من جمال أخلاقي موجود فعلاً أو هو في طريقه الى الكينونة . فهم يتهمون الماديين الاقتصاديين بالتحيز لا الى « التنظيم » ، بل ، بالعكس ، بالتحيز الى النظم الأوروبية الغربية القائمة على فقدان التنظيم . ويؤكد الماديون الاقتصاديون ، في الواقع ، أن بقايا التنظيم القديم ،

الذي قام على أساس الاقتصاد الطبيعي ، تصبح اكثر ثقلاً يوماً بعد يوم ، في بلد انتقل الى اقتصاد نقدي يحدث تغييرات لاحصر لها في الوضع الفعلي لمختلف الفئات، كما يحدثها في ملامحها العقلية والاخلاقية ؛ ولهذا فهم مقتنعون بأن الشروط الضرورية لنشوء « تنظيم » جديد مثمر للحياة الاقتصادية في البلد يمكن ان تتطور ، لا من مخلفات تنظيم متكيّف مع الاقتصاد الطبيعي ونظام القنانة ، بل في مناخ يغيب فيه هذا التنظيم القديم غياباً تاماً ومتكاملاً كما في البلدان الأوروبية المتقدمة واميركا. ومسألة « التنظيم » ، التي يثور الجدل حولها بين الشعبيين وخصومهم ، تقع في هذا المستوى (ص ١١ - ١٢) . وقد يمثل هذا الموقف ، الذي يقفه الشعبيون من « بقايا التنظيم القديم » ، ابرز شكل من اشكال تراجع الشعبيين عن تقاليد « التراث » . فممثلو التراث يتميزون ، كما رأينا ، بادانتهم العنيفة القاطعة لبقايا التنظيم القديم كلها . وبالتالي « فالتلاميذ » ، من هذه الزاوية ، أقرب بكثير الى « التقاليد » و « تراث » الستينات من الشعبيين .

ويؤدي بهم انعدام الواقعية الاجتماعية، بالاضافة الى الخطأ البالغ الخطورة الذي أشرنا اليه ، الى اسلوب خاص في التفكير ومحاكمة المسائل والقضايا الاجتماعية ، يمكن أن نسميه غرور مثقفين ضيقي الأفق أو تفكيراً بيروقراطياً . فالشعبي يفكر دائماً في الطريق التي يجب علينا ان نختارها للوطن ، وفي الصعوبات التي قد تعترضنا فيما لو وجهنا الوطن في هذه الطريق ، وفي المخرج الذي نستطيع نحن أن نؤمنه اذا تجاوزنا مخاطر الطريق التي مرت بها اوروبا العجوز ، واذا أخذنا « ما هو جيد » في اوروبا وفي مشاعيتنا الأصيلة الخ الخ ... ومن هنا عدم ثقة الشعبي ، واستخفافه بالاتجاهات المستقلة للطبقات الاجتماعية المختلفة التي تصنع التاريخ وفق مصالحها . ومن هنا هذا الطيش المدهش الذي يندفع معه الشعبي (ناسياً الوضع الذي يحيط به) في كافة أنواع التخطيطات الاجتماعية الفارغة ،

بدءاً من تنظيم العمل الزراعي ، وانتهاء بمحاولات « مجتمعنا » « تدنيس الانتاج ». « سينمو حجم الجماهير بقدر رسوخ العمل التاريخي الذي هو قضيتها (*) ».

في هذه الكلمات تعبير عن احدى أعمق وأهم موضوعات النظرية التاريخية الفلسفية التي لا يريد شعبيونا ، ولا يستطيعون فهمها . فبقدر ما يتسع ويتعمق الابداع التاريخي للناس ، ينمو وزن تلك الفئة من الناس التي هي العامل التاريخي الواعي . فالشعبي يفكر في السكان عامة ، والشغيلة بنوع خاص بوصفهم موضوعاً لاجراءات تكون معتدلة الى هذا الحد أو ذاك ، بوصفهم مادة جامدة توجه في هذه الطريق أو تلك ، ولم ينظر أبداً الى الفئات المختلفة من السكان ، بوصفها قادرة على ان تقوم بعمل تاريخي مستقل في هذه الطريق ، ولم يطرح ابداً مسألة الظروف المحيطة بتلك الطريق والتي قد تطوّر (أو ، بالعكس ، قد تشلّ) النشاط المستقل والواعي لمبدعي التاريخ هؤلاء .

وهكذا نرى أن **الحل** الذي قدمته الشعبية لمسألة الرأسمالية في روسيا كان ، بحكم وجهة نظرها البرجوازية الصغيرة ونقدها العاطفي للرأسمالية ، حلاً غير مرض حتى انها تخلّفت عن المنورين في كثير من المسائل الاجتماعية البالغة الاهمية ، مع ان طرحها لمسألة الرأسمالية كان خطوة عظيمة إلى الأمام بالنسبة للمنورين من جماعة « التراث » .

وكان انضمام الشعبية الى تراث منورينا وتقاليدهم سلبياً من حيث نتيجته : فهي لم تحل المسائل الجديدة التي طرحها التطور الاقتصادي بعد الاصلاح في روسيا على الفكر الاجتماعي الروسي ، بل اكتفت بالتحسر الرجعي العاطفي على الماضي . اما المسائل القديمة التي طرحها المنورون فقد حشتها الشعبية رومنطيقية واعاقت حلها الكامل .

(*) ماركس العائلة المقدسة .

المنورون والشعبيون والتلاميذ :

نستطيع الآن ان نستخلص النتائج من مقارناتنا . فلنحاول ان نصف بايجاز علاقة التيارات الفكرية الاجتماعية التي أشرنا اليها في العنوان كل منها بالآخر .

يؤمن المنور بالتطور الاجتماعي الراهن ، لأنه لا يلاحظ ما فيه من تناقضات . والشعبي يخاف هذا التطور الاجتماعي ، لأنه يلاحظ هذه التناقضات . أما « التلميذ » فيؤمن بهذا التطور الاجتماعي لأنه لا يرى في التطور الكامل لهذه التناقضات الا ضمانة لمستقبل أفضل . فالاتجاهان ، الأول والاخير ، يسعيان ، بسبب ذلك ، الى تدعيم التطور في هذه الطريق ، والاسراع فيه وتيسيره وازالة كافة العقبات التي تحول دونه وتعيقه . أما الشعبية فتحاول ، على العكس من ذلك ، اعاقة هذا التطور وايقافه وتخاف من إزالة بعض العقبات أمام تطور الرأسمالية . ويتصف الاتجاهان الأول والاخير بما يمكن أن نسميه التفاؤل التاريخي : بقدر ما تسرع الامور في تطورها ، كما هو الآن ، سيكون الأمر افضل . أما الشعبية فتفضي ، على العكس وبشكل طبيعي ، الى التشاؤم التاريخي : بقدر ما تتطور الأمور على هذا المنوال ، يكون الأمر أسوأ . لم يطرح المنورون قط مسألة طابع التطور الذي حصل بعد الاصلاح ، واكتفوا ، حصراً ، باعلان الحرب على بقايا نظام ما قبل الاصلاح ، مكتفين بمهمة سلبية هي تمهيد الطريق أمام تطوير روسيا اوروبياً . الشعبية طرحت مسألة الرأسمالية في روسيا ، لكنها حلتها انطلاقاً من قناعتها برجعية الرأسمالية ، فلم تستطع ، لذلك ، أن تستوعب تماماً تراث المنورين : فقد أعلن الشعبيون دائماً الحرب على كل من حاول أوربة روسيا بشكل عام ، أي من وجهة نظر « وحدة الحضارة » ، واعلنوها ، لا لأنهم لا يستطيعون أن يكتفوا بالمثل العليا لهؤلاء الناس فقط (والا لكانت هذه الحرب عادلة) ،

بل لأنهم لم يريدوا أن يسيروا أبعد من ذلك في طريق التطور الراهن للحضارة ، أي التطور الرأسمالي . أما « التلاميذ » فيحلون مسألة الرأسمالية في روسيا انطلاقاً من تقدميتها ، ولهذا فهم يستطيعون ، بل يتوجب عليهم ايضاً ، أن يقبلوا بتراث المنورين كله ويكملوه بتحليل تناقضات الرأسمالية من وجهة نظر المنتجين غير المالكين . إن المنورين لم يبرزوا أي طبقة من السكان موضوعاً لاهتمامهم الخاص، بل تكلموا ليس عن الشعب بوجه عام فحسب ، بل حتى عن الأمة بوجه عام . أما الشعبيون فقد رغبوا في تمثيل مصالح العمل دون أن يشيروا ، مع هذا ، الى فئات معينة في نظام الاقتصاد الحديث ، فكانوا ، عملياً ودائماً ، من وجهة نظر المنتج الصغير الذي تحوله الرأسمالية الى منتج سلع . أما التلاميذ فلا يأخذون مصالح العمل مقياساً لهم فقط ، بل يشيرون في الوقت نفسه الى فئات اقتصادية معينة تماماً في الاقتصادالرأسمالي ، هي ، بالضبط ، فئة المنتجين غير المالكين . الاتجاهان ، الأول والأخير ، يتطابقان، من حيث مضمون رغباتهما ، ومصالح الطبقات التي تخلقها الرأسمالية وتطورها ، أما الشعبية فتتطابق ، من حيث مضمونها ، ومصالح طبقة صغار المنتجين ، ومصالح البرجوازية الصغيرة التي تحتل مركزاً وسطاً بين طبقات المجتمع المعاصر الأخرى. ولهذا فان موقف الشعبية المتناقض من«التراث» ليس موقفاً عارضاً،بل نتيجة حتمية لمضمون آرائها نفسه : فقد رأينا أن احدى السمات الرئيسية للمنورين كانت محاولتهم الجادة أوربة روسيا ، أما الشعبيون فلا يستطيعون أبداً أن يوافقوهم على هذه الحالة ويبقوا شعبيين .

وأخيراً ، نصل إلى النتيجة التي أشرنا اليها اكثرمن مرة في مناسبات خاصة سابقة ، وهي أن التلاميذ يحافظون على التراث حفاظاً اكثر صدقاً وتماسكاً من الشعبيين بكثير . إنهم لا ينفضون ايديهم من التراث ، بل هم ، على العكس ، يعتبرون احدى اكثر مهماتهم معنى دحض التخوفات الرومنطيقية والبرجوازية الصغيرة التي تجعل الشعبيين يعرضون عن المثل الاوروبية للمنورين في نقاط كثيرة

جدا وهامة جدا . ولكن من المفهوم أن « التلاميذ » لا يحافظون على التراث، كما يحافظ امناء المحفوظات على ورقة قديمة (فالحفاظ على التراث لا يعني التوقف عنده) ، بل يقرنون الدفاع عن المثل العليا الأوروبية بتحليل التناقضات ، التي ينطوي عليها تطورنا الرأسمالي ، وبتقييم هذا التطور من وجهة نظرهم الخاصة التي أشرنا اليها من قبل .

كتب في أواخر عام ١٨٩٧

ج ٢ ، ص ٤٠٩ – ٥٤٢

★ ★ ★

من مؤلف

« مـــا العمل ؟ »

المسألة الملحة لحركتنا

... لو استطعنا فعلاً أن نجعل اللجان والجماعات والحلقات المحلية ، كلها أو معظمها ، تشترك بنشاط في العمل العام ، لأصبح بامكاننا أن نصدر في مستقبل قريب صحيفة اسبوعية توزع بصورة منتظمة في جميع انحـــاء روسيا بعشرات الآلاف من النسخ . ستصبح هذه الصحيفة جزءاً من منفاخ حدادة هائل ، يجيل كل شرارة من شرارات النضال الطبقي والسخط الشعبي حريقاً عاماً . وحول عمل كهذا ، بريء جداً وصغير جداً بذاته ، لكنه عمل منتظم ، وعام بكل ما في الكلمة من معنى ، سيعبأ بصورة منتظمة وسيتعلم جيش دائم من مناضلين مجربين. ولن يمر وقت طويل حتى ينهض على صقالات هذا البناء العام الذي يجري تنظيمه ، ويبرز من بين ثوريينا اشتراكيون ديمقراطيون من طراز جيليابوف ، ومن بين عمالنا الروس رجال من طراز بيبل ، يقفون على رأس جيش معبأ ، ويستنهضون الشعب كله للاقتصاص من وصمة العار واللعنة على جبين روسيا .

هذا ما ينبغي لنا أن نحلم به !.

★ ★ ★

« ينبغي لنا أن نحلم ! » ما ان كتبت هـذه الكلمات حتى ذعرت . فقد خيـل الي أني جالس في « مؤتمر التوحيـد » وأمامي محررو « رابوتشي ديلو » والعاملون فيها . واذا بالرفيق مارتينوف ينهض ويوجه كلامه إلي مهدداً « اسمح لي أن أسألك ، هل يحق لهيئة تحرير مستقلة أن تحلم دون أن تستأذن في ذلك لجان الحزب ؟ » . ثم ينهض الرفيـق كريتشيفسكي ويستطرد (معمقاً ، من زاوية فلسفية ، فكرة الرفيق مارتينوف الذي عمّق بدوره ، ومنـذ زمن طويل افكار بليخانوف) قائلاً بنبرة تهديد أقوى : « إني اذهب إلى أبعـد من الرفيـق كريتشيفسكي فأسأل : بوجه عام ، هل يحق لماركسي أن يحلم ، اللهم إلاّ إذا نسي أن البشرية ، في رأي ماركس ، لا تضع نصب عينيها على الدوّام إلا اهدافاً ممكنة التحقيق ، وأن التكتيك هو عملية نمو المهام التي تنمو مع الحزب ؟ » .

وسرت القشعريرة في بدني لمجرد التفكير في هذه الاسئلة الرهيبة ،وأخذت أبحث عن ملجأ اختبىء فيه . فلأختبىء وراء ظهر بيساريف .

كتب بيساريف يقول بشأن الخلاف بين الحلم والواقع : « يقول المثل ، ليست الخلافات كلها واحدة . فقد يسبق حلمي مجرى الاحداث الطبيعي ، أو قد يجنح الى اتجاه لا يمكن لسير الأحداث الطبيعي أن يفضي اليه أبداً . ففي الحالة الأولى لا يسبب الحلم أي ضرر ، بل قـد يشجع الانسان الكادح ويشدد من عزيمته . . وليس في هـذه الاحلام ما يمكن ان يفسد أو يشل القوة العاملة . بل العكس هو الصحيح . فلو حرم الانسان ملكة الحلم بهذا الشكل ، ولو كان عاجزاً عن أن يستبق مجرى الأحداث أحياناً ، ويتخيل العمل ، الذي بدأه ، جاهزاً في صورته الكاملة والنهائية ، فـاني لا أستطيع عندئذ أن أتصور ، بوجه من الوجوه ،الدافع ، الذي يحفز الانسان على الشروع في عمل جسيم ومضن في ميادين الفن والعلم والحياة العملية ، وعلى الدأب حتى انجازه .. ان الخلاف بين الحلم والواقع لا يسبب أي ضرر ، اذا كان الحالم يؤمن ايماناً صادقاً بحلمه ، واذا

كان يتأمل الحياة بانتبـــاه ، مقارناً بين ملاحظاته والقصور التي يبنيها في الهواء ، عاملاً بشكل وجداني على تحقيق حلمه . فعندما يوجد تماس بين الحلم والحيـاة ، تسير الأمور على ما يرام[٣٨]» .

هذا النوع بالذات من الأحلام قليل جداً في حركتنا لسوء الحظ . ويقع القسط الأكبر من المسؤولية على ممثلي الانتقادية العلنية « والذنبية » غير العلنية ، الذين يتبجحون بصفاء ذهنهم و « بقربهم » من « الواقع المشخص » ...

كتب ما بين خريف عام ١٩٠١ وشباط عام ١٩٠٢

ج ٦ ص ١٧١ – ١٧٣

★ ★ ★

من مقال

« اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية »

يعبر الليبراليون عن عدم رضاهم عن الحكم الاستبدادي بالشكل الذي يسمح به الحكم الاستبدادي نفسه ، أي بالشكل الذي يراه الحكم المطلق غير خطر عليه . وأعظم تجل للمعارضة الليبرالية ظهر فقط في التماسات الليبراليين من الحكومةالقيصرية اشراك الشعب في الحكم . كان الليبراليون يتحملون ، كل مرة وبصبر ، الرفض البوليسي الفظ لالتماساتهم ، ويتحملون الملاحقات الوحشية واللاشرعية التي كانت الحكومة البوليسية تكافيء بها حتى محاولاتهم الشرعية للتعبير عن آرائهم . ومحاولة تحويل المعارضة الليبرالية بكل بساطة الى صراع اجتماعيضد الحكم الاستبدادي يعني تشويه القضية تشويهاً صريحاً ؛ فالليبراليون الروس لم ينظموا أبداً حزباً ثورياً للنضال في سبيل اسقاط الحكم الاستبدادي ، على الرغم من أنهم كانوا ولا زالوا يستطيعونأن يجدوا الموارد المادية وممثلين لليبراليةالروسية في الخارجعلى حد سواء . أما ر . م (*) فلا يشوه القضية وحسب ، بل يقحم اسم الاشتراكي الروسي ن . غ . تشرنيشفسكي . يقول ر . م « ان حلفاء العمال في هـذا الصراع هم فئات المجتمع الرومي التقدمية كلها ، المدافعة عن مؤسساتها ومصالحها الاجتماعية ، الفاهمة بوضوح منفعتها المشتركة « والتي لا تنسى » (وهنا

(*) ر.م صاحب مقالة افتتاحيـة في ملحق خاص لصحيفة « رابوتشايا ميسل » (الفكر العمالي) . وقد عبر صاحب المقالة فيها بوضوح تام عن افكار « الاقتصاديين» الانتهازية .

يستشهد ر . م بتشرنيشفسكي) كم هو عظيم الفرق في أن يتم تغيير ما **بمطلب رسمي من المجتمع** أو بقرار مستقل من الحكومة » . فاذا طبقنا هذه الفكرة على كل ممثلي «الصراع الاجتماعي » ، كما يفهمه ر . م ، أي على الليبراليين الروس كلهم، سيكون هذا **زيفاً صريحاً** . فالليبراليون الروس لم يتقدموا أبداً من الحكومة بمطالب رسمية ، ولهذا بالضبط لم يلعبوا ابداً ، وليس في مقدورهم الآن أن يلعبوا دوراً ثورياً **مستقلاً** . ان حلفاء الطبقة العاملة والاشتراكية الديمقراطية لا يمكن أن يكونوا « فئات المجتمع التقدمية كلها » ، بل الأحزاب الثورية التي يؤسسها أعضاء هذا المجتمع فقط . أما الليبراليون فبمقدورهم ، ومن واجبهم بشكل عام ، أن يكونوا **أحد مصادر** القوى والموارد الاضافية للحزب العمالي الثوري فقط (كما عبر عن ذلك ب . ب أكسيلرود بوضوح تام في كراسه الذي ذكرناه سابقاً[٣٩]) . كان ن.غ. تشرنيشفسكي يسخر بلا رحمة من « فئات المجتمع الروسي التقدمية » لأنها ، بالضبط ، لم تفهم ضرورة مطالبة الحكومة رسمياً ، بل كانت تنظر بلا مبالاة الى هلاك الثوار من بينها تحت ضربات الحكومة الاستبدادية . وفي هذه الحالة يورد ر.م مقتطفات من تشرنيشفسكي لا معنى لها تماماً ، كالمقاطع التي يجتزئها في مقاله الثاني (الملحق الخاص) من أقوال تشرنيشفسكي ، ويحاول بها أن يدلل على أن تشرنيشفسكي ، كما يدعي ، لم يكن طوباوياً ، وأن الاشتراكيين الديمقراطيين الروس لم يقدروا أهمية « الاشتراكي الروسي العظيم » حق قدرها . لقد قيم بليخانوف في كتابه عن تشرنيشفسكي (مقالاته في مجموعة « الاشتراكي الديمقراطي » التي صدرت في كتاب مستقل بالالمانية) تقيماً كاملاً اهمية تشرنيشفسكي ، وأوضح موقفه من نظرية ماركس وانغلز . . أمّا هيئة تحرير « رابوتشايامبسل » فلم تكشف الا عن عدم قدرتها على تقديم اي تقييم منطقي وكامل لتشرنيشفسكي ، لنقاط القوة والضعف في نظريته ...

كتب في أواخر ١٨٩٩
ج ٤ ص ٢٥٧ - ٢٥٩

النظرة الماركسية الى المسألة الزراعية

في أوربا وفي روسيا (٤٠)

المسألة الزراعية في روسيا :

جوهر الشعبية

١ – الآراء القديمة = الشعبية .

الفلاحون = « الانتاج الشعبي » (لا البرجوازية الصغيرة) .

المشاعة = بذور الشيوعية (مشاعة الدولة) .

لا توجد أرضية للرأسمالية :

لا توجد سوق داخلية ، الفلاحون هم التناقض الأعظم .

لا يوجد صراع طبقي في الزراعة .

«الديمقراطية الزراعية»

قيمتها التاريخية .

٢ – إنها نظرية كاملة ، بدءاً من غرتسن وانتهاء بـ ن . مرحلة واسعة من الفكر الاجتماعي .

قيمتها التاريخية : تمجيد الصراع ضد الاقطاعية (الديمقراطية الزراعية) ماركس (٤١) .

ترسباتها عند

الاشتراكيين الثوريين

عناصر ديمقراطية .

+ اشتراكية طوباوية .

+ إصلاحات برجوازية صغيرة .

+ رجعية البرجوازي الصغير .

يجب فصل **الزؤان** عن القمح .

تفكك طبقة الفلاحين (خطيئة داود)

٣ - المسألة الجوهرية: **تفكك** طبقة الفلاحين **وتحوّلها إلى برجوازية صغيرة** ، الصراع الطبقي في القرية . . .

البنية الزراعية في روسيا . لاضرورة لبرنامج زراعي لو كانت هناك رأسمالية . (انغلز ، بيوتغر) . لكن . . . **مخلفات الاقطاعية** .

بقايا نظام القنانة

مقومات التفكك :

ملاحظة
- ايفاء الدين عملاً .
- الاتاوات العالية .
- انعدام حرية الانتقال .
- الرأسمال عن طريق الربا .

بقايا نظام القنانة

٤ - الانتقال من نظام السخرة إلى الاقتصاد الرأسمالي.

(نظام فترة الانتقال) - نظام الايفاء عملاً .

تطور الرأسمالية (١٣٣ ، ١٣٥)[٤٣] .

- قطع الأرض .

طبقة الأجراء في الزراعة : ٣ ١/٢ مليون **كحدّ** ى .

التنقال العمال في روسيا

٥ – انتقال العمال في روسيا ، بوصفه تعبيراً عن التطور الاجمالي للرأسمالية .

يهربون من الانتاج الشعبي (تطور الرأسمالية . ٤٦٦ – ٩)[٤٣] .

وبالتالي ، جوهر الفترة الراهنة في التطور الاقتصادي (وفي تاريخ روسيا كله) .

جوهر برنامجنا الزراعي

= **القضاء على مخلفات الاقطاعية** .

= حرية تطور الرأسمالية .

= حرية الصراع الطبقي للبروليتاريا .

[المسألة الزراعية عندنا غيرها في أوروبا] .

[الجمود ، المجاعات

انحطاط ؟ أو حرية الرأسمالية] .

هنا نواة **الشعبية** ، نواتها **الديمقراطية الثورية**

تشكلت فئة الفلاحين الأغنياء

العمال الاجراء بأشكال مختلفة .

١٠ ملايين . تطور الرأسمالية ٤٦٢[٤٤]

– القضاء على مخلفات الاقطاعية يطور سلطتها ، ويعطيها شكلاً رسمياً .

– ارتفاع مستوى الحياة يقوي السوق الداخلية ويطور التصنيع .

– تطور البروليتاريا والصراع الطبقي من أجل الاشتراكية .

عدم فهم الاشتراكيين الثوريين وامثال ريزانوف للبرنامج الزراعي

كتب في ٢٥ – ٢٦ شباط ١٩٠٣

« المجموعة اللينينية » ، ج ١٩ ، من ٢٣٧ – ٢٤٠

* * *

من مقال

« الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية »

. . . كانت الشعبية نظرة متكاملة ومتماسكة إلى حدّ ما . فقد كانت تنكر سيطرة الرأسمالية في روسيا، وتنكر دور عمّال المصانع والمعامل، بوصفهم المناضلين الطليعيين للبروليتاريا كلها ، وتنكر أهمية الثورة السياسية والحرية البرجوازية السياسية ؛ كانت تدعو إلى انقلاب اشتراكي فوري ، ينطلق من المشاعة الفلاحية باقتصادها الزراعي الصغير . ولم يبق الآن من هذه النظرة المتكاملة إلا مزق . ولكن علينا ، إذا ما أردنا أن نتفهم تفهماً واعياً المناقشات المعاصرة كي لا نترك هذه المناقشات تنحط إلى درجة السباب المتبادل ، أن نضع نصب أعيننا الأسس الشعبية العامة والجذرية لضلالات اشتراكيينا الثوريين .

كان الشعبيون يعتقدون أن الموجيك هو إنسان المستقبل في روسيا . وكانت هذه النظرة تنبثق ، بالضرورة ، من ايمانهم باشتراكية المشاعة، ومن عدم ايمانهم بمصائر الرأسمالية. وكان الماركسيون يعتقدون أن العامل هو انسان المستقبل في روسيا . ويؤكد تطور الرأسمالية ، في الزراعة كما في الصناعة ، نظرتهم أكثر فأكثر . وقد أجبرت الحركة العمالية الروسية ذاتها الناس على الاعتراف بها . أما ما يخص الحركة الفلاحية ، فالهوة بين الشعبية والماركسية ما زالت قائمة حتى الآن من حيث فهمها المختلف لهذه الحركة . الحركة الفلاحية ، في رأي الشعبيين ، هي ، على وجه الدقة ، حركة في صالح الانقلاب الاشتراكي المباشر ؛ فهي

لا تعترف بأي حركة سياسية برجوازية ! إنها تنطلق ، على وجه التحديد ، من الاقتصاد الصغير لا من الاقتصاد الكبير . وبكلمة مختصرة ، الحركة الفلاحية ، بالنسبة للشعبي ، هي الحركة الاشتراكية الحقيقية ، الاشتراكية فعلاً ، الاشتراكية صراحة . ويفسر الايمان الشعبي بالمشاعة الفلاحية وبالفوضوية الشعبية تفسيراً كاملاً هذه النتائج .

أما الحركة الفلاحية ، في رأي الماركسي ، فحركة ديمقراطية ، على وجه الدقة ، وليست حركة اشتراكية ، تقترن في روسيا ، بالضرورة ، كما اقترنت في البلدان الأخرى ، بالثورة الديمقراطية البرجوازية بمحتواها الاقتصادي الاجتماعي . إنها لا تتجه مطلقاً ضد أسس النظام البرجوازي ، ضد اقتصاد السلعة ، ضد رأس المال ، بل تتجه ، على العكس ، ضد العلائق القديمة ، الاقطاعية ، ما قبل الرأسمالية في القرية ، وضد الملكية الاقطاعية للأرض ، باعتبارها السند الرئيسي لمختلف بقايا الاقطاعية . لذلك ، فإن انتصاراً تاماً لحركة فلاحية ما لن يبعد الرأسمالية ، بل يخلق أرضية أوسع لتطورها ، ويسرع في التطور الرأسمالي الخالص ويصعده . إن ما يستطيع انتصار تام لانتفاضة فلاحية أن يفعله هو اقامة حصن لجمهورية برجوازية ديمقراطية ، يتطور فيها ، لأول مرة ، صراع البروليتاريا ضد البرجوازية بكل نقائه .

هاتان هما النظرتان المتعارضتان ، اللتان يتوجب فهمهما على كل من يرغب تبين الهوة المبدئية القائمة بين الاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الديمقراطيين . . .

طبع في ٧/ت٢/١٩٠٥
ج ١٢ ، ٤٠ - ٤٢

من مقال

« بليخانوف وفاسيليوف »

... فاسيليوف منشفيكي بارز عمل مع المناشفة . ولم يعمل مع مناشفة نكرات في بقعة نائية منسية ، بل عمل مع أبرزهم ممن يحملون أكبر المسؤوليات. لذلك لا يحق للمناشفة أن ينظروا إليه نظرة عدم اكتراث واستهانة.

ويستشهد فاسيليوف هذا ببليخانوف مباشرة ، لابل يعتمد عليه صراحة ، فيسمي الاقتراح الذي نشره بليخانوف في صحافة الكاديت (وهو الاقتراح الذي يعيب الحزب الاشتراكي الديمقراطي) ، ودعا فيه الى ايجاد برنامج مشترك مع الكاديت « استجابة شجاعة » ويأسف لأنه « لا يوجد في الأحزاب الأخرى أمثال بليخانوف » .

ما عند فاسيليوف من الغيرة كثير ، أما ما عنده من الذكاء فقليل . أراد أن يمدح بليخانوف فلم يجد ما يقوله في مدحه سوى « أنه لا يوجد في الأحزاب الأخرى مع الأسف « بليخانوفيون» . هذا رائع جداً ! يا لفاسيليوف الطيب ! لقد كان المبادر الى استعمال كلمة بليخانوف في الجمع دلالة على اسم عام ، بمعنى السياسين الذين يعملون بمفردهم وبشكل مستقل عن أحزابهم . وعلى الأرجح سيقول الناس منذ الآن : بليخانو في بالمعنى **الفاسيليوفي** لهذه الكلمة » . . .

ان أمثال فاسيليوف يضعون النقاط على الحروف وهم يربتون على كتف أمثال بليخانوف . لقد تحدث واضعو « الكريدو (٤٥) » عام ١٨٩٩ ، وهم

السادة من أمثال بروكوبوفيتش وشركاه ، عن حركة عمالية صرف بدون بروليتاريا ثورية . ويتحدث أمثال فاسيليوف الآن عن ثورة يتوجب عليها أن تلد « الدستور » ، تلده وحسب ، دون أي مولدين ، دون ثوار . غياب المولدين ، غياب الثوار ، غياب الشعب الثوري ـ هذا هو شعار فاسيليوف .

لقد هزىء شيدرين في زمانه من فرنسا التي أعدمت ثوار الكومونة ، فرنسا المصرفيين الزاحفين على بطونهم تذللاً أمام الطغاة الروس ، من فرنسا ، جمهورية بدون جمهوريين (٤٦) . لقد آن الأوان ليولد شيدرين جديد يسخر من فاسيليوف والمناشفة الذين يدافعون عن الثورة بشعار « غياب » الثوار ، « غياب » الثورة . . .

طبع في ٧/ ك٢ ١٩٠٧
ج ١٤ ص ٢٣٧

* * *

من مقال

« عندما تسمع حكم الغبي ... »

... مأســاة الراديكالي الروسي أنه ظل عشرات السنين يتعطش الى الاجتماعات العامة والى الحرية ، ويلتهب شوقاً محموماً (بالكلام) الى الحزبية ، ثم وجد نفسه في الاجتماع العام ورأى أن المزاج هنا اكثر يسارية من مزاجه فحزن وقال : « من العسير أن نحكم .. » ، « لا أكثر من العشر » ، « كان يجب أن تكونوا اكثر حذراً ايها السادة ! » ، تماماً كبطل تورغنيف المندفع الذي هرب من آسيا ـ والذي كتب عنه تشرنيشفسكي مقالته « الانسان الروسي على موعد(*) « Rendez - vous »[٤٧].

آه منكم ، أنتم الذين تدعون أنكم من انصار الجماهير الكادحة ! من أين لكم أن تضربوا موعداً مع الثورة . هلاّ قبعتم في بيوتكم ، فهذا أبعث على الطمأنينة ، لأنه لن تسنح لكم الفرصة لأن تتعاملوا مع هؤلاء الناس الخطرين « الأكثر منكم حيوية ونشاطاً وحركة » ! لن تكونوا إلا أناساً تافهين لا حياة فيكم ...

طبع في كانون ثاني ١٩٠٧

ج ١٤ ص ٢٨٠

(*) بالافرنسية في الأصل .

من أي زاوية انتقد ن. غ. تشرنيشفسكي الكنطية

إضافة الى المقطع الأول من الفصل الرابع من كتاب

« المادية والتجريبية الانتقادية »

أظهرنا بالتفصيل في المقطع الأول من الفصل الرابع ، أن الماديين انتقدوا كنط وينتقدونه من زاوية تتناقض تماماً والزاوية التي ينتقده منها ماخ وأفيناريوس. وليس من نافل القول ، كما نعتقد ، أن نشير هنا الى الموقف المعرفي الذي اتخذه الهيغلي والمادي الروسي العظيم ن. غ. تشرنيشفسكي .

بعد فترة قصيرة من نقد ألبرخت راو لكنط (وراو أحد تلامذة فيورباخ الألمانيين) حاول الكاتب الروسي العظيم ن.غ. تشرنيشفسكي (وهو ايضاً من تلامذة فيورباخ) أن يعرض موقفه مباشرة من فيورباخ وكنط معاً . فقد بدأ ن. غ. تشرنيشفسكي يدخل ميدان الأدب الروسي في الخمسينات من القرن الماضي نصيراً لفيورباخ . لكن رقابتنا لم تسمح له بمجرد ذكر اسم فيورباخ .

وقد حاول ن. غ. تشرنيشفسكي عام ١٨٨٨ أن يشير بصراحة الى فيورباخ في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه « علاقات الفن الجمالية بالواقع » الذي كان يعد للنشر ، لكن الرقابة لم تسمح له هذا العام ايضاً حتى بمجرد الاستشهاد بفيورباخ. ولم تنشر المقدمة إلا في عام ١٩٠٦ ، وفيها يكرس ن.غ. تشرنيشفسكي نصف صفحة لنقد كنط والمجربين الطبيعيين الذي يسيرون باستنتاجاتهم الفلسفية وراء كنط .

اليكم هذه المحاكمة الرائعة من ن. غ. تشرنيشفسكي عام ١٨٨٨ :

« أولئك الطبيعيون الذين يتوهمون أنفسهم بناة نظريات شاملة ، ليسوا في الواقع إلا تلامذة ، وتلامذة ضعافاً على وجه العموم ، لمفكرين أقدمين أنشأوا نظماً ميتافيزيكية ، ولمفكرين قوّض شيلينغ جزئياً ، وهيغل نهائياً نظمهم . ويكفي أن نذكر أن غالبية المفكرين الذين يحاولون أن يبنوا نظريات واسعة عن قوانين نشاط الفكر الانساني يكررون نظرية كنط الميتافيزيكية عن ذاتية معرفتنا » ... (نقول ، وهذا لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل : إن تشرنيشفسكي يتأخر عن انغلز من حيث أنه يخلط في تعابيره بين معارضة المادية بالمثالية، وبين معارضة التفكير الميتافيزيكي بالتفكير الديالكتيكي، لكن تشرنيشفسكي يقف في مستوى واحد مع انغلز حين يأخذ على كنط لا واقعيته ، بل لا أدريته وذاتيته ، لا تسليمه بوجود « الشيء في ذاته » ، بل عدم قدرته على أن يستخلص معرفتنا من هذا المصدر الموضوعي) ... « ويقولون، نقلاً عن كنط ، إن أشكال ادراكنا الحسي لا تشبه أشكال الوجود الواقعي للأشياء » ،... (نقول ، وهذا لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل ، ان نقد تشرنيشفسكي لكنط ، ونقد افيناريوس وماخ وأصحاب نظرية التداخل له ، هما على طرفي نقيض ، لأن أشكال الادراك الحسي ، بالنسبة لتشرنيشفسكي ولأي مادي آخر ، تشبه أشكال الوجود الواقعي أي الموضوعي للأشياء) ... « ولهذا فان الأشياء الموجودة فعلاً ، وصفاتها الفعلية ، والعلائق الفعلية فيما بينها ، غير قابلة للمعرفة بالنسبة لنا » ... (نقول ، وهذا ايضاً لحساب الماخيين الروس الذين يخلطون الحابل بالنابل ، ان الاشياء أي « الاشياء في ذاتها» (بلغة كنط المزوّقة) ، توجد واقعياً في رأي تشرنيشفسكي أو اي مادي آخر، ويمكن معرفتها تماماً ، كما يمكن معرفتها في وجودها ، وفي صفاتها ، وفي علائقها الواقعية) ... ولو أنها (الاشياء) كانت قابلة لأن تُعرف ، لما أمكنها أن تكون موضوع تفكيرنا الذي يضع المعارف كلها في أشكال تختلف تماماً عن

اشكال وجودها الواقعي ، وانه حتى قوانين التفكير نفسها ليس لها إلا قيمة ذاتية فقط »،... (نقول، وهذا لحساب الماخيين المضللين: ليس لقوانين التفكير، بالنسبة لتشرنيشفسكي كما لأي مادي آخر ، قيمة ذاتية ، قيمة ذاتية فقط ، أي ان قوانين الفكر تعكس اشكال الوجود الواقعي للأشياء ، وتتشابه تماماً مع هذه الاشكال ولا تختلف عنها) . . . « وأنه لا يوجد في الواقع ما يمثل علاقة سبب بفعل ، لانه لا يوجد ما هو سابق أو ما هو لاحق ، لا يوجد كل ولا أجزاء الخ الخ الخ » . . . (ولمعلومات الماخيين المضللين نقول : أن ما يبدو لنا علاقة سبب بفعل هو ، بالنسبة لتشرنيشفسكي كما لاي مادي آخر ، سببية موضوعية او ضرورة تفرضها الطبيعة) . . « وعندما يكف الطبيعيون عن التفوه بهذا الهراء الميتافيزيكي أو بما يشبهه ، يصبحون أهلاً لأن ينشئوا وسينشئون على الأرجح ، وعلى أساس العلوم الطبيعية، مفاهيم أدق وأكمل من تلك التي عرضها فيورباخ..» (ولمعلومات الماخيين المضللين نقول ان تشرنيشفسكي يسمي أي تراجع عن المادية ، الى جهة المثالية والى جهة اللاأدرية على حد سواء ، هراء ميتافيزيكياً) .. « ويبقى عرض فيورباخ للمفاهيم العلمية عما يسمى بالمسائل الأساسية المتعلقة بحب المعرفة في الانسان أفضل عرض حتى الآن » . ان ما يسميه تشرنيشفسكي بحب المعرفة في الانسان هو ما نسميه بلغتنا المعاصرة المسائل الأساسية في نظرية المعرفة . فتشرنيشفسكي هو الكاتب الروسي الوحيد ، العظيم فعلاً ، الذي استطاع منذ الخمسينات وحتى عام ١٨٨٨ ، أن يظل في مستوى المادية الفلسفية المتكاملة وأن ينبذ الهراء السخيف للكنطيين الجدد والوضعيين والماخيين وسواهم من المضللين . لكنه لم يرق ، أو قل لم يستطع أن يرقى ، الى مستوى مادية ماركس وانغلز التاريخية بحكم تأخر الحياة الروسية .

آذار عام ١٩٠٩

ج ١٨ ص ٣٨١ – ٣٨٤

الدفاتر الفلسفية

من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »

ممتع الرد على ناقد (فيورباخ) الاستاذ فون شاون وشالير

ملاحظة « الوجود والطبيعة » « التفكير والانسان »	... « فأنا أضع ، بكل تحديد ، الطبيعة مكان الوجود، والانسان مكان التفكير » أي لا أضع المجرد بل المشخص — النفسية الدراماتيكية (*)

إن عبارة فيورباخ وتشرنيشفسكي « المبدأ الانساني (الانتروبولوجي) » في الفلسفة ضيقة لهذا السبب . وما المبدأ الانساني هذا والطبيعة إلا وصفان ضعيفان وغير دقيقين للمادية .

حوالي عام ١٩٠٩   ج ٢٩ ص ٦٣ - ٦٤

(*) die dramatische psychologie ـ هكذا وردت بالالمانية في النص الاصلي

من مقال

« في سبيل أي شيء نناضل ؟ »

... حركة كانون الأول عام ١٩٠٥ عظيمة لأنها حولت ، لأول مرة ، « أمة ذليلة ، أمة عبيد » (كما كان يقول تشرنيشفسكي في أوائل الستينات) إلى أمة قادرة أن تخوض بقيادة البروليتاويا الصراع حتى النهاية ضد الحكم الاستبدادي الكريه وأن تجذب الجماهير إلى هذا الصراع. هذه الحركة عظيمة ، لأن البروليتاريا أظهرت ، بالتجربة ، امكانية استيلاء الجماهير الديمقراطية على السلطة ، امكانيـة قيام الجمهورية في روسيا ، أظهرت « كيف يُصْنع هذا » ، اظهرت إقدام الجماهير على تحقيق هذه المهمة تحقيقاً مشخصاً . لقـد خلفت البروليتاريا للشعب بنضالهـا في كانون الأول تراثاً يمكنه أن يصبح ، فكرياً وسياسياً ، هادياً لعمل أجيال متعددة .

٢٣ آذار ١٩١٠

ج ١٩ ، ص ٢١٤ – ٢١٥

ملاحظات على كتاب بليخانوف

« ن . غ . تشرنيشفسكي »(٤٨)

[٧٦] حضر تشرنيشفسكي ولادة نموذج جديد « من الناس الجدد » عندنا . وقد ابرزهذا النموذج في شخص راخميتوف . **لقدرحب كاتبنا بظهور هذا النموذج الجديدولم يستطع أن يحرم نفسه متعة رسم صورة ولو غير واضحة له** . وقداستشف بحزن ، في الوقت نفسه ، الآلام والعذابات الكثيرةالتي سيكون على الثوري الروسي أن يعانيها ، هذا الثوري الذي يجب أن تكون حياته نضالاً قاسياً ، ونكران ذات شاقاً . وها هو ذا تشرنيشفسكي يرينا في راخميتوف زاهداً حقيقياً . فراخميتوف يعذب نفسه قطعاً ...

– الثوري في « سوسيال ديمقراط » رقم ١ ص ١٧٣

[١٩٩] إن موقف تشرنيشفسكي من هذه النظرية (*) عامة في غاية السلبية . وهو لا ينفك يعتبر نفسه مادياً متماسكاً على الرغم من أنه ينظر إلى مجرى التطور التاريخي نظرة مثالية . وهو مخطىء . وجذور خطأه تكمن في أحد اكبر مثالب نظام فيورباخ المادي . فقد لاحظ ماركس ملاحظة جيدة جداً وهي : « أن فيورباخ يريد أن يتعامل مع اشياء مشخصة متميزة ، فعلاً ، عن

(*) المثالية (الناشر)

الاشياء الموجودة في افكارنا فقط ، لكنه لايتوصل إلى النظر إلى النشاط الانساني ، بوصفه نشاطاً مادياً . ولهذا بالضبط يعتبر في كتابه « ماهية المسيحية » النشاط النظري وحده النشاط الإنساني الحق (*)... ويركز تشرنيشفسكي أيضاً كمعلمه ، اهتمامه على النشاط « النظري » للانسان تركيزاً يكاد يكون كلياً ، مما يجعل التطور العقلي ، في نظره ، اعمق اسباب الحركة التاريخية ...

وهذا هو أيضاً عيب كتاب بليخانوف عن تشرنيشفسكي

[٢٠٥] ينتج من كتابات تشرنيشفسكي أن الرذيلة ، في التاريخ، تستدعي دومـاً العقاب الذي تستحقه . والوقائع التاريخية المعروفة لا تقدم لنا ، بالفعل ، أي أساس لهذه النظرة التي قد تسر، لكنها تبقى ساذجة على أي حال . ولكن ما يهمنا هنا سؤال واحد فقط : كيف كان لهذه النظرة أن تنشأعندكاتبنا؟ وللاجابة على هذا السؤال ، يمكن الإشارة إلى الفترة التيعاشها تشرنيشفسكي . فقد كانت فترة صعود اجتماعي يمكن القول عنها إنها استدعت هذه النظرة الأخلاقية لتوطيد الإيمان بقهر الشر حتماً ...

[٢٤٢-٢٤٣] « عندما ندخل مجتمعاً ما نرى حولنا اناساً عليهم سترات أواثواب رسمية أو غير رسمية ، طولهم خمس أو ست أقدام أو اكثر من ذلك ، يرسلون شعورهم على خدودهم أو شفتهم العليا أو ذقونهم أو يحلقونها ، نتخيل أن أمامنا رجالاً . هذا خطأ تام ، خداع بصر ، هلوسة لا اكثر . بدون التعوّد على المشاركة

(*) انظر موضوعاته عن فيورباخ ، وقد كتبت ربيع ١٨٤٥

الذاتية في القضايا العامة ، وبدون امتلاك شعور المواطنة ينسو الطفل ويبقى كائناً ذكراً، ثم يصبح في منتصف العمر ثم كهلاً، لكنه لن يصبح رجلاً، أو على الأقل لن يصبح رجلاً ذا خلق كريم ». إن نقص الرجولة الشريفة في المثقفين وذوي الصفات الإنسانية اكثر بروزاً للعيان منه في الجهلة ، لأن المثقف وذا الصفات الانسانية يحب التحدث في المسائل الهامة . انه يظل يتكلم فيها باندفاع وبلاغة ، حتى يبدأ الانتقال من الكلام إلى الافعال. « مادام لم يحن وقت الافعال وما دام الأمر لا يتعدى تزجية أوقات الفراغ ، أو ملء الرؤوس أو القلوب الكسولة بأحاديث وأحلام ، فبطلنا جريء جداً. ولكن ما ان يتطلب الأمر التعبير بصراحة ودقة عن أفكاره حتى ترى قسماً كبيراً من ابطالنا يبدؤون بالتردد ، ويشعرون بتثاقل في لسانهم . وقلة منهم ، وهي أشجعهم ، تستطيع أن تستجمع افكارها بشكل أو بآخر ، وتعبر لك بلسان متلعثم تعبيراً غائماً عن افكارها : ولكن فليفكر أحدكم أن يأخذ برغبة هذه الفئة من ابطالنا ويقول لهم : إنكم تريدون كذا وكذا ، ونحن مسرورون جداً من ذلك ، باشروا العمل ونحن نساندكم . سيغمى على نصف أشجع الابطال هؤلاء لدى سماعهم هذا الرد، وسيأخذ الباقون بلومك بغلاظة لأنك وضعتهم في موقف حرج، ولأنهم لم يكونوا ينتظرون منك مثل هذه الاقتراحات، وأنهم يفقدون صوابهم نهائياً ، ولا يستطيعون أن يفكروا في شيء على الاطلاق، فهل من المعقول أن يتم الأمر بمثل هذه السرعة؟

ثم إنهم شرفاء ، ومسالمون علاوة على ذلك ، ولا يريدون أن يعرضوك للأذى . وهل من المعقول أن يهتم المرء بكل ما كان يتحدث عنه قتلاً للوقت ، وأن أفضل شيء

وصف دقيق موغاضب لليبرالية الروسية

هو ألا يباشر المرء أي عمل لأنه لا يجلب الا وجع الرأس والمضايقات ولا يُنتظر منه أي نتيجة حسنة لأنهم ، كما قالوا سابقاً ، لم يكونوا ينتظرون ولم .. الخ الخ ..» .

يمكن القول إن هذه الصورة قد رسمتها يد فنان . لكن الفنان الذي رسمها ليس ناقداً ؛ بل كاتباً اجتماعياً ..

[٣٣٠] «العوام» يقرؤون الصحف ولايهتمون بالقضايا السياسية ولا يؤثرون في مجراها . وستبقى الحال على ما هي عليه الآن ، ما دام وعيهم يغطّ في سبات عميق . ولكن عندما يستيقظ وعيهم بتأثير الفصيلة الأمامية للجيش التاريخي العامل المكونة

ملاحظة

من «أفضل الناس» الذين تمثلوا نتائج العلم الحديث، **سيفهمون عندئذٍ أن مهمتهم هي اعادة بناء المجتمع بناءً جذرياً وسيقبلون على هذا العمل الذي ليس له أي علاقة مباشرة** بمسائل اشكال التنظيم السياسي . هذه هي نظرة تشرنيشفسكي السائدة في معظم كتاباته السياسية . وإذا كانت هذه النظرة المثالية في جوهرها إلى السياسة تخلي المكان احياناً لنظرة أخرى تبدو وكأنها **نواة فهم مادي** ، فليس هذا إلا استثناء يشبه تماماً ما صادفناه لدى دراستنا لنظرات تشرنيشفسكي التاريخية . ويذكر القارىء أن في هذه النظرات، المثالية في جوهرها، بذور نظرة مادية إلى التاريخ أيضاً . ولنوضح الآن بمثالين الطابع

الذي كان يجب أن تتخذه كتـابات تشرنيشفسكي السياسية بتأثير النظرة السائدة عنده إلى علاقة السياسة بالمهـام الأساسية **للطبقة العاملة** | ؟ |

إن بليخانوف، بتمييزه **النظري** بين النظرتين المثالية والمادية إلى التاريـخ ، **اغفل** الفرق السياسي العملي **والطبقي** بـين الليبرالي والديمقراطي .

كتب ما بين تشرين أول ١٩٠٩
ونيسان ١٩١١
ج ٢٩،صفحات ٥٤٠ - ٥٤٢،
٥٥٠ ، ٥٥٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٩ - ٥٦٠

★ ★ ★

من مقال

« تصفويونا »

عن السيدين بوتريسوف و ف . بازاروف[٤٩]

... صلة التصفوية بالمزاج العام الضيق الأفق « للتعبين » ظاهرة للعيان. « فالتعبون » لا يهتمون باعداد جواب دقيق يكون تقييماً اقتصادياً وسياسياً للفترة الراهنة : فهم لا يعترفون دائماً بالتقييم المعطى سابقاً والمعترف به رسمياً تقييماً باسم المجموع ، ولكنهم ، بالمقابل ، يخافون دائماً حتى مجرد التفكير في أن يقدموا تقييمهم الدقيق ، حتى ولو كان هذا التقييم تقييم محرري « ناشا زاريا » و « جيزن »[٥٠] التصفويتين الخ .. ويؤكد « التعبون » : لم يعد للقديم وجود ،القديم غير قابل للحياة ، القديم مات الخ .. لكنهم لا ينوون أن يكلفوا أنفسهم عناء الرد رداً سياسياً خالصاً ، رداً مصاغاً بدقة على سؤال إلزامي (لأي كاتب اجتماعي شريف) وهو : ماذا يجب علينا بالضبط أن نحل محل القديم ، هل علينا أن نعتبر ما ليس عرضة للتصفية و كأنه قد صفي (حسب رأي بوتريسوف) . لقد ظلوا يشتمون القديم ويذمونه منذ ثلاث سنوات ، وخصوصاً من على خشبات مسارح مُنع دخول المدافعين عن القديم اليها ، ثم يتعانقون بحنان مع امثال ايزغوييف(*) ويهتفون : يا لها من سخافات. ويا له من وهم الحديث عن التصفوية !

(*) انظر مقاله في « روسكاياميسل » عام ١٩١٠ عن بوتريسوف . ولن يتطهر السيد بوتريسوف أبداً من آثار عناقه .

لا يمكننا أن نردد بشأن السيد بوتريسوف وشركاه الأبيات الشهيرة :

« إنهم لم يخونوا ، بل تعبوا من حمل صليبهم ؛ تخلى عنهم روح الغضب والحزن في منتصف الطريق »[٥١].

إن أمثال هؤلاء « التعبين » الذين يظهرون على منصة الكتاب الاجتماعيين ويبررون منها « تعبهم » من القديم ، وعدم رغبتهم في العمل على اصلاحه ليسوا ، بالضبط ، أناساً تعبين فقط ، بل خونة .

كانون ثاني ١٩١١

ج ٢٠ ، ص ١٢٣ – ١٢٤

★ ★ ★

«الاصلاح الزراعي» و«الثورة البروليتارية الفلاحية»

وأخيراً أقيمت الذكرى السنوية التي طالما تخوف منها حكم آل رومانوف وذاب شوقاً اليها الليبراليون الروس ، الطيبو القلب حتى البلادة . وقد أحيت الحكومة القيصرية الذكرى بأن روجت بين الشعب ، بقوة ، كراريس للمائة السود اصدرها « النادي الوطني » ، مكرسة لهذه الذكرى ، وزادت من توقيف « المشتبه بهم » جميعاً ، ومنعت الاجتماعات حيث كان من الممكن أن نتوقع خطباً فيها شيء ولو يسير من الديمقراطية ، وفرضت غرامات على الصحف وخنقتها ، ولاحقت دور السينما « المشاغبة » ...

وأحيا الليبراليون الذكرى بأن ذرفوا من جديد دمعة على ضرورة « تاسع عشر من شباط » جديد (فيسنك اوروبا) وعبروا عن اخلاصهم (كانت صورة القيصر على الصفحة الاولى من « ريتش ») ، ثم تحدثوا عن انقباض قلوبهم كمواطنين ، عن عدم استقرار « الدستور » الوطني ، وعن « تحطم » سياسة ستولوبين الزراعية ، هذا التحطم « المهلك » للمبادىء الزراعية الأصيلة » الخ الخ . .

وأعلن نيقولا الثاني في مرسوم ملكي وجهه الى ستولوبين أن سياسة ستولوبين الزراعية ، أي نهب حفنة المستثمرين والكولاك والفلاحين الأغنياء أرض الفلاح الفقير ، ووضع القرية تحت تصرف الاقطاعيين انصار نظام القنانة ، تعتبر تتويجاً « للاصلاح العظيم » الذي تم في التاسع عشر من شباط عام ١٨٦١ .

وعلينا ان نقر أن نقولا الدموي ، وهو أول اقطاعي في روسيا ، اقرب الى الحقيقة التاريخية من ليبراليينا الطيبي القلب . فقد فهم الاقطاعي الاول وأهم

نصير القنانة ، أو الأحرى تعلـّم من دروس مجلس النبلاء الموحد ، حقيقة الصراع الطبقي القائلة ان « اصلاحات » ، يقوم بها أنصار القنانة ، لايمكن الا أن تكون ذات صفة اقطاعيـة من حيث مضمونها ، ولا يمكن الا ان تـُقـْرَن بنظام من مختلف اشكال القهر . ان الـكاديت عندنا ، وليبراليينا بوجه عام ، يخافون حركة الجماهير الثورية ، الكفيـلة وحدها بمحو الاقطاعيين وسلطتهم المطلقـة في الدولة الروسيةمن على وجه الارض . وهذا الخوف بالذات يمنعهم من فهم حقيقة أنه ما لم يسقط الاقطاعيون ، فان اي اصلاحات – وعلى الأخص الاصلاحات الزراعية – لا يمكن ان تكون الا بشكل اقطاعي ، وذات طابع وطريقة اجراء اقطاعيين. أما ان نخاف الثورة ونحلم بالاصلاح ، ثم نتباكى على ان « الاصلاحات » تتم بالفعل من قبل الاقطاعيين ، وعلى الطريقة الاقطاعية ، فهذا منتهى السفالة وقلة العقل . لقد كان نيقولا الثاني على قدر اكبر من الحق ، وقد علـّم الشعب الروسي ، بطريقة أفضل ، التبصر في اموره ، حين « عرض » ، بكل وضوح ، الاختيـار بين « اصلاحات » يجريها الاقطاعيون أو ثورة شعبية تسـْقط الاقطاعيين .

لقـد تم في التاسع عشر من شـبـاط ١٨٦١ اصلاح زراعي ، يستطيـع ليبراليـّونا أن يصبغوه ويصوروه على أنه اصلاح « سـلمي » لسبب واحد فقط ، هو أن الحركة الثورية في روسيا كانت ضعيفة ضعفاً متناهياً آنذاك ، ولـمّا يكن بين الطبقات المظلومة طبقة ثورية . ان مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ ، وقانون ١٤ حزيران عام ١٩١٠[٥٢] ، إصلاحان لهما محتوى برجوازي كاصلاح عام ٦١ . إلا أن الليبراليين لا يستطيعون ان يصوروهما إصلاحاً « سلمياً » ، ولا أن يبدأوا بتزيينها وصبغها بمثل تلك السهولة (مع أنهم قد بدأوا ذلك في « روسكايا ميسل » مثلاً) ، لأنه من الممكن نسيان ثوار عـام ١٨٦١ ، الذين كانوا افراداً قلائل ، أما نسيان ثورة عام ١٩٠٥ فأمر غير ممكن . لقد ولدت في عـام ١٩٠٥ طبقة ثورية في روسيا ، هي البروليتاريا ، استطاعت أن تستنهض الجماهير الفلاحية

الى العمل الثوري . وعندما تولد طبقة ثورية في بلدٍ ما ، لا يمكن سحقها بأي ملاحقات . انها تستطيع ان تهلك بهلاك الأمة كلها فقط ، انها لا تستطيع أن تموت إلا بعد ان تنتصر .

* * *

ولنتذكر السمات الأساسية للاصلاح الزراعي عام ٦١ . كان التحرير « الشهير » نهباً للفلاحين كأشد ما يكون النهب وقاحة ، ومجموعة من أعمال العنف وإهانة مستمرة لهم . لقد اقتُطع من أراضي الفلاحين في المقاطعات ذات التربة السوداء ، بمناسبة هذا « التحرير » ، اكثر من الخمس ، لا بل ما يقارب الخُمْسين . وبمناسبة « التحرير » حددت اراضي الفلاحين ، وفصلت عن أراضي الاقطاعيين بشكل انتقل معها الفلاحون الى « الاراضي الرملية » ، بينما تداخلت فيها أراضي الاقطاعيين ، كالنصل ، ليسهل على النبلاء الشرفاء أن يستعبدوا الفلاحين ويؤجروهم الأرض بأسعار الربا الفاحش . وبمناسبة « التحرير » أجبر الفلاحون على « التعويض » عن أراضيهم وأُخذ منهم ، فوق ذلك ، ثمنها في حدود ضعفي ثمن الارض الفعلي أو ثلاثة اضعافه . لقد أبقى عهد « اصلاحات » عام ١٨٦١ كله الفلاح فقيراً ، مسحوقاً ، جاهلاً وخاضعاً للاقطاعيين في القضاء والادارة والمدرسة والزيمستفا على حد سواء .

كان « الاصلاح العظيم » اصلاحاً اقطاعياً ، ولم يكن بوسعه إلا أن يكون كذلك ، لأن من قام به هم الاقطاعيون . فما هي القوة التي اجبرتهم على الإقدام على الاصلاح ؟ إنها قوة التطور الاقتصادي ، وقد جرّت روسيا الى طريق الرأسمالية ، إذ لم يكن بوسع الاقطاعيين ان يمنعوا تبادل السلع بين روسيا واوروبا ، ولم يكن بوسعهم الحفاظ على أشكال الاقتصاد القديمة المنهارة . لقد أظهرت حرب القرم تعفّن روسيا الاقطاعية وعجزها ، واجبرت « حوادث

العصيان » الفلاحي ، التي كانت تزداد مع كل عقد قبل التحرير الاقطاعي الأول ، اسكندر الثاني على الاعتراف بأن التحرير من فوق أفضل من انتظار الاسقاط من تحت .

كان « الاصلاح الزراعي » اصلاحاً برجوازياً أقام به الاقطاعيون، وخطوة في تحويل روسيا الى ملكية برجوازية . كان محتواه برجوازياً ، وبقدر ما كان يقل اقتطاع اراضي الفلاحين ، ويكتمل تحديدها بالنسبة لأراضي الاقطاعيين ، وتهبط قيمة التعويض على الاقطاعيين ، وبقدر ما كان فلاحو هذه المنطقة أو تلك ينظمون أمورهم بعيداً عن تأثير الاقطاعيين وضغوطهم، كان هذا المحتوى البرجوازي يزداد وضوحاً وبروزاً ، إذ كان الفلاح يقع تحت سيطرة المال في ظروف الانتاج السلعي ، ويخضع بالتالي لسيطرة رأس المال الناشيء ، بقدر ما كان يتخلص من سيطرة الاقطاعي . وقد كان تطور الرأسمالية في روسيا ، بعد عام ١٨٦١ ، من السرعة ، بحيث تمت خلال عدة عقود تحولات اقتضت قروناً كاملة في بعض بلدان أوروبا .

كان الصراع الشهير بين الاقطاعيين والليبراليين ، الذي كثيراً ما ضخمه مؤرخونا الليبراليون والليبراليون الشعبيون وزينّوه ، صراعاً داخل الطبقات المسيطرة ، وكان القسم الأعظم من هذا الصراع داخل طبقة الاقطاعيين . كان صراعاً يتعلق ، حصراً ، بشكل التنازلات وبمقدارها . وكان الليبراليون ، كالإقطاعيين تماماً ، الى جانب الاعتراف بملكية الاقطاعيين وسلطتهم ، يدينون بسخط أية أفكار ثورية تتعلق بالقضاء على هذه الملكية ، وباسقاط هذه السلطة اسقاطاً كاملاً .

ولم يكن لهذه الأفكار الثورية إلا ان تدور في رؤوس الفلاحين الأقنان. واذا كانت قرون من العبودية قد سحقت الجماهير الفلاحية وأوهنتها ، حتى انها لم

تكن قادرة في عهد الاصلاح على شيء ، إلا على انتفاضات متفرقة قليلة ، أو حتى على « أعمال عصيان » لا ينيرها أي وعي سياسي ، فقد كان في روسيا ، وحتى في ذلك الوقت ، ثوريون وقفوا الى جانب الفلاحين وفهموا الطابع الاقطاعي لهذا الإصلاح ، وكل ما فيه من ضيق أفق ومن بشاعة . وعلى رأس هؤلاء الثوار القليلين جداً آنذاك كان ن. غ. تشرنيشفسكي .

التاسع عشر من شباط عام ١٨٦١ يمثل بداية روسيا جديدة،برجوازية نمت من عهد الاقطاع . ويمثل ليبراليو العقد السابع من القرن التاسع عشر وتشرنيشفسكي اتجاهين تاريخيين ، قوتين تاريخيتين تحددان ، منذ ذلك الوقت وحتى أيامنا هذه ، نتيجة النضال من أجل روسيا جديدة . ولهذا السبب يتوجب على البروليتاريا في الذكرى الخمسين للتاسع عشر من شباط ان تدرك ،بأقصى مايمكن من الوضوح ، ماهية هذين الاتجاهين والعلاقة المتبادلة بينهما .

كان الليبراليون يريدون تحرير روسيا « من فوق » ، دون المساس بالقيصرية او بملكية الاقطاعيين للأرض او بسلطتهم ، بل بحثهم على القيام « بتنازلات » تتفق وروح العصر . لقد كان الليبراليون ، وظلوا ايديولوجيي البرجوازية التي لا تستطيع ان تسالم الاقطاعية ، لكنها تخاف الثورة ، تخاف حركة الجماهير القادرة على اسقاط القيصرية والقضاء على سلطة الاقطاعيين . ولهذا السبب يكتفي الليبراليون « بالنضال من اجل الاصلاح » ، « بالنضال من اجل الحقوق » أي باقتسام السلطة بين الاقطاعيين والبرجوازية . ولا يمكن ، في مثل توازن القوى هذا ، ان نحصل من « الاصلاحات » الا على تلك التي يقوم بها الاقطاعيون ، ومن « الحقوق » الا على تلك التي يحددها تعسف الاقطاعيين .

كان تشرنيشفسكي اشتراكياً طوباوياً ، يحلم بالانتقال إلى الاشتراكية من خلال المشاعة الفلاحية القديمة النصف اقطاعية . فلم يرَ ، ولم يكن في وسعه أن

يرى في الستينات من القرن الماضي ، أن تطور الرأسمالية والبروليتاريا هو القادر وحده على خلق الشروط المادية والقوة الاجتماعية لتحقيق الاشتراكية . لكن تشرنيشفسكي لم يكن اشتراكياً طوباوياً وحسب ، بل ديمقراطياً ثورياً ايضاً ، عرف كيف يؤثر في احداث عصره السياسية كلها بروح ثورية ، باثاً فكرة الثورة الفلاحية ، فكرة نضال الجماهير في سبيل اسقاط مختلف اشكال السلطة القديمة ،على الرغم من تضييقات الرقابة وعراقيلها . فقد نعت بالسفالة إصلاح عام ٦١ الذي الذي زينه الليبراليون في البدء ثم مجدوه فيما بعد ، لأنه رأى بوضوح طابعه الاقطاعي ، ورأى بوضوح ايضاً السادة الليبراليين المحررين ، وهم ينهبون الفلاحين نهباً كاملاً . لقد دعا تشرنيشفسكي ليبراليي الستينات « ثرثارين متبجحين وأغبياء »[٥٣] لأنه كان يرى بوضوح خوفهم من الثورة، وضعف إرادتهم وتزلفهم لأصحاب السلطة .

وقد تطور هذان الاتجاهان التاريخيان خلال الخمسين عاماً التي انقضت على التاسع عشر من شباط ، وازداد تباعدهما خلال ذلك حدة ووضوحاً وتحديداً . فقد نمت قوى البرجوازية الليبرالية الملكية ، التي كانت تدعو الى الاكتفاءبالعمل « الثقافي »والعدول من العمل الثوري السري .ونمت ، بالمقابل ، قوىالديمقراطية والاشتراكية موحدة بادىء ذي بدء في ايديولوجيا طوباوية وفي نضال المثقفين من النارودافوليين (*) والشعبيين الثوريين ،ثم أخذت بالتباين منذ تسعينات القرن

(*) النارودافوليون هم جماعة إرادة الشعب ، انشقت هذه الجماعة عن منظمة « زمليا اي فوليا » (الأرض والحرية) التي اسسها الشعبيون الثوريون في خريف عام ١٨٧٦ والتي حاولت استنهاض الفلاحين للانتفاض على القيصرية . سلك النارودافوليون طريق الارهاب ورأوا فيه الوسيلة الرئيسية للنضال الثوري ضد القيصرية عادلين بذلك عن العمل الثوري في اوساط الفلاحين .

الماضي تبعاً لمدى الانتقال من النضال الثوري الذي مارسه ارهابيون ودعاة أفراد إلى نضال الطبقات الثورية نفسها .

ويرينا العقد السابق للثورة من ١٨٦٥ حتى ١٩٠٤ اعمالاً علنية نفذتها جماهير البروليتاريا ، ونمواً متزايداً في صفوفها ، ونمو النضال بشكل إضرابات ، ونمو الحزب والتنظيم والتحريض الاشتراكي الديمقراطي العمالي . ثم بدأت طبقة الفلاحين الثوريين الديمقراطيين تدخل حلبة الصراع الجماهيري وراء الطليعة الاشتراكية للبروليتاريا خصوصاً منذ عام ١٩٠٢ .

وخلال ثورة ١٩٠٥ تطور هذان الاتجاهان، اللذان بدأت خطوطها العامة ترتسم في الأدب ويُصوران فيه منذ عام ١٨٦١ ، ونموا ووجدا تعبيرهما في حركة الجماهير ، وفي صراع الأحزاب في مختلف الميادين ، وفي الصحافة والاجتماعات العامة والإضرابات والانتفاضات ومجالس الدوما .

لقد انشأت البرجوازية الليبرالية الملكية حزبين (الكاديت والأوكتوبريين) تعايشا في البدء في حركة ليبرالية زيمستفوية واحدة (حتى صيف عام ١٩٠٥) ، ثم استقروا حزبين مختلفين ينافس (ولا يزال ينافس) احدهما الآخر بقوة ، ويقدم أحدهما وجهه الليبرالي في الدرجة الاولى ، بينما يقدم الآخر « وجهه » الملكي ، لكن الاثنين متفقان على الأمر الجوهري والأهم ، وهو التنديد بالثوار ، وتوجيه الإهانات إلى انتفاضة كانون الأول ، والركوع أمام ورقة التين الدستورية التي تستر الحكم المطلق ، وكأنها راية من الرايات . لقد وقف الحزبان ، ولا زالا يقفان ، على أرضية « دستورية صارمة » ، أي انهما يكتفيان ، في نشاطهما ، بالاطر التي وضعها المائة السود الملكيون الاقطاعيون ، دون أن يفرطا في شيء من سلطتها ودون ان يتخليا عن الحكم المطلق ودون أن يضحيا بكوبيك واحد

من أرباح جنوها منذ عهد العبودية وكرستها القرون ، أو بأي إمتياز من حقوقهم « المكتسبة بشرف » .

أما الاتجاهان الديمقراطي والاشتراكي فقد افترقا عن الاتجاه الليبرالي ، ثم تميز أحدهما عن الآخر . كانت البروليتاريا تنظم نفسها وتعمل بمعزل عن طبقة الفلاحين ، متراصة حول حزبها الاشتراكي الديمقراطي العمالي . وكان الفلاحون اثناء الثورة أضعف تنظيماً من البروليتاريا بما لا يقاس ، واكثر منها تشتتاً وضعفاً في انتفاضاتهم ، وادنى منها وعياً بدرجات . وكثيراً ما كانت الاوهام حول الملكية (وما يرتبط عضوياً بها من أوهام حول الدستور) تشل طاقتهم وتضعهم موضع التبعية من الليبراليين ومن المائة السود احياناً ، وتولد فيهم أحلاماً فارغةعن « أرض الله » بدلاً من الهجوم على النبلاء أصحاب الاراضي بهدف القضاء على هذه الطبقة قضاء تاماً . ومع هذا يمكن القول اجمالاً ان الفلاحين ، كجماهير ، ناضلوا ضد الاقطاعيين بالضبط ، وكانوا يتصرفون ثورياً ، وانشأوا في مختلف الدومات — وحتى في الدوما الثالثة التي شوه التمثيل فيها لصالح الاقطاعيين — لجان عمل تمثل الديمقراطية الصحيحة على الرغم من تأرجحاتها المتواترة . لقد كان كل من الكاديت وجماعات العمل بين عامي ١٩٠٥ — ١٩٠٧ التعبير السياسي عن مواقف واتجاهات البرجوازية الليبرالية من جهة ، والبرجوازية الديمقراطية من جهة اخرى ، في الحركة الجماهيرية الواحدة .

إن عام ١٨٦١ هو الذي ولد عام ١٩٠٥ . فالطابع الاقطاعي للاصلاح البرجوازي الاول « العظيم » عرقل التطور وحكم على الفلاحين بالكثير من أمر العذاب وأقساه ، لكنه لم يحول اتجاه التطور ، ولم يحل دون قيام ثورة ١٩٠٥ البرجوازية . لقد أجل اصلاح عام ٦١ حلول النهاية ، باعطائه فسحة محدودة للرأسمالية كي تنمو ، لكنه لم يحل دون النهاية المحتومة التي انطلقت في مستوى اوسع بكثير ، تمثل في هجوم الجماهير على استبداد القيصر والاقطاعيين معاً . لقد

ولد الاصلاح، الذي قام به الاقطاعيون في فترة كانت فيها الجماهير المضطهدة في أدنى درجات التطور ، ولد الثورة عندما نضجت العناصر الثورية في قلب هذه الجماهير .

إن الدوما الثالث وسياسة ستوليبين الزراعية هما ثاني اصلاح برجوازي يجريه الاقطاعيون . فإذا كان التاسع عشر من شباط عام ٦١ الخطوة الاولى في طريق تحويل الحكم المطلق الاقطاعي الخالص الى ملكية برجوازية ، فإن الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٠٨ – ١٩١٠ تشير الى خطوة ثانية ، اكثر جدية في الطريق نفسه . لقد مر ما يناهز أربع سنوات ونصف على اصدار مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ ، واكثر من ثلاث سنوات ونصف على الثالث من حزيران عام ١٩٠٧ ، وها هي ذي البرجوازية الكاديتية ، لا وبل البرجوازية الاوكتوبرية ، تقتنع الآن « بعدم نجاح » « دستور » الثالث من حزيران ، وسياسة الثالث من حزيران الزراعية . وكان أشد الكاديت يمينية – كما كان يسمى السيد النصف اوكتوبري ماكلاكوف حتى أمد قريب – محقاً كل الحق عند ما قال في الدوما ، في الخامس والعشرين من شباط باسم الكاديت والاوكتوبريين معاً « إن عدم الرضى يسود الآن العناصر الرئيسية في البلد ، وهي التي تريد السلام اكثر من أي شيء آخر وتخشى من اندلاع موجة ثورية جديدة » . والشعار واحد إذ يتابع السيد ماكلاكوف قائلاً : « يقول الجميع انه إذا تابعنا السير على الطريق نفسها ، التي يقودوننا الآن فيها ، فسيوصلوننا الى ثورة ثانية » .

ومنذ مدة قريبة أعلن كويتب مأجور للحكومة القيصرية الارهابية اسمه مينشيكوف في « نوفويي فريميا » قائلاً ان إصلاح التاسع عشر من شباط « اخفق بشكل يدعوا الى الرثاء » لأن « عام ٦١ لم يستطع أن يتدارك عام ١٩٠٥ » والآن يعلن محامو البرجوازية الليبرالية وبرلمانيوها المأجورون عن اخفاق « إصلاحات » ٩ / ١١ / ١٩٠٦ و ٣ / ٦ / ١٩٠٧ ، لأن هذه « الاصلاحات » تؤدي إلى ثورة ثانية .

ويقدم كلا التصريحين ، وتاريخ الحركة الليبرالية والثورية كله ، مادة هامة جداً لتوضيح مسألة خطيرة ، هي علاقة الإصلاح بالثورة ودور الإصلاحيين والثوريين في الصراع الاجتماعي .

يعترف اعداء الثورة ، بعضهم بحقد ، وبعضهم الآخر بحزن وأسى ، أن إصلاحات اعوام ١٨٦١ و ١٩٠٧ — ١٩١٠ فشلت ، لأنها لم تحل دون الثورة . وتردّ الاشتراكية الديمقراطية ، الممثلة للطبقة الثورية حتى النهاية في أيّامنا ، على هذا الاعتراف بقولها : لقد لعب الثوريون دوراً تاريخياً عظيماً جداً في الصراع الاجتماعي وفي الأزمات الاجتماعية كلها ، حتى عندما انتهت هذه الأزمات مباشرة إلى إصلاحات وسطية فقط . إن الثوريين قادة تلك القوى الاجتماعية التي تخلق التحولات كلها ، وما الإصلاحات إلاّ نتاج ثانوي للنضال الثوري .

لقد كان ثوار عام ٨٦١ أفراداً ، وقد هزموا ، ظاهريّاً ، هزيمة تامة . ولكنهم كانوا ، في الواقع ، رجالات ذلك العهد العظام . وبقدر ما نبتعد عن تلك الفترة تتضح لنا عظمتهم ، وتتضح ، في الوقت نفسه ، تفاهة إصلاحيي تلك الأيام الليبراليين وقبحهم .

لقد منيت الطبقة الثورية والبروليتاريا الاشتراكية بهزيمة تامة ظاهريّاً بين عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٧ ، وأصم الملكيون الليبراليون والتصفويّون ممن يدعون الماركسية آذاننا بزعيق مفاده أن البروليتاريا الاشتراكية « تجاوزت الحدود » ، ووصلت « حد التطرف » وأنها أُخذت « بالصراع الطبقي العفوي » ، وأنها علّلت النفس بفكرة مهلكة هي « قيادة البروليتاريا .. الخ ... لكن خطأ البروليتاريا ، الوحيد في الواقع ، هو أنها لم تتجاوز الحدود بما فيه الكفاية . ويبرر خطأها هذا وضع القوى آنذاك ، ويغفره لها عملها الاشتراكي الديمقراطي الثوري المستمر ، حتى في فترات الرجعية الأشد سواداً ، ونضالها الذي لا يلين ضد كافة

مظاهر الاصلاحية والانتهازية . فكل ما انتزع من الأعداء ، وكل ما توطّد من انجازات ، انتُزع وتوطد بالفعل ،بقدر مـــا كان نضال البروليتاريا الثوري قوياً وحياً في مختلف المجالات فقط . وبالفعل ، كانت البروليتاريا الوحيدة التي دافعت حتى النهاية عـن الديمقراطية المتماسكة ، وهـي تعرّي تذبذب الليبرالية ، وتنتزع الفلاحين من دائرة تأثيرها ، ثم وهي تهب بجرأة بطولية إلى الثورة المسلحة .

ليس في وسع أحد أن يتنبأ بالمدى الذي ستتحقق به التحولات الديمقراطية حقاً في روسيا في فترة ثورانها البرجوازية ، لكن لا يوجد ظلّ من شك في أن نضال البروليتاريا الثوري سيحدد وحده درجة هذه التحولات ونجاحها . ولا يمكن ان يكون بين « الإصلاحات » الاقطاعية التي تجري بروح برجوازية وبين الثورة الديمقراطية بقيادة البروليتاريا ، الا ّ تأرجحاتُ الليبرالية والإصلاحية الانتهازية العاجزة ، غير المستقرّة ، الفارغة .

ولا يسعنا ، ونحن نلقي نظرة عـامة على تاريخ روسيا في نصف القرن الأخير وعلى عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ ،الا ّ ان نردّد بقناعة اكبر الكلمات الواردة في قرار حزبنا بأن « هدف نضالنا هو ، كما في السابق ، اسقاط القيصرية ،واستيلاء البروليتاريا على السلطة السياسية معتمدة في ذلك على الفئات الثورية من الفلاحين ، والقيام بانقلاب برجوازي ديمقراطي عن طريق دعوة جمعية عامة تأسيسية وإقامة جمهورية ديمقراطية .

طبع في ١٩ آذار ١٩١١

ج ٢٠ ، ص ١٧١ – ١٨٠

في ذكرى غرتسن

مر مائـــة عام على مولد غرتسن . وفي هذا اليوم تكرم روسيا الليبرالية ذكراه وهي تتحاشى ، بعناية ، المسائل الجدية المتعلقة بالاشتراكية ، وتخفي ، بعناية ، الفرق بين غرتسن الثائر وغرتس الليبرالي . كما تذكره الصحافة اليمينية مؤكدة ، زوراً وبهتاناً ، انه تخلى عن الثورة في آخر ايامه . وتسيطر الكلمات الجوفاء على كل ما يقوله الليبراليـون والشعبيون المغتربون في غرتسن .

من واجب الحزب العمالي أن يحتفل بذكرى غرتسن ، لا بقصد التبجيل التافه ، بل ليتبين مهامه ، ويتبين المركز التاريخي الحقيقي لهذا الكاتب الذي لعب دوراً عظيماً في التمهيد للثورة الروسية .

كان غرتسن ينتمي إلى جيل الثوريين النبلاء الاقطاعيين في النصف الأول من القرن الماضي . وقد اعطى النبلاء روسيا الكثير من امثال بيرونوف وار كتشيف وعدداً لا يحصى من « الضباط السكيرين والمعربدين والمقامرين وابطال المعارض ومراقبي كلاب الصيد والمشاكسين والجلادين ورجـال الحريم وطيبي القلب من امثال مانيلوف » . يقول غرتسن : « لقد نما بين هؤلاء رجال ١٤ كانون الأول ، كتيبة ابطال رضعوا ، كروموول وريم ، حليب الحيوان البري ... إنهم عمالقة صبّوا من فولاذ نقي من اعلى الرأس حتى اخمص القـدم ، ورفـاق سلاح خرجوا بوعي إلى الهلاك المحقق لينبهوا الجيل الطالع إلى الحياة الجديدة ، ويطهروا الاطفال الذين ولدوا في وسط الجلادين وتجار الرقيق »(٥٤) .

وكان غرتسن من عداد هؤلاء. فقد ايقظته ثورة كانون الاول «وطهرته»، فاستطاع، وهو الذي عاش في روسيا الاقطاعية في اربعينات القرن التاسع عشر، ان يرقى الى مستوى جعله يقف على قدم المساواة مع كبار مفكري عصره. فقد تمثل ديالكتيك هيغل وفهم انه يمثل «جبر الثورة»، وتجاوز هيغل الى المادية مقتفياً اثر فيورباخ. وأولى «رسائله في دراسة الطبيعة» — «التجربة والمثالية» — التي كتبت عام ١٨٤٤ تظهره لنا مفكراً ارفع بكثير، وحتى الآن، من العديد من التجريبيين الطبيعيين المعاصرين، والعديد من الفلاسفة الحاليين المثاليين وانصاف المثاليين. لقد اقترب جداً من المادية الديالكتيكية وتوقف امام المادية التاريخية.

هذا «التوقف» هو الذي سبب سقوطه الروحي بعد فشل ثورة عام ١٨٤٨. كان غرتسن قد غادر روسيا، واخذ يراقب هذه الثورة مباشرة. كان في ذلك ديمقراطياً، ثورياً، اشتراكياً. لكن «اشتراكيته» كانت احد اشكال وانواع الاشتراكية البرجوازية، والبرجوازية الصغيرة، التي لم يكن لها حصر في فترة عام ٤٨، والتي قضت ايام حزيران عليها نهائياً. وفي الحقيقة، لم تكن هذه الاشتراكيات اشتراكية ابدا، بل كلمات معسولة واحلاما خيّرة خلعتها الديمقراطية البرجوازية على ثوريتها آنذاك، كما لجأت اليها البروليتاريا التي لم تتحرر من تأثير هذه الديمقراطية.

كان سقوط غرتسن الروحي، وريبيته وتشاؤمه العميقان بعد عام ١٨٤٨، انهياراً للاوهام البرجوازية حول الاشتراكية. فمأساة غرتسن الروحية وليدة تلك الفترة التاريخية العالمية، حين بدأت ثورية الديمقراطية البرجوازية تتلاشى (في اوربا)، في حين ان ثورية البروليتاريا الاشتراكية لمّا تنضج بعد، وتعبير عن تلك الفترة نفسها. وهذا مالم يفهمه، ولم يستطع فهمه، فرسان العهر الكلامي الليبرالي الروسي، الذين يسترون الآن مناهضتهم للثورة بجمل منمقة عن ريبية

غرتسن . ان الريبية بالنسبة لهؤلاء الفرسان ، الذين خانوا الثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، ونسوا حتى مجرد التفكير في صفته كثوري ، هي شكل انتقالهم من الديمقراطية الى الليبرالية ، هذه الليبرالية المداهنة ، السافلة ، القذرة والوحشية ، التي اطلقت النار على العمال في عام ٤٨ ، واعادت العروش المقوّضة ، وصفقت لنابليون الثالث ، ولعنها غرتسن دون ان يستطيع فهم طبيعتها الطبقية .

أما الريبية فكانت ، بالنسبة لغرتسن ، شكل انتقال من أوهام الديمقراطية البرجوازية ، « الفوق طبقية » ، الى نضال البروليتاريا الطبقي المرير ، الذي لا يلين ولا يمكن قهره . والبرهان على ذلك هي « رسائل رفيق قديم » (أي باكونين) التي كتبها غرتسن عام ١٨٦٩ ، أي قبل عام من وفاته ، وفيها يقطع صلته بالفوضوي باكونين . صحيح أن غرتسن لا يزال يرى في هـذا الانفصال مجرد خلاف في التكتيك ، وليس هوة تفصل بين نظرية البروليتاري المؤمن بانتصار طبقته ونظرية البرجوازي الصغير اليائس من الخلاص . صحيح أن غرتسن يكرر هنا ، من جديد ، تعابير ديمقراطية برجوازية قديمة مؤداها أن على الاشتراكية أن تأتي عن طريق « الوعظ الموجه بقدر متساو الى العامل وصاحب العمل ، الى الفلاح وصاحب الأرض » . لكن غرتسن ، وهو يقطع علاقته بباكونين ، يشخص بأبصاره ، على الرغم من هذا كله ، لا الى الليبرالية بل الى الاممية ، الى الأممية التي كان يقودها ماركس - الى الاممية التي بدأت « تجمع فيالق » البروليتاريا ، وتوحد « عالم العمل » ، « الذي يتخلى عن عالم المنتفعين دون أن يعملوا » [٥٥] .

* * *

وإذا كان غرتسن لم يفهم الماهية البرجوازية الديمقراطية لحركة ١٨٤٨ كلها ، ولمختلف أشكال الاشتراكية السابقة للماركسية ، فبالأحرى ألا يستطيع ان يفهم الطبيعة البرجوازية للثورة الروسية . غرتسن هو مؤسس الاشتراكية

« الروسية » ، اي « الشعبية » ، إذ كان يرى أن « الاشتراكية » تقوم في تحرير الفلاحين مع ارضهم ، وفي مشاعية الأرض ، وفي الفكرة الفلاحية عن « الحق في الأرض » . وقدعرض غرتسن افكاره الأثيرة على نفسه حول هذا الموضوع مراراً كثيرة جداً .

والواقع أنه لا يوجد في تعاليم غرتسن هذه ، كما في الشعبية الروسية كلها، بما فيها شعبية « الاشتراكيين الثوريين » الحـــاليين التي بهت لونها ، مقدار ذرة واحدة من الاشتراكية . وهي ليست الا كلمات معسولة وأحلاماً خيرة تعبر ، كالأشكال المختلفة « لاشتراكية عام ١٨٤٨ » في الغرب ، عن ثورية الديمقراطية الفلاحية البرجوازية في روسيا . فبقدر ما كان الفلاحون يحصلون على أرض اكبر عام ١٨٦١ ، وبقدر ما كان ثمنها أزهد ، كانت سلطة الاقطاعيين تقوض بسرعة اكبر ، وكان تطور الرأسماليـــة في روسيا يتم بحرية واتساع اكبر . فليست فكرة « الحق في الارض » « والتقسيم المتساوي للأرض » الا التعبير عن نزوع الفلاحين الثوري إلى المساواة ، هؤلاء الفلاحين الذين يناضلون في سبيل اسقاط السلطة الاقطاعية اسقاطاً تاماً والقضاء قضاء مبرماً على ملكية الاقطاعيين للارض.

وقد برهنت ثورة ١٩٠٥ تماماً على هـذا ! فمن جهة تقدمت البروليتـاريا النضال الثوري مستقلة تماماً ، وأنشأت الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي ،ومن جهة أخرى بقي الفلاحون الثوريون (جماعات العمل ، «والاتحاد الفلاحي»[٥٦]) ، وهم يكافحون من اجل القضاء على مختلف أشكال الملكية الاقطاعية للارض وحتى على «الغاء الملكية الخاصة للأرض»، يناضلون بصفتهم ملاكاً ، بصفتهم اصحاب اعمال صغارا.

ولا تستهدف المناقشات الكلامية الفارغة الدائرة اليوم حول «اشتراكية» الحق في الارض الخ .. إلا تعمية مسألة تاريخية جدية وهامة حقـــاً ، وإخفاءها وهي : اختلاف مصالح البرجوازية الليبرالية والفـلاحين الثوريين داخـل الثورة

الروسية البرجوازية ، وبعبارة اخرى ، مسألة الاتجاهين الليبرالي والديمقراطي ، « التوفيقي » (الملكي) والجمهوري في هـذه الثورة . وقد طرح غرتسن في « الكولوكول » هـذه المسألة بالضبط ، اذا ما نظرنا إلى جوهر القضية لا الى الكلمات الجوفاء ، اذا ما بحثنا في الصراع الطبقي على انه اساس « النظريات » والتعاليم ، وليس العكس .

لقد انشأ غرتسن صحافة روسية حرة في الخارج ـ وفي هذا فضله العظيم. لقد بعثت « بوليارنايا زفيزدا »[٥٧] تقاليد الديسمبريين ،ودافعت « الكولوكول» بكل عزم عن تحرير الفلاحين . لقد خرق الصمت ، صمت العبيد .

لكن غرتسن كان ينتمي الى وسط الاقطاعيين النبلاء ، وكان قد غادر روسيا عام ١٨٤٧ ، فلم ير الشعب الثوري ، ولم يكن في مقدوره الايمان به . ومن هنا نداؤه الليبرالي الى « المقامات العليا» ، ومن هنا رسائله العديدة المعسولة في « الكولوكول » الى الاسكندر الثاني ، ناصب المشانق ، وهي رسائل لا يمكننا قراءتها الآن بدون اشمئزاز . ولقد كان تشرنيشفسكي ودوبروليوبوف وسيرنوسالوفيوفتش ، الذين يمثلون الجيل الجديد من الثوريين ذوي المنبت الشعبي، محقين الف مرة عندما لاموا غرتسن على تراجعه عن الديمقراطية نحو الليبرالية . ويقتضي العدل منا ان نقول ان الديمقراطي في غرتسن كان يتغلب على الليبرالي فيه ، على الرغم من كل ذبذباته بين الديمقراطية والليبرالية .

فعندما ثار كافيلين ، وهو أحد اشد نماذج النذالة الليبرالية اثارة للاشمئزاز (وكان شديد الاعجاب « بالكولوكول » لاتجاهاتها الليبرالية) ، على وضع الدستور ، وهاجم التحريض الثوري ، واحتج على « العنف » والدعوة اليه ، واخذ يبشر بالصبر ، قطع غرتسن علاقته بهذا الحكيم الليبرالي ثم هاجم مقالته « المجانية السقيمة والسخيفة والضارة » التي كتبها « بقصد توجيه الحكومة التي

اخذت تتبع سياسة ليبراليـــةمن طرف خفي » ، كما هاجم « مواعظه السياسية العاطفية » التي كانت تصور « الشعب الروسي قطيعاً من الحيوانات ، والحكومة ذكية متبصرة » .

وقد نشرت « الكولوكول » مقالة بعنوان « تأبين » ، عنّفت فيها « الاساتذة الذين ينسجون من افكارهم الصغيرة المتعالية خيوط عنكبوت نتنة ، والاساتذة الســـابقين الذين كانوا في وقت ما سليمي القلب ثم امتلأت نفوسهم حقداً،وهم يرون ان الشبيبة المعافاة لا تستطيـع ان تتعاطف مع فكرهم المريض» . وقد عرف كافيلين فورا نفسه في هذه الصورة .

وعندما القي القبض على تشرنيشفسكي كتب كافيلين ،هذا الليبرالي السافل، يقول : « لا يبدو لي أن هذه الاعتقالات تثير الاستياء... فالحزب الثوري يعتبر كافة الوسائل التي تؤول الى اسقاط الحكومة حسنة ، والحكومة تدافع عن نفسها بوسائلها » . وكان غرتسن يردّ على هذا الكاديت بالذات،عندما تحدث عن محاكمة تشرنيشفسكي : « هنـــاك أناس ذليلون ، أناس في ضعة عشب الأرض ، أناس حقيرون يقولون إنه لا يجب لوم هـذه العصابة من قطاع الطرق والأنـذال الـتي تحكمنا » [٥٨] .

وعندما وجه الليبرالي تورغنيف رسالة خاصة الى الاسكندر الثاني يؤكد له فيها إخلاصه ، ثم ضحى بقطعتين من الذهب في سبيل الجنود الذين جرحوا وهم يقمعون انتفاضة البولونيين ، كتبت « الكولوكول » تتحدث عن المجدليـة ذات الشعر الأشيب (التي تنتمي الى الذكور) ، التي كتبت الى القيصر تقول له إنهـا لم تعد تذوق طعم النوم ، وهي تتـألم لأن القيصر لم يعرف بعد بتوبتهـا [٥٩] » . وعرف تورغنيف نفسه فوراً .

وعندما انفضت جماعـــة الليبراليين الروس من حول غرتسن لدفاعه عن بولونيا ، واعرض « المجتمع المثقف » عن « الكولوكول » ، لم يتكدر ، بل تابع دفاعه عن حرية بولونيـا وتنديده بالجلادين والقامعين وناصبي المشانق من أتبـــاع الاسكندر الثاني ، فأنقذ شرف الديمقراطية الروسية . وقـد كتب الى تورغنيف يقول : « انقـذنا شرف الاسم الروسي ، وعانينا في ســـبيل ذلك من عبودية الأكثرية » (٦٠) .

وعندما انتشر خبر مصرع اقطاعي على يد قنّ ثأراً لاعتداء الاقطاعي على خطيبته، كتب غرتسن في «الكولوكول» معلقاً : « قام بعمل ممتاز !» . وعندما وصل الى علمه أن السلطات تعيّن قادة عسكريين « من أجل التحرير الهادىء » ، كتب غرتسن يقول : « إن أول عقيد ذكي ينضم بكتيبته الى الفلاحين سيتربع على عرش آل رومانوف بدلاً من ان يخنق الفلاحين ». وحين انتحر العقيد ريتّرن في فرصوفيا باطلاق الرصاص على نفسه كي لا يكون مساعـداً للجلادين ، كتب غرتسن قائلاً : « إذا كان لا بد من اطلاق الرصاص ، فيجب إطـلاقه على اولئك الجنرالات الذين يأمرون باطلاقه على العزّل » . وعندما قُتل (٥٠) خمسون من الفلاحين في بيزدن ، وأعدم زعيمهم انتون بيتروف (٦١) (١٢ نيسان عام ١٨٦١) كتب غرتسن في « الكولوكول » ما يلي :

« آه ، لو كان بمقدور كلماتي أن تصلك يا كادح الأرض الروسية ومعذّبها ! ولـكم وددت ، لو أني أعلمك ان تحتقر رعاتك الروحيين الذي سلّطهم عليـــك سينودوس بطرسبرج والقيصر الألمـاني ... انك تبغض الاقطاعي وتبغض القس لكنك تخافهما. وأنت محقّ كل الحق. إنك لازلت تثق في القيصر وفي المطران... فلا تصدقهما . إن القيصر الى جانبهم وهم يؤيدونه . إنك تراه الآن ، أنت والد الشاب الذي قتل في بيزدن ، وأنت ابن الوالد الذي قتل في بينزي ...إن رعاتك

جهلة كما أنت جاهل ، وفقراء كما أنت فقير ... هكذا كان انطون (لا المطران انطون بل انطون ، فتى بيزدن) الذي قضى في سبيلك ... ان أجساد قديسيك لن تجترح المعجزات ودعواتك لن تهدىء وجع أسنانك . إلا أن ذكراهم الحية تستطيع ان تجترح اعجوبة واحدة هي تحررك »[٦٢] .

يتضح لنا من هنا مدى السفالة والدناءة في افتراء ليبراليينا المتوخين في أحضان الصحافة « الشرعية » الخانعة على غرتسن، وهم يضخمون نقاط الضعف فيه، ويسكتون عن نقاط القوة . فمصيبة غرتسن ، لا خطيئته ، أنه لم يتمكن من رؤية الشعب الثائر في روسيا نفسها في الاربعينات . وعندما رآه في الستينات ، وقف دون وجل الى جانب الديمقراطية الثورية ضد الليبرالية . لقد ناضل في سبيل انتصار الشعب على القيصرية ، لا من أجل تواطؤ البرجوازية الليبرالية مع القيصر الاقطاعي . لقد رفع علم الثورة .

* * *

إننا نرى ، ونحن نكرم غرتسن ، ثلاثة أجيال ، ثلاث طبقات عملت في الثورة الروسية : في البدء كان النبلاء والاقطاعيون ، الديسمبريون وغرتسن . لقد كانت ضيقة حلقة هؤلاء الثوار ، وكانوا بعيدين جداً عن الشعب . إلا أن عملهم لم يذهب هدراً . فقد أيقظ الديسمبريون غرتسن ، الذي قام بعملية تحريض ثورية واسعة .

وتلقف الثوريون ذوو المنبت الديمقراطي ، بدءاً من تشرنيشفسكي وانتهاء بأبطال « نارودنايا فوليا »، هذه الدعوة ووسعوها ووطدوها وصقلوها ، فأصبحت حلقة المناضلين أوسع ، وصلتهم بالشعب أوثق . وكان غرتسن يدعوهم : « ملاحي العاصفة العتيدة الشباب » . لكنها لم تكن العاصفة .

العاصفة هي تحرك الجماهير نفسها . فقد هبت البروليتاريا ، وهي الطبقة

الوحيدة الثورية حتى النهاية ، تتقدم الجماهير ودفعت بملايين الفلاحين الى النضال الثوري العلني لأول مرة . ففي عام ١٩٠٥ كان هجوم العاصفة الأول، ويبدأ على مرأى منا هجومها التالي .

ان البروليتاريا ، وهي تحتفل بذكرى غرتسن ، تتعلم من مثله الأهمية العظمى للنظرية الثورية . تتعلم ان تفهم أن الاخلاص اللامتناهي للثورة ، ونشر الفكر الثوري في أوساط الشعب ، لا يذهبان هدراً ، حتى ولو فصلت عقود كاملة من السنين بين الزرع والحصاد ؛ ـ تتعلم أن تحدد دور مختلف الطبقات في الثورتين الروسية والعالمية . وستشق البروليتاريا طريقها ، وقد اغتنت بهذه الدروس، الى الاتحاد الحرّ مع العمال الاشتراكيين في مختلف البلدان ، ساحقة هذه القذارة التي تسمى بالقيصرية ، والتي كان غرتسن أول من رفع ضدها لواء النضال العظيم بتوجهه **بالكلمة الروسية الحرة** الى الجماهير .

طبع في ٨ أيار ١٩١٢
ج ٢١ ص ٢٥٥ — ٢٦٢

* * *

طوباويتان

الطوباوية كلمة يونانية تعني : أو (لا) توبوس (مكان) أي مكان لا وجود له ، خيال ، فكرة وهمية .

والطوباوية في السياسة رغبة لا يمكن تحقيقها إطلاقاً ، لا الآن ، ولا مستقبلاً ، رغبة لا تستند الى القوى الاجتماعية ، ولا يدعمها نمو القوى السياسية والطبقية وتطورها .

وبقدر ماتكون الحرية في البلد قليلة ،وتجليات الصراع الطبقي المكشوف نادرة ، ومستوى التعليم بين الجماهير منخفضاً ، تبرز الطوباويّات السياسية عادة بسهولة أكبر ، وتترسخ لفترة أطول .

وفي روسيا المعاصرة نوعان من الطوباوية السياسية توطدا أكثر من غيرهما ، ويحدثان ،بإغرائها ، تأثيراً معيناً في الجماهير ، هما : الطوباوية الليبرالية والطوباوية الشعبية .

وتدعي الطوباوية الليبرالية أنه يمكن الحصول على تحسينات جدية في روسيا ، في حريتها السياسية وفي وضع جماهير الشعب الكادح سلاماً ووفاقاً ، دون اساءة إلى أحد ، دون كنس أمثال بوريشكيفيتش ، ودون صراع طبقي عنيف يجري حتى نهاية الشوط . إنها طوباوية السلام بين روسيا الحرة وبين أمثال بوريشكيفتش .

أما الطوباوية الشعبية فهي حلم المثقف الشعبي والفلاح العامل بامكانية

ابعاد سلطة رأس المال وسيطرته ، وازالة عبودية العمل المأجور ، عن طريق توزيع الأراضي كلها توزيعاً جديداً وعادلاً ، أو بامكانية الاحتفاظ بتوزيع « عادل » ومتساوٍ » للأراضي في ظل سيطرة رأس المال ، في ظل سلطة النقد ، في ظل الانتاج السلعي .

مم تتولد هاتان الطوباويتان ؟ ولماذا لا تزالان راسختين بقوة الى حدّ ما في روسيا المعاصرة ؟

انهما وليدتا مصالح الطبقات التي تخوض صراعاً ضد النظام القديم ، ضد الاقطاعية وضد عدم الشرعية ، وبكلمة مختصرة ، ضد « أمثال بوريشكيفتش » ، الطبقات التي لا تمثل مركزاً مستقلاً في هذا الصراع . الطوباوية ، الأحلام، وليدة فقدان الاستقلال الذاتي ، وليدة نقطة الضعف هذه . والاسترسال في الأحلام من قدر الضعفاء .

إن البرجوازية الليبرالية بعامة ، وفئة المثقفين البرجوازيين الليبراليين بخاصة ، لا تستطيع الا أن تنزع الى الحرية والشرعية ، فبدون هذا لا تكون سيطرة البرجوازية كاملة ،مطلقة ومضمونة . لكن البرجوازية تخاف حركة الجماهير أكثر مما تخاف الرجعية . ومن هنا ضعف الليبرالية المدهش الذي لا يصدق في السياسية ، وعجزها التام . ومن هنا هذه السلسلة من المواربة والكذب والرياء والمراوغات الرعديدة في مجمل سياسة الليبراليين، الذين لا يستطيعون الا أن يلعبوا لعبة الديمقراطية ، ليستميلوا الجماهير الى جانبهم ، لكنهم يعادون ، في الوقت نفسه ، الديمقراطية معاداة عميقة ، يعادون حركة الجماهير ومبادأتها ومبادرتها وطريقتها في « اقتحام السماء » ، كما قال ماركس ذات مرة أثناء حديثه عن احدى الحركات الجماهيرية الاوروبية في القرن الماضي .

فطوباوية الليبرالية هي طوباوية العجز عن قضية تحرير روسيا سياسياً ، طوباوية كيس المال الجشع الذي يريد أن يتقاسم ، « سلاماً » ، الامتيازات مع أمثال بوريشكيفتش، مبرزاً هذه الرغبة الكريهة وكأنها نظرية الانتصار «السلمي» للديمقراطية الروسية . الطوباوية هي حلم بالانتصار على أمثال بوريشكيفتش دون الحاق الهزيمة بهم، وبكسرهم دون اصابتهم بأي ألم. من الواضح أن هذه الطوباوية ضارة ، لا لأنها طوباوية وحسب ، بل لأنها تفسد وعي الجماهير الديمقراطي . والجماهير المؤمنة بهذه الطوباوية لن تنال حريتها مطلقاً ، فمثل هذه الجماهير غير جديرة بالحرية، ومثل هذه الجماهير تستحق تماماً أن يسخر منها أمثال بوريشكيفتش.

أما طوباوية الشعبيين وجماعات العمل فهي حلم المالك الصغير ، الذي يقف في منتصف الطريق بين الرأسمالي والعامل المأجور، بالقضاء على عبودية العمل المأجور دون صراع طبقي . وعندما تصبح مسألة تحرر روسيا الاقتصادي مسألة قريبة ، عاجلة وملحة ، كما هي عليه الآن مسألة تحررها السياسي ، لن تكون طوباوية الشعبيين أقل ضرراً من طوباوية الليبراليين .

لكن روسيا لازالت تعيش الآن فترة تحولها البرجوازي ، لا البروليتاري ؛ فليست مسألة تحرر البروليتاريا الاقتصادي هي التي نضجت نضجاً نهائياً ، بل مسألة الحرية السياسية ، أي ، في الواقع ، مسألة الحرية البرجوازية الكاملة .

وفي هذه المسألة الأخيرة تلعب طوباوية الشعبيين دوراً تاريخياً متميزاً . فهي ترافق النهوض الديمقراطي الجماهيري العظيم للفلاحين (أي لجماهير تشكل أكثرية السكان في روسيا المعاصرة ، روسيا الاقطاعية البرجوازية) وتدل عليه بحكم كونها طوباوية تتعلق بطبيعة النتائج الاقتصادية التي يجب أن تنشأ (وستنشأ) من التقسيم الجديد للأراضي . (ففي روسيا البرجوازية الخالصة كما في اوروبا البرجوازية الخالصة ، لن يكون الفلاحون أغلبية السكان) .

الطوباوية الليبرالية تفسد وعي الجماهير الديمقراطي . أما الطوباوية الشعبية فتظل ، الى جانب افسادها وعي الجماهير **الاشتراكي** ، علامة من علامات صعودها الديمقراطي ، ورفيقة له ، ومعبرة عنه الى حد ما .

وديالكتيك التاريخ يقول بأن الشعبيين وجماعات العمل يقترحون ويطبقون اجراء رأسمالياً حاسماً متماسكاً كل التماسك في المسألة الزراعية في روسيا بوصفه وسيلة مضادة للرأسمالية . « التساوي » في التوزيع الجديد للأراضي طوباوية. لكن قطع الصلة الكامل بكافة أشكال الملكية القديمة للأرض ، سواء كانت ملكية اقطاع أو « دولة » أو ملكية « حصص » (وهو قطع ضروري للتوزيع **الجديد**) ، اجراء اكثر ما يكون الحاحاً وضرورة وتقدمية ، من الناحية الاقتصادية ، لدولة كروسيا ، تسير في الاتجاه البرجوازي الديمقراطي .

وعلينا ان نذكر كلمات انغلز الرائعة : « ما هو كاذب بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، قد يكون حقيقة بالمعنى التاريخي العالمي » .

لقد اعلن انغلز هذه الموضوعة العميقة عند ما كان يتحدث عن الاشتراكية الطوباوية : فهذه الاشتراكية كانت « كاذبة » ، عندما قالت ان فضل القيمة يعتبر ظلماً من وجهة نظر قوانين التبادل. وكان نظريو الاقتصاد السياسي البرجوازي محقين، بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، في ردهم على هذه الاشتراكية، إذ ان فضل القيمة ينتج بشكل « طبيعي » تماماً و « عادل » تماماً عن قوانين التبادل .

لكن الاشتراكية الطوباوية كانت محقة بالمعنى التاريخي العالمي ، لأنها كانت دليلاً من دلائل تلك الطبقة ، تشير إليها وتعبر عنها ، تلك الطبقة التي نمت الآن ، في اوائل القرن العشرين ، واصبحت قوة جماهيرية قادرة على ان تضع حداً للرأسمالية التي ولدتها ، وستفعل ذلك حتماً .

وعلينا ان نذكر موضوعة انغلز العميقة هذه عند تقييمنا لطوباوية الشعبية

او جماعات العمل المعاصرة في روسيا (وقد لا تكون في روسيا وحدها ، بل في العديد من الدول الآسيوية التي تعيش في القرن العشرين فـــترة الثورات البرجوازية) .

الديمقراطية الشعبية ، الكاذبة بالمعنى الاقتصادي الشكلي ، **هي حقيقة** بالمعنى **التاريخي** . فهذه الديمقراطية الكاذبة تعبر ، بوصفها طوباوية اشتراكية ، عن حقيقة النضال الديمقراطي ، المتميز والمشروط تاريخياً ، لجماهير الفلاحين التي تشكل عنصراً لا يتجزأ من التحول البرجوازي وشرطاً لانتصاره التام .

الطوباوية الليبرالية تعلم جماهير الفلاحين ان تقلع عن النضال ، اما الطوباوية الشعبية فتعبر عن رغبة هذه الجماهير في النضـال ، وتعدها بملايين النعم مكافأة لهـا على انتصارها ، في حين ان هذا الانتصار لن يوفر لها الا مائة نعمة . ولكن اليس طبيعياً ان تضاعف الملايين التي هبت الى النضال والتي عاشت قروناً في جهل وحاجة وفقر ووسخ واحتقار واهمال ما سمعت بمثله اذن ، اليس طبيعياً ان تضاعف هذه الملايين عشرات المرات ثمار انتصارها المحتمل ؟

ليست الطوباوية الليبراليـة الا ستاراً ، يخفي المستغلون الجدد وراءه رغبتهم الجشعة في اقتسام الامتيازات مع المستغلين القدامى . اما الطوباوية الشعبية فتعبير عن نزوع الملايين الكادحة من البرجوازية الصغيرة الى القضـاء نهائياً على المستغلين الاقطاعيين القدامى ، وهي ، « في الوقت نفسه » ، أمل كاذب بتجنب المستغلين الجدد الرأسماليين .

★ ★ ★

من الواضح ان على الماركسيين ، وهم اعداء **مختلف أنواع** الطوباويات ، ان يدافعوا عن الاستقلال الذاتي للطبقة ، التي تستطيع ان تناضل **بكل اخلاص** ضد الاقطاعية ، لسبب واحد بالذات هو انها لم « تنشب ظفرها » ، ولو بمقدار

واحد بالمائة مشاركة في الملكية ، هذه المشاركة التي تجعل من البرجوازية نصف عدو للاقطاعية ، لا بل حليفتها الى حد ما . أما الفلاحون فقد « انشبوا أظفارهم» في الانتاج السلعي الصغير ، **ويستطيعون** ، إذا واتتهم ظروف تاريخية مناسبة ، أن يقضوا قضاءاً تاماً على الاقطاعية ، الا انهم سيظهرون **دائماً** ، وبالضرورة لا بالصدفة ، بعض التردد بين البرجوازية والبروليتاريا ، بين الليبرالية والماركسية .

ومن الواضح أيضاً أن من واجب الماركسيين أن يفرزوا بعناية من قشارة الطوباويات الشعبية النواة السليمة القيمة ، نواة الروح الديمقراطية المخلصة ، المصممة ، الكفاحية في جماهير الفلاحين .

ويمكننا أن نجد في الأدب الماركسي القديم ، أدب الثمانينات من القرن الماضي ، رغبة منتظمة لفرز هذه النواة الديمقراطية القيمة . ولا بد للمؤرخين أن يدرسوا ذات يوم هذه النزعة دارسة منتظمة ، ويستقصوا علاقتها بما سمي «بالبلشفية» في العقد الأول من القرن العشرين .

طبع قبل ٥ تشرين أول ٢ ١٩

ج ٢٢ ص ١١٧ - ١٢١

★ ★ ★

من مقال

« في الشعبيـــة »

... الشعبية ايديولوجيا (نظام نظرات) الديمقراطيةالفلاحية في روسيا. ومن واجب كل عامل واع، لهذا السبب، أن يتابـع باهتمام تغير هذهالايديولوجيا.

– ١ –

الشعبية قديمة جداً . ويعتبر غرتسن وتشرنيشفسكي مؤسسيها . وكان « النزول الى الشعب » (الى الفلاحين) ، الذي قام به ثوريو السبعينات ، الفترة التي ازدهرت فيها الشعبية ازدهاراً كان له تأثيره . وقدوضع ف. ف (فورونتسوف) ونيقولاي ـ أون ، في العقد التاسع من القرن الماضي، نظرية الشعبين الاقتصادية في أكمل صورها . وعـبر الثوريون الاشتراكيون في مطلع القرن العشرين أكمل تعبير عن نظرات اليساريين من الشعبيين .

وكانت ثورة ١٩٠٥ ، التي اظهرت قوى روسيا الاجتماعية كلها فيحركتها الطبقية الجماهيرية المكشوفة ، امتحاناً عاماً للشعبية حـدد مكانها في هـذه الثورة . إن الديمقراطية الفلاحية هو مضمون الشعبية الفعلي الوحيد وقيمتها الاجتماعية .

إن البرجوازية الليبرالية الروسية مضطرة بحـكم وضعها الاقتصادي أن تسعى لا الى **القضاء** على امتيازات بوريشكيفتش وشركاه ، بل الى **توزيعها** بين الاقطاعيين والرأسماليين . أما الديمقراطية البرجوازية في روسيا ، اي الفلاحون ، فمضطرة الى محاولة القضاء على هذه الامتيازات كلها .

إن الكلام عن « الاشتراكية » على لسان الشعبيين، وعن « جعل الارض

اشتراكية » ، وعن التساوي وما الى ذلك ، كلام فارغ يغطي واقعاً فعلياً ، هو سعي الفلاحين الى المساواة التامة في السياسة ، والقضاء التام على ملكية الاقطاعيين للأرض .

وقد كشفت ثورة عام ١٩٠٥ كشفاً تاماً هذه الماهية الاجتماعية وهذه الطبيعة الطبقية للشعبية . فقد كنست حركة الجماهير ، سواء كانت في شكل اتحادات فلاحين عام ١٩٠٥ ، أو شكل نضال الفلاحين في اماكنهم في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٦ ، أو شكل انتخابات للدوما الاولى والدوما الثانية (انشاء جماعة العمل) [٦٣] . وهذه الوقائع الاجتماعية العظيمة كلها ، التي أظهرت لنا ملايين الفلاحين في حركتها كنست ، كما يكنس الغبار ، لغو الشعبيين الذي يدعي صفة الاشتراكية وكشفت عن نواته الحقيقية وهي الديمقراطية الفلاحية (البرجوازية) ذات الاحتياطي الضخم من قوى لم تنفد بعد .

٢٠ كانون ثاني عام ١٩١٣

جزء ٢٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥

الشعبيون

عن ن . ك . ميخايلوفسكي

تميزت الذكرى العاشرة لوفاة ن.ك ميخايلوفسكي (توفي في ١٩٠٤/١/٢٨) بظهور فيض من مقالات الإطراء في الصحف البرجوازية الليبرالية والشعبية (أي البرجوازية الديمقراطية) . وليس من العجيب أن يطري الليبراليون والديمقراطيون البرجوازيون ميخايلوفسكي . ولكن لا يمكننا الا أن نحتج على التشويه الفاضح للحقيقة ، وافساد وعي البروليتاريا الطبقي حين يحاولون اعتبار ميخايلوفسكي اشتراكياً ، والبرهنة على امكانيـة التوفيق بين فلسفته ونظريته الاجتماعيتين وبين الماركسية .

كان ميخايلوفسكي واحداً من أفضل ممثلي افكار الديمقراطية البرجوازية الروسية ، ومن أفضل المعبرين عنها في الثلث الأخير من القرن الماضي . كان جمهور الفلاحين ، وهو الحامل الوحيد الجاد والجماهيري (اذا لم نأخـــذ بعين الاعتبار البرجوازية الصغيرة في المدن) للافكار الديمقراطية البرجوازية في روسيا ، يغطفي نوم عميق آنذاك . وقد حاول أفضل الناس الخارجين من هـذا الوسط الفلاحي ، وكذلك الناس الذين يفيضون عطفاً على وضعه الشاق ممن دعوا بالرازنوتشينيين ــ ومعظمهم من الطلاب والمعلمين وغيرهم من ممثلي المثقفين ــ أن ينوروا الجمـاهير الفلاحية النائمة ويوقظوها .

ومأثرة ميخايلوفسكي التاريخية العظيمة في الحركة البرجوازية الديمقراطية الهادفة الى تحرير روسيـا أنه كان يعطف عطفـاً حاراً على الفلاحين المضطهدين ،

ويدافع بقوة ضد مظاهر الظلم الاقطاعي بكافة اشكالها ، وأنه دعا في الصحافة العلنية الشرعية – وان كان فعل ذلك تلميحاً – الى التعاطف مع «العمل السري» واحترامه ، اذ كان ينشط في هذا العمل أشد الرازنوتشينيين الديمقراطيين تماسكاً واقداماً ، لا بل انه ساعد مباشرة هذا العمل السري . ولا يسعنا الا ان نذكر بالكلمة الطيبة مأثرة ميخايلوفسكي هذه الآن ، ونحن نرى هذا الموقف المارق والوقح الذي يقفه من العمل السري لا الليبراليون وحسب ، بل التصفويون الشعبيون من جماعة (روسكويي بوغاتستفو) وادعياء الماركسية أيضاً .

الا ان ميخايلوفسكي ، وهو النصير المتحمس للحرية ولجماهير الفلاحين المظلومة ، شارك الحركة البرجوازية نقاط ضعفها كلها . فكان يعتقد أن أعطاء الأرض كلها للفلاحين – وخصوصاً اعطاءها دون تعويض – عمل « اشتراكي » ، ولهذا كان يعتبر نفسه « اشتراكياً » . وهذا ، بالطبع ، خطأ كبير فضحه ماركس تماماً كما فضحته تجربة البلدان المتمدنة **كلها** ، حيث كان الديمقراطيون البرجوازيون **باستمرار** ، وحتى سقوط الاقطاعية والحكم المطلق سقوطاً كاملاً ، يتوهمون انفسهم « اشتراكيين » . ان اعطاء الارض كلها للفلاحين ، وخصوصاً بالشروط السابقة ، اجراء نافع جداً في ظل سيطرة الاقطاع ، لكنه اجراء برجوازي ديمقراطي . ويدرك اي اشتراكي ذكي هذه الحقيقة الآن . وتبرهن تجربة العالم كله أنه بقدر ما كانت الأرض التي حصل عليها الفلاحون من السادة الاقطاعيين اكبر (وأرخص) ، وبقدر ما كان مقدار « الأرض والحرية » اكبر ، كان تطور الرأسمالية يجري بصورة **أسرع** ، وطبيعة الفلاح **البرجوازية** تبرز ، هي ايضاً ، بصورة **أسرع** . واذا لم يفهم السيد ن . راكيتنيكوف (مجلة فرنايامسل عدد ٣)(٦٤) حتى الآن أن مساندة البروليتاريا للفلاحين **البرجوازيين** الديمقراطيين ضد الاقطاعيين ليست « اشتراكية » بالمرة ، فلا يبقى لنا الا ان

نبتسم لسذاجة كهذه . فمن الممل أن تدحض اخطاء رفضها العمال الواعون كلهم منذ أمد بعيد .

ولم تكن نظرات ميخايلوفسكي نظرات ديمقراطية برجوازية يخفيها لغو يدعي « صفة الاشتراكية» في المجال الاقتصادي وحده ، بل في الفلسفة وعلم الاجتماع ايضاً . وهذا هو فحوى « صيغة التقدم » التي ينادي بها ، ونظريته عن « الصراع من أجل الفردية » .. الخ .. لقد خطا ميخايلوفسكي خطوة الى الوراء في الفلسفة بالنسبة لتشرنيشفسكي ، اعظم ممثلي الاشتراكية الطوباوية في روسيا . كان تشرنيشفسكي مادياً، وظل حتى آخر أيامه (أي في الثمانينات من القرن الماضي) يسخر من التنازلات الصغيرة التي قام بها « أنصار الوضعيـــة » في تلك الأيام (الكنطيون والماخيون وغيرهم) أمام المثالية والصوفية . أما ميخايلوفسكي فقد انساق وراء هؤلاء الوضعيين بالذات . ولا زالت هذه الافكار الفلسفية الرجعية تسيطر حتى هذا الوقت في أوساط اتباع ميخايلوفسكي، وحتى في أوساط الشعبيين الأشد « يسارية » من امثال تشيرنوف .

أما ان « اشتراكيـــة » ميخايلوفسكي والشعبيين مجرد لغو ديمقراطي برجوازي فأمر برهنت صحته نهائياً تجربة الأعمال التي قامت بها مختلف الطبقات، وتجربة نضالها الجماهيري بين عامي ١٩٠٥ – ١٩٠٧ ، إذ وقفت غالبيـــة نواب الفلاحين في الدوما الاولى والثانية ، لا الى جانب الشعبيين اليساريين ، بل الى جانب « جماعات العمل » و « الاشتراكيين الشعبيين » . وهذا واقع لا يمكن نسيانه أو تشويهه . واضطر حتى الشعبيون اليساريون انفسهم ممثلين بأشخاص الســـادة فيخليـايف وتشيرنوف على الاعتراف ، اثر الماركسيين ، ببرجوازية الاشتراكيين الشعبيين من جماعات العمل !!.

وليطلب بعض العمال المتعاطفين مع الشعبيين اليساريين من معلميهم كافة

مؤلفات الشعبيين اليساريين ضد « الاشتراكيين الشعبيين من جماعات العمل » في عامي ١٩٠٦ - ١٩٠٧ .

لقد قدمت الانتفاضات الجماهيرية ، التي قام بها الفلاحون في هذه الأعوام، برهاناً قاطعاً على ان طبقة الفلاحين تقف موقفاً برجوازياً ديمقراطياً بالضبط . وما الشعبية اليسارية ، في أحسن الأحوال ، الا جناح صغير من الديمقراطية الفلاحية (أي البرجوازية) في روسيا. لقد ساند العمال الفلاحين (ضدالاقطاعيين) وسيظلون يساندونهم ، لكن الخلط بين هاتين الطبقتين ، الخلط بين الديمقراطية البرجوازية والبروليتاريا الاشتراكية ، مغامرة رجعية سيناضل العمال الواعون كلهم بحزم ضدها ، وخصوصاً الآن بعد ان برهنت تجربة النضال الجماهيري العظيمة بين عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٧ ، برهاناً اكيداً على التمايز بين الطبقات ، وعلى ان هذا التمايز يبرز بوضوح متزايد في قريتنا يوماً بعد يوم .

ظـــل ميخايلوفسكي طويلاً ، اكثر من عشر سنوات ، قائد مجموعة الادباء في « روسكويي بوغاتستفو » وروحها . فماذا كان من أمر هذه الجماعة في السنوات العظيمة سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٦ - ١٩٠٧ ؟

خرج منهـــم التصفويون الأول في وسط الديمقراطيين ! وليطلب بعض العمال ممن يعطفون على الشعبيين اليساريين من معلميهم كتيب آب الذي أصدرته « روسكويي بوغاتستفو » عام ١٩٠٦ ، وكل ما كتبه هؤلاء الشعبيون اليساريون حيث سموا هذه المجموعة « الكاديت الاشتراكيين » الخ !

لقد خرج من جماعة ميخايلوفسكي أوائل التصفويين ، الذين أعلنوا عام ١٩٠٦ عن انشاء « حزب علني » ، وتخلوا عن « العمـــل السري » وعن شعاراته قبل تصفويينا الماركسيين بسنتين أو ثلاث. وماذا نتج عن هذا « الحزب العلني » الذي أنشأه السادة من أمثال مياكوتين وبيشيخونوف وغيرهما من رفاق

ميخايلوفسكي؟ نتج الغياب التام لأي حزب ، وانقطاع تام «لهذه الجماعة العلنية» من انتهازيي الشعبية عن الجماهير .

لا يمكننا أن نحمل ميخايلوفسكي ، الذي لم يتخل أبداً عن العمل السري (أو بشكل أدق ، الذي توفي قبل وقت يسير من انتقال جماعته الى صفوف التصفويين) ، كامل المسؤولية عن انتهازية السيدين بيشخونوف وميا كوتين وشركاهما الذليلة المحتقرة . ولكن ، أليس مما له دلالته المحددة أن نرى من جديد ، في العدد الثالث من « فرنايا ميسل » المكرس لميخايلوفسكي ، الاتحاد العفن بين الشعبين « اليساريين » « والكاديت الاشتراكيين » ! واذا تذكرنا ما كتبه لافروف لميخايلوفسكي عن موقفه (لافروف) من الثوريين ، ألا يتحتم علينا أن نعترف بأن « الكاديت الاشتراكيين » هم ، بوجه عام ، خلفاؤه الأمناء ؟

إننا نحيي ذكرى ميخايلوفسكي تكريماً لما يتسم به نضاله ضد الاقطاعية « والبيروقراطية » (اعذروني على هذه الكلمة غير الدقيقة [٦٥] ..) من إخلاص وموهبة، ولاحترامه العمل السري ومساعدته له، لا لنظراته الديمقراطية البرجوازية، ولا لتردده وميله نحو الليبرالية ، ولا لجماعته من « الكاديت الاشتراكيين » في مجلة « روسكويي بوغاتستفو » .

إن الديمقراطية البرجوازية في روسيا، والفلاحين بالدرجة الأولى، تتأرجح بين البرجوازي الليبرالي وبين البروليتاري ، لا صدفة ، بل بحكم وضعها الطبقي . ومهمة العمّال هي تحرير الفلاحين من تأثير الليبراليين ، والنضال الذي لا هوادة فيه ضد التعاليم « الشعبية » .

طبع في ٢٢ شباط ١٩١٤
ج ٢٤ ص ٣٣٣ - ٣٣٧

اجتماع سوفيات بيترغراد

الذي انعقد في ١٢/٣/١٩١٩

من ردّ على سؤال خطي :

... قلائل ، بيننا، الذين يذكرون نظام القنانة (ولربمّا كانوا افراداً) .. فالشيوخ وحدهم يستطيعون أن يتذكروا ذلك. ومع هذا، يوجد أناس يذكرون ما كان يجري قبل ٣٠ - ٤٠ سنة . ويعرف كل من زار القرية أنه كان يمكن العثور في القرية قبل ٣٠ عاماً على عدد غير قليل من الشيوخ الذين كانوا يرددون : « كانت الامور أفضل في عهد القنانة، فالنظام كان اكثر توفراً ، والصرامة كانت موجودة ، ولم تكن النساء يرتدين ملابس بمثل هذا الترف » . وإذا قرأنا الآن أوسبينسكي ، ونحن نقيم له الآن تمثالاً بوصفه واحداً من أفضل الكتاب الذين وصفوا حياة الفلاحين ، يمكننا أن نجد وصفاً من الثمانينات والتسعينات لشيوخ ، وحتى لكهول شرفاء من الفلاحين ، كانوا يقولون إن الامور كانت أفضل في عهد نظام القنانة . فمن غير الممكن ، حين يُقضى على النظم الاجتماعية القديمة ، أن يُقضى عليها فوراً في وعي الناس ، إذ يبقى عدد قليل منهم يحنّ إلى القديم ..

ج ٣٨ ص ١٠ - ١١

من خطاب

« خداع الشعب بشعاري الحرية والمساواة »

١٩ أيار ١٩١٩ :

... ونتساءل : هل وقعنا في تناقض مع انفسنا عندما دعونا الكادحين إلى الثورة ووعدناهم بالسلام ، وألبنا العالم المتمدن كله ضد روسيا الضعيفة المنهكة المتأخرة والمحطمة، أم وقع في تناقض مع ابسط مفاهيم الديمقراطية والاشتراكية من له وقاحة قذفنا بهذا اللوم ؟ هذا هو السؤال . وسأعقد مقارنة حتى أتمكن من طرح هذا السؤال طرحاً عاماً ، نظرياً . إننا نتحدث عن الطبقة الثورية ، عن سياسة الشعب الثورية، وأنا اقترح عليكم أن نأخذ ثورياً واحداً وليكن تشرنيشفسكي، ولنقيم نشاطه . كيف سيقيم انسان جاهل تماماً هذا النشاط ؟ سيقول ، على الأرجح ، ما يلي : « وماذا ؟ حطم حياته . ألقي به في سيبيريا ، ولم يحصل على أي شيء » . هذا نموذج . وسنقول ، إذا سمعنا مثل هذا التقييم من انسان نجهله : « هذا التقييم صادر، في احسن الاحوال ، عن انسان في اقصى درجات الجهل ، انسان قد يكون بريئاً بما هو عليه من تفاهة لايستطيع معها أن يفهم أهمية مايقوم به ثوري واحد من نشاط ، مأخوذاً في سلسلة عامة من الاحداث الثورية » ؛ وقد نقول : « هذا التقييم يصدر عن نذل نصير للاقطاعية ، يريد ، واعياً ، تخويف العمال ليقعدهم عن الثورة » . لقد أخذت تشرنيشفسكي مثلاً لأنه لا يمكن أن تقوم

خلافات جوهرية في تقييم هذا الثوري الفرد بين من يدعون « الاشتراكية » ، مهما تباينت اتجاهاتهم . فكلهم يوافقون على أن تقييم انسان ثوري فرد ، من وجهة نظر ما قدم من تضيحات غير مجدية في الظاهر ، دون أخذ محتوى نشاطه وعلاقة هـذا النشاط بالثوريين السابقين واللاحقين بعين الاعتبار ، لدليل جهل مطبق أو دفاع شرير ومراء عن مصالح الرجعية ، مصالح الاضطهاد والاستغلال والظلم الطبقي . ولا مكان هنا لأي اختلاف ..

ج ٣٨ ص ٣٣٥ - ٣٣٦

* * *

من مقال

« في التعاون »

... فيم تكمن خيالية برامج التعاونيين القدامى ابتداء من روبرت أوين ؟ — تكمن في أنهم حلموا بتغيير العالم المعاصر تغييراً سلمياً عن طريق الاشتراكية، دون أن يحسبوا حساباً لمسألة أساسية كمسألة الصراع الطبقي واستيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية ، واسقاط سيطرة طبقة المستغلين. ولهذا السبب نحن على حق حين نعتبر هذه الاشتراكية « التعاونية » ، بأحلامها عن امكانية تحويل الاعداء الطبقيين الى متعاونين طبقياً ، والصراع الطبقي الى سلام طبقي (أي ما يسمى بالسلام الاهلي) بمجرد اشاعة التعاونيات بين السكان، خيالاً صرفاً، شيئاً رومنطيقياً ، لا بل مبتذلاً .

لقد كنا على صواب ، دون ادنى شك ، من وجهة نظر مهمة عصرنا الأساسية ، إذ لا يمكن للاشتراكية أن تتحقق دون صراع طبقي في سبيل الاستيلاء على السلطة السياسية في الدولة .

لكن انظروا كيف تغير الوضع الآن ، بعد أن اصبحت سلطة الدولة في يدي الطبقة العاملة ، وبعد ان سقطت سلطة المستغلين السياسية، وبعد ان اصبحت وسائل الانتاج كلها بيد الطبقة العاملة (طبعاً باستثناء تلك التي تتنازل عنها الدولة العمالية طوعاً وبشروط ولمدة زمنية معينة) .

إننا محقون الآن ، حين نقول ان نمو التعاون يعني بالنسبة لنا نمو الاشتراكية (ما عدا « الاستثناء الصغير » الذي أشرنا اليه سابقاً) . ونحن مضطرون ، في الوقت نفسه ، للاعتراف بالتبدل الجذري الذي طرأ على وجهة نظرنا الى الاشتراكية . وفحوى هذا التبدل الجذري أن النضال السياسي والثورة والاستيلاء على السلطة الخ كانت مركز الثقل في نشاطنا ، بينما انتقل هذا المركز الآن الى تنظيم العمل السلمي « التثقيفي » . وأنا مستعد ان اقول إن مركز الثقل بالنسبة لنا ينتقل الى « التثقيف » لولا هذه العلاقات الدولية، ولولا واجب الدفاع عن موقعنا في المجال الدولي . لكن ، لو تركنا هذا جانباً واكتفينا بالعلاقات الاقتصادية الداخلية ، فإن مركز ثقل عملنا ينصب عندنا الآن فعلاً على التثقيف .

وأمامنا الآن مهمتان رئيسيتان يشكل تنفيذهما عهداً بكامله : أولاهما تغيير جهازنا الاداري الذي لا يصلح لشيء ، والذي ورثناه كله عن العصر السابق. فنحن لم نستطع أن نقوم ، ولم يكن لدينا الوقت لأن نقوم بأي شيء جدي في هذا المجال خلال سنوات الصراع الخمس الماضية . وثانيتهما تنحصر في العمل الثقافي لأجل الفلاحين ، وهدفه الاقتصادي إشاعة التعاون بالضبط . فاذا استطعنا تنظيم الناس كلهم في تعاونيات ، نكون قد وقفنا بكلتا قدمينا فوق أرضية اشتراكية . لكن هذا الشرط ، شرط إشاعة التعاون الكامل ، يحتوي ضمناً على مستوى من الثقافة عند الفلاحين (الفلاحين بالضبط باعتبارهم يشكلون الجمهور الساحق من السكان) بحيث يتعذر إشاعة التعاون الكامل دون إحداث ثورة ثقافية كاملة .

لقد قال لنا خصومنا اكثر من مرة إننا نقوم بعمل أحمق ، هو محاولة غرس الاشتراكية في بلد لم يتوفر له مستوى كافٍ من الثقافة . لكنهم أخطأوا التقدير بقولهم إننا لم نبدأ من حيث كان ينبغي ان نبدأ ، وكما كانت تقضي بذلك النظرية (نظرية أدعياء العلم على اختلاف ألوانهم) ، وان الانقلاب الاجتماعي

والسياسي في بلدنا سبق الانقلاب الثقافي ، أي هـذه الثورة الثقافية التي نقف الآن وجهاً لوجه أمامها .

حسبنا الآن أن نقوم بهذه الثورة الثقافية ، حتى نصبح بـــلداً اشتراكياً تماماً . لكن هذه الثورة الثقافية تنطوي ، بالنسبة لنا ، على صعوبات غير عادية ، صعوبات ذات طابع ثقافي خالص (فنحن أميون) ومصاعب ذات طابع مادي ايضاً (فلكي نصبح مثقفين ينبغي تطوير وسائل الانتاج الى حدّ معين وينبغي تأمين قاعدة مادية معينة) .

طبع في ٢٦ و٢٧ / ٥ / ١٩٢٣
ج ٤٥ ص ٣٧٥ – ٣٧٧

* * *

في تولستوي

ليف تولستوي مرآة للثورة الروسية

قد يبدو اسم الكاتب العظيم ، مقروناً بثورة من المؤكد أنه لم يفهمها وابتعد عنها ، أمراً غريباً ومصطنعاً للوهلة الأولى. فكيف نسمي مرآة ما لا يعكس بشكل أكيد الظواهر عكساً صحيحاً ؟ لكن ثورتنا ظاهرة في غاية التعقيد : فبين القائمين بها والمشاركين فيها بصورة غير مباشرة كثير من العناصر الاجتماعية التي لم تكن تفهم بوضوح ، هي الأخرى ، ما يجري ، وكانت تتجنب المهام التاريخية الحقيقية التي طرحها مجرى الأحداث . فإذا كان أمامنا كاتب عظيم حقاً ، لا بد له أن يعكس في مؤلفاته بعض الجوانب الجوهرية في ثورتنا على الأقل.

وتبدي الصحافة الروسية الشرعية ، المتخمة مقالات ورسائل وملاحظات بمناسبة يوبيل تولستوي الثمانين ، أقل ما يكون من الاهتمام بتحليل مؤلفاته من وجهة نظر طابع الثورة الروسية ، وقواها المحركة . فهذه الصحافة تطفح كلها رياء يثير القرف ، ورياء مزدوجاً : رسمياً وليبرالياً . أما النوع الأول فرياء وقح من كتّاب صغار مأجورين أُمروا بالأمس بالتشنيع على تولستوي ويُؤمرون اليوم بالكشف عن وطنيته ، وبمحاولة التزام الأدب واللياقة أمام اوروبا . أما أن هذا النوع من الكتاب قد دُفع له لقاء كتاباته فأمر يعرفه الجميع ، ولا يستطيع أحد منهم ان يماري فيه . أما الرياء الليبرالي فأشد ضرراً وخطراً من الأول ، لأنه أذكى . فإذا ما استمعنا الى المهللين الكاديت من صحيفة « ريتش »[٦٦] ، يبدو لنا وكأن تعاطفهم مع تولستوي في غاية الإخلاص والكمال . إلا أن تغنيهم

المدروس « بالباحث العظيم عن الله » ، وكلامهم المزوّق فيه ، ليسا إلا زيفاً خالصاً ؛ إذ أن الليبرالي الروسي لا يؤمن بإله تولستوي ، ولا يتعاطف مع نقد تولستوي للنظام القائم . إنه يتمسح باسم له شعبيته ليزيد من رأسماله السياسي الصغير ويمثل دور قائد المعارضة الوطنية العامة ، ويحاول أن يخنق بضجيج الكلمات وقرقعتها الحاجة الملحة الى إعطاء جواب صريح وواضح عن السؤال التالي : ما الذي أثار هذه التناقضات الصارخة في « التولستوية » ، وعن أي عيوب ونقاط ضعف تعبّر هذه التناقضات ؟

صارخة حقاً هي التناقضات في مؤلفات تولستوي ونظراته وتعاليمه ومدرسته . نرى ، من جهة ، فناناً عظيماً لم يهبنا لوحات لا مثيل لها للحياة الروسية وحسب ، بل مؤلفات أدبية من الدرجة الأولى على المستوى العالمي أيضاً ، ونرى ، من جهة أخرى ، اقطاعياً مأخوذاً بالمسيح ؛ نرى ، من جهة ، احتجاجاً رائعاً في صراحته وقوته وإخلاصه على الدجل والزيف الاجتماعيين ، ونرى ، من جهة أخرى ، « تولستوياً » أي إنساناً ضعيفاً هستيرياً مُضْنى يدعى بالمثقف الروسي ، يدق على صدره علناً أمام الناس ويقول : « أنا سيء ، أنا دنيء ، لكني أهتم بكمالي الذاتي . لم أعد آكل اللحم وأكتفي الآن بالأرز » . نرى ، من جهة ، نقداً لا يرحم للاستغلال الرأسمالي وفضحاً لأعمال العنف التي تمارسها الحكومة ولمهازل القضاء والادارة الحكومية وكشفاً عن عمق التناقضات بين ازدياد الثروة وإنجازات الحضارة وبين آلام العمال وازدياد توحشهم ، ونرى ، من جهة أخرى ، دعوة مجنونة لعدم مقاومة الشر بالعنف ؛ نرى ، من جهة ، أكثر أنواع الواقعية تبصراً وتمزيقاً للأقنعة على اختلافها ، ونرى ، من جهة أخرى ، دعوة إلى استبدال الكهنة الموظفين بكهنة عن قناعة داخلية ، أي غرس أكره أنواع الروح الكهنوتية لأنها أذكاها . ويقيناً :

أنت فقيرة وأنت غنية

أنت عظيمة وأنت ضعيفة

يا أمنا روسيا(٦٧)

من الطبيعي ، إذاً ، أن لا يستطيع تولستوي ، في ظل تناقضات كهذه ، أن يفهم ، على الاطلاق ، لا الحركة العمالية ودورها في النضال من أجل الاشتراكية ، ولا الثورة الروسية . إلا ان التناقضات في نظرات تولستوي وتعاليمه ليست صدفة ، بل تعبيراً عن تلك الظروف المتناقضة التي كانت تحيط بالحياة الروسية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . إذ ما كادت القرية ذات النظام الأبوي تتخلص من نظام القنانة ، حتى أخذ رأس المال وخزينة الحكومة تعملان فيها نهباً وإفقاراً ، وأخذت الأسس القديمة في الاقتصاد الفلاحي والحياة الفلاحية ، وهي أسس توطدت خلال قرون ، تتزعزع بسرعة فائقة . وعلينا ألا نقيم التناقضات في آراء تولستوي من وجهة نظر الحركة العمالية المعاصرة والاشتراكية المعاصرة (ومثل هذا التقيم ضروري بالطبع ، لكنه غير كاف) ، بل من وجهة نظر الاحتجاج الذي حتمت القرية الروسية ذات النظام الأبوي وجوده ، وهو احتجاج ضد الرأسمالية المتقدمة ، وضد افقار الفلاحين ونزع أراضيهم منهم : فتولستوي ، نبياً يكشف للانسانية طريقاً جديدة للخلاص ، انسان مضحك . وتافهون تماماً ، لهذا السبب ، هم « التولستويون » الروس والأجانب ، الذين يريدون أن يجعلوا من أضعف نقطة بالذات في تعاليم تولستوي عقيدة . تولستوي عظيم بوصفه المعبر عن أفكار ملايين الفلاحين الروس ونفسيتهم عشية الثورة البرجوازية في روسيا . وتولستوي أصيل ، إذ ان أفكاره ، إذا أخذت مجتمعة ، تعبر بالضبط عن خصائص ثورتنا بوصفها ثورة فلاحية برجوازية . فالتناقضات في آراء تولستوي ، من وجهة النظر هذه ، مرآة حقيقية لتلك الظروف

المتناقضة التي أحاطت بنشاط الفلاحين التاريخي في ثورتنا . فمن جهة ، تكدست جبال من البغض والكراهية والعزم اليائس ، نتيجة قرون من ظلم نظام القنانة وعشرات السنين من الامعان في افقار الفلاحين. ويتجلى السعي الى نسف الكنيسة الرسمية والاقطاعيين والحكومة الاقطاعية من أسسها والى القضاء على كافة أشكال ملكية الأرض ونظمها ، والى تطهيرها واقامة مجتمع فلاحين صغار أحرار متساوي الحقوق على انقاض الدولة الاقطاعية البوليسية ، يتجلى هذا السعي في كل خطوة تاريخية قام بها الفلاحون في ثورتنا . ولاشك في أن المضمون الفكري لكتابات تولستوي تتطابق مع هذا السعي الفلاحي أكثر بكثير مما تتطابق « مع الفوضوية المسيحية » المجردة ، كما تقيم في بعض الأحيان « منظومة » أفكاره .

ومن جهة أخرى ، كان الفلاحون يتخذون في سعيهم الى أشكال جديدة من الحياة المشتركة موقفاً لا واعياً الى درجة كبيرة ، موقفا تقليدياً ، أبوياً وأحمق من المسائل التالية . مثلاً : كيف يجب ان تكون هذه الحياة المشتركة ! بأي اشكال النضال يجب انتزاع الحرية ؟ من هم الذين يستطيعون أن يكونوا قادة الفلاحين في هذا النضال ؟ ماذا سيكون موقف البرجوازية والمثقفين البرجوازيين من مصالح الثورة الفلاحية ؟ ولماذا يجب اسقاط السلطة القيصرية بالقوة للقضاء على الملكية الاقطاعية للأرض ؟ لقد علمت الفلاح حياته الماضية كلها ان يكره السيد والموظف ، لكنها لم تعلمه ، ولم يكن بإمكانها ان تعلمه ، اين يجب عليه ان يبحث عن جواب على هذه الأسئلة كلها . ففي ثورتنا لم يشارك فعلياً في النضال الا القسم الأصغر من الفلاحين الذين لم ينظموا انفسهم الا قليلاً لهذه الغاية ، كما قامت قلة قليلة منهم فقط تحمل السلاح لسحق اعدائها ، والقضاء على خدم القيصر والمدافعين عن الاقطاعيين . اما الغالبية العظمى من الفلاحين فكانت تبكي وتصلي ، تتفلسف وتحلم ، تكتب استعطافات وتبعث « بالوسطاء » ـ تماماً

بروح ليف نيكولايتش تولستوي ! وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات ، كان من شأن هذا العزوف التولستوي عن السياسة والامتناع التولستوي عنها، وفقدان الاهتمام بها وفهمها ، أن أقلية الفلاحين فقط سارت وراء البروليتاريا الثورية ، بينما وقعت الغالبية منهم فريسة اولئك المثقفين البرجوازيين المداهنين العديمي المبادىء، الذين كانوا يحملون اسم الكاديت ، ويهرعون من اجتماعات جماعات العمل الى غرفة انتظار ستولوبين ، يستعطون ويساومون ويصالحون أو يعدون بالمصالحة ، الى ان طردوا ركلًا بجزم الجنود . ان أفكار تولستوي لمرآة ضعف ثورتنا الفلاحية ونقائصها وانعكاس لضعف عزيمة القرية ذات النظام الابوي ، ولما يتحلى به « الموجيك الحسن التدبير » من جبن وجمود .

خذوا انتفاضات الجنود في عامي ١٩٠٥ – ١٩٠٦ . ان التركيب الاجتماعي لمناضلي ثورتنا هؤلاء وسط بين طبقتي الفلاحين والبروليتاريا . كانت اقليتهم من البروليتاريا، ولهذا السبب لم تظهر الحركة العمالية ، حتى بشكل تقريبي، مثل ذلك التلاحم الروسي العام ، ومثل هـذا الوعي الحزبي اللذين أظهرتهما البروليتاريا التي اصبحت ديمقراطية اشتراكية كأنما بفعل عصا سحرية . ومن ناحية أخرى ، ليس ما هو أخطأ من الرأي الذي يزعم ان سبب اخفاق انتفاضات الجنود كان فقدان قادة من الضباط . والامر على العكس من ذلك ، اذ تجلى تقدم الثورة الهائل منذ أيام الارادة الشعبية (٦٨) ، على وجه الدقة ، في ان الذي حمل السلاح ضد السلطة كان ذلك « القطيع الجاهل » ، الذي ألقى عمله المستقل الذاتي الرعب في نفوس الاقطاعيين الليبراليين والضباط الليبراليين . كان الجندي ممتلئاً عطفاً على قضية الفلاح ، وكانت عيناه تلمعان عندما يذكر اسم الأرض أمامه . وكثيراً ما كانت السلطة تنتقل في القطعات الى أيدي جماهير الجنود . الا انهم لم يستخدموا هذه السلطة الاستخدام الحازم . كان الجنود مترددين ، فبعد يومين وأحياناً بعد

بضع ساعات ، كان الجنود يطلقون سراح الضباط الموقوفين ، بعد أن يكونوا قد أجهزوا على واحد منهم يكرهونه ، ثم يأخذون بالتفاوض معهم وينتهي الأمر بأن يعدم الجنود ويجلدوا ، فيعودون يحملون نيرهم من جديد ـ تماماً بروح ليف نيكولايتش تولستوي!

لقد عكس تولستوي حقداً كان يغلي ، وسعياً إلى الأفضل اختمر ، ورغبة في الخلاص من الماضي ، كما عكس عدم النضوج في الاسترسال في الأحلام وفي عدم التربية السياسية واللين الثوري . إن الظروف الاقتصادية التاريخية هي التي تفسر ضرورة بروز نضال الجماهير الثوري واستعدادها لهذا النضال ، كما تفسر تعاليم تولستوي ، التي كانت تدعو إلى عدم مقاومة الشر ، والتي كانت اخطر الأسباب التي أدت إلى إخفاق الجولة الأولى من الثورة .

يقال إن الجيوش المهزومة تتعلم جيداً . إن مقارنة الطبقات الثورية بالجيوش صحيحة بالطبع ، وإنما بمعنى ضيق جداً . فتطور الرأسمالية يغير في كل ساعة ويصعد تلك الظروف التي كانت تدفع الى النضال الديمقراطي الثوري بملايين الفلاحين ، الذين رص صفوفهم الحقد على الاقطاعيين والملاكين العقاريين وحكومتهم. فنمو التبادل في أوساط الفلاحين انفسهم ، وسيطرة السوق والمال يزيحان بصورة متزايدة الماضي الأبوي القديم ، وايديولوجيا تولستوي الأبوية .

لكن الدروس المستقاة من السنوات الأولى للثورة ، ومن الهزائم الأولى في النضال الثوري الجماهيري ، هي ، بحد ذاتها ومن دون شك، ضربة قاتلة موجهة إلى ما كان في الجماهير سابقاً من خور وتمزق . لقد أصبحت الحدود الفاصلة اكثر حدة وبروزاً . وتوضحت الفروق بين الطبقات والأحزاب . وتحت مطارق الدروس التي اعطانا إياها ستولوبين ، وبالتحريض المستمر الذي يباشره الديمقراطيون الاشتراكيون الثوريون، ستدفع جماهير الفلاحين الديمقراطية من بين صفوفها حتماً،

لا البروليتاريا الاشتراكية وحدها ، بمناضلين يكونون اكثر تمرساً، وأقل تعرضاً للسقوط في خطإنا التاريخي ألا وهو التولستوية !

طبع في ١١ ايلول ١٩٠٨
ج ١٧ ، ص ٢٠٦ – ٢١٣

ل . ن. تولستوي

توفي ليف تولستوي . توفي الكاتب الذي عكست اهميته العالمية بوصفه فناناً ، وشهرته العالمية بوصفه مفكراً وواعظاً ، كل منها على طريقتها الخاصة ، الأهمية العالمية للثورة الروسية .

برز تولستوي فناناً عظيماً منذ عهد القنانة . فقد وصف في عدد من مؤلفاته العبقرية ، التي كتبها في فترة نشاطه الأدبي التي امتدت ما يزيد على نصف قرن روسيا القديمة في الدرجة الأولى ، روسيا ما قبل الثورة ، روسيا التي ظلت ، حتى بعد عام ١٨٦١ ، في حالة نصف قنانة ، روسيا القروية ، روسيا الملاك العقاري والفلاح . واستطاع تولستوي ، وهو يصف هذه الحقبة التاريخية من حياة روسيا ، أن يطرح في مؤلفاته عدداً من المسائل العظيمة ، وأن يسمو إلى درجة من القدرة الفنية ، مكنت مؤلفاته من أن تشغل واحدة من المراتب الأولى في الأدب العالمي. فكان اعداد الثورة في بلد رازح تحت نير القنانة خطوة إلى الأمام في مضمار التطور الفني للانسانية كلها بفضل عبقرية تولستوي في وصفه . إن أقلية ضئيلة من الناس ، حتى في روسيا نفسها ، تعرف تولستوي الفنان . ولكي تصبح مؤلفاته العظيمة في متناول الناس جميعهم فعلاً ، لا بد من النضال الدؤوب ضد النظام الاجتماعي ، الذي فرض على الملايين وعشرات الملايين من الناس حياة الجهل والبلادة والعمل الشاق والفقر ، لا بد من انقلاب اشتراكي .

ولم يبدع تولستوي فقط مؤلفات فنية ستقدرها الجماهير وستقرأها دائماً ، عندما ستخلق لنفسها ظروف حياة جديرة بالانسان ، وبعد أن تخلع عنها نير الملاكين العقاريين الرأسماليين ، بل عرف أيضاً كيف يصف بقوة رائعة الحالة النفسية للجماهير الواسعة التي يظلمها النظام القائم ، ويصور وضعها ويعبر عن مشاعر الاحتجاج والغضب التي تتفجر فيها بصورة عفوية . ولقد جسد تولستوي ، وهو الذي ينتمي اساساً إلى الحقبة الواقعة بين عامي ١٨٦١ - ١٩٠٤ ، في مؤلفاته بوصفه فناناً ومفكراً وواعظاً ، جسد بوضوح مدهش ما تتسم به الثورة الروسية الأولى من أصالة تاريخية ، جسد قوتها وضعفها .

إن احدى السمات الرئيسية المميزة لثورتنا تتلخص في أنها كانت ثورة برجوازية فلاحية في عهد بلغت الرأسمالية فيه درجة من التطور ، عالية جداً في العالم كله ، ورفيعة نسبياً في روسيا . لقد كانت ثورة برجوازية ، لأن مهمتها المباشرة كانت الإطاحة بالسلطة القيصرية الاستبدادية والملكية القيصرية وتحطيم ملكية الاقطاعيين للأرض ، لا اسقاط سيطرة البرجوازية . وكان الفلاحون ، بنوع خاص ، لا يدركون هذه المهمة الأخيرة ، ولا يدركون ما يميزها من المهام النضالية الأقرب والأكثر مباشرة . وكانت أيضاً ثورة برجوازيه فلاحية ، لأن الظروف الموضوعية دفعت إلى المقام الاول مسألة تغيير ظروف حياة الفلاحين تغييراً جذرياً ، وهدم الشكل القديم المنحدر من العصور الوسطى لملكية الأرض ، « وتمهيد التربة » للرأسمالية ، لأن الظروف الموضوعية دفعت بجماهير الفلاحين إلى حلبة نشاط تاريخي مستقل نوعاً ما .

وقد انعكست في مؤلفات تولستوي قوة الحركة الفلاحية الجماهيرية بالذات وضعفها ، قدرتها وضيق افقها . فكان احتجاجه الحار ، المتحمس والحاد بلاهوادة في بعض الأحيان ، على الدولة والكنيسة الرسمية البوليسية ، المعبر عن مزاج

الديمقراطية الفلاحية البدائية ، التي كدست فيها قرون من القنانة وتعسف الموظفين ونهبهم ، ومن رياء الكنيسة وخداعها واحتيالها ، جبالاً من الكراهية والغضب . ويعكس رفضه العنيد الملكية الخاصــة للأرض نفسية جماهير الفلاحين في فترة تاريخية أصبحت فيها الطريقة القديمة المنحدرة من العصور الوسطى في ملكية الأرض والطريقة الرسمية القائمة على منح قطع الأرض ، والملكية الاقطاعية ، اصبحت نهائياً عقبة لا تطاق أمام تطور البـــلد في المستقبل ، وأصبح هدم هـذا النوع القديم من الملكية بمنتهى الحزم والسرعة أمراً لا يقبــل التأخير . وفضحه الدائم الرأسمالية ، المفعم بأعمق المشاعر واشد الاستياء ، يعبر عن مدى رعب الفلاح الأبوي وقد أخذ يزحف عليه عدو جديد ، خفي وغير مفهوم ، آتيا من مكان ما من المدينة أو من خارج البلد ، يقوض « الاسس » القديمة لحياة الريف ، ويحمل معه خراباً لم يعهد له مثيل من قبل ، كما يحمل البؤس والموت جوعاً والهمجية والدعارة والزهري ، أي نكبات « عهد التراكم البدائي » كلها متفاقمـة تفاقماً خطيراً بنقل أحدث أساليب النهب التي اخترعها السيد كوبون إلى الأرض الروسية .

إلا أن هذا المحتج المتحمس ، والفاضح المندفع ، والناقد العظيم ، أظهر في مؤلفاته ، مع ذلك ، عدم ادراك لأسباب الأزمة الزاحفة على روسيا ، ولوسائل الخروج منها ، يليق بفلاح أبوي ساذج ، لا بكاتب أوروبي الثقافة . فتحول صراعه ضد الدولة الاقطاعية والبوليسية وضد الملكية إلى انكار للسياسة ، وأدى إلى مذهبه القائم على « عدم مقاومة الشر » ، وإلى الابتعاد نهائياً عن نضال الجماهير الثوري في اعوام ١٩٠٥ – ١٩٠٧ . واقترن صراعه ضد الكنيسة الرسمية بالدعوة إلى دين جديد مطهر ، أي الى سم جديد مصفى ، أفعل في الجماهـــير المضطهدة . ولم يؤد به انكاره للملكية الخاصة للأرض الى تركيز الكفاح كله ضد العدد الحقيقي ، أي ملكية الاقطاعيين للأرض واداة سلطتها السياسية ، أي الملكية ، بل أدى الى تأوهات حالمـة غامضة وعاجزة . واقترنت تعريته للرأسمالية ، ولما

تعود به على الجماهير من مصائب ، بموقف من اللامبالاة التامة بالنضال التحرري العالمي الذي تخوضه البروليتاريا الاشتراكية العالمية .

وليست التناقضات في آراء تولستوي تناقضات فكره الشخصي فقط، بل إنها، أيضاً، انعكاس للظروف المتناقضة والمعقدة غاية التناقض والتعقيد،والتأثيرات الاجتماعية والتقاليد التاريخية ، التي ساهمت كلها مجتمعة في تحديد نفسية مختلف الطبقات ، ومختلف الفئات في المجتمع الروسي في الحقبة **التالية** للإصلاح ، **والسابقة** للثورة .

وعليه لايمكن تقييم تولستوي تقيماً صحيحاً إلا من وجهة نظر تلك الطبقة التي برهنت ، بدورها السياسي ونضالها اثناء الانفجار الأول لهذه التناقضات ، أي خلال الثورة ، على أن رسالتها هي قيادة النضال من أجل حرية الشعب وتحرير الجماهير من الاستغلال ، وبرهنت على وفائها اللامتناهي لقضية الديمقراطية، وقدرتها على النضال ضد ضيق افق الديمقراطية البرجوازية (بما فيها الديمقراطية الفلاحية) وعدم تماسكها . إن مثل هذا التقيم غير ممكن إلا من وجهة نظر البروليتاريا الاشتراكية الديمقراطية .

انظروا إلى تقييم تولستوي في الصحف الحكومية . إنها تذرف دموع التماسيح مؤكدة احترامها « للكاتب العظيم » ، ومدافعة في الوقت نفسه عن « المجمع المقدس » ، في حين أن الآباء القديسين لم يكادوا ينتهون بعد من اقتراف خسة بالغة بإرسالهم الكهنة إلى تولستوي وهو يحتضر ليقولوا للشعب خداعاً إن تولستوي قد « تاب » . لقد حرم المجمع المقدس تولستوي(٦٩) . حسناً . سوف تحسب له هذه المأثرة حين يصفي الشعب حسابه مع الموظفين الذين يلبسون ثياب الكهنة ، ومع درك يسوع ورجال محاكم التفتيش الجهلة الذين أيدوا مذابح اليهود وغيرها من المآثر التي قامت بها عصابة « المائة السود » القيصرية .

وانظروا إلى تقييم الصحف الليبرالية لتولستوي . إنها تعمد إلى تلك الجمل الفارغة ، الليبرالية الرسمية والجامعية المطروقة والممجوجة ، حول « صوت الانسانية المتمدنة » و « الصدى العالمي الاجماعي » و « أفكار الحق والخير » الخ. - وهي الجمل التي كان تولستوي ينهال بسياط النقد على العالم البرجوازي لاستعماله إياها، وهو محق في ذلك كل الحق . إن الصحف الليبرالية لا تستطيع أن تفصح بوضوح وصراحة عن تقييمها لآراء تولستوي في الدولة والكنيسة والملكية الخاصة للأرض ، وفي الرأسمالية ، لا لأن المراقبة تعيقها عن ذلك ، فالرقابة، على العكس، تساعدها على الخروج من المأزق ، بل لأن كل موضوعة وردت في نقد تولستوي صفعة لليبرالية البرجوازية ، لأن طرح تولستوي لألح مسائل عصرنا وألعنها هذا الطرح الجريء والصريح والحاد الذي لا يرحم ، يعتبر في حد ذاته لطمة للجمل التقليدية والتعابير المطروقة والأكاذيب الملتوية « المتمدنة التي يمتلىء بها أدبنا الليبرالي » (والليبرالي الشعبي). فالليبراليون يدافعون بكل قواهم عن تولستوي ويقفون بكل قواهم ضد المجمع المقدس ، ويؤيدون في الوقت نفسه ... « الفيخيين » الذين « يمكن النقاش » معهم ، والذين « يجب » التعايش معهم في حزب واحد « ويجب » العمل معهم في السياسة والأدب . أما الفيخيون هؤلاء فأنطون فولينسكي هو الذي يعانقهم .

يبرز الليبراليون ، في الدرجة الأولى ، الموضوعة القائلة ان تولستوي هو « الضمير العظيم » . أليست هذه جملة فارغة تردّدها بمختلف الأساليب « نوفويي فريميا » ومثيلاتها ؟ أليس هذا تهرباً من المسائل المشخصة للديمقراطية والاشتراكية التي طرحها تولستوي ؟ أليس هذا إبرازاً لما يعبر عن أوهام تولستوي وليس عن عقله، لما يعود منه للماضي وليس للمستقبل، لإنكاره السياسة وتبشيره بالكمال الأخلاقي الذاتي ، وليس لاحتجاجه العنيف على السيطرة الطبقية مهما كانت ؟

لقد توفي تولستوي ومضت روسيا ما قبل الثورة ، روسيا التي عبّر هذا الفنان العبقري عن ضعفها وعجزها في فلسفته ، وصوّرهما في مؤلفاته . إلاّ ان في تراثه أشياء لم تذهب مع الماضي، بل بقيت للمستقبل . ولسوف تأخذ بروليتاريا روسيا هذا التراث وتدرسه ، وستشرح لجماهير الكادحين والمستغَلين معنى انتقاده للدولة والكنيسة والملكية الخاصة للأرض، لا لكي تقنع الجماهير بالتكامل الذاتي وبالتأوهات على حياة حسب مشيئة الله ، بل لكي تنهض فتسدد ضربة جديدة للنظام الملكي القيصري ، ولملكية الاقطاعيين الأرض ، اللذين لم يُكسرا عام ١٩٠٧ الاّ كسراً طفيفاً ، واللذين يجب تحطيمهما نهائياً . وستشرح البروليتاريا للجماهير نقد تولستوي للرأسمالية ، لا لتقنع بصب اللعنات على رأس المال وسلطة المال ، بل لكي تتعلم أن تعتمد في كل خطوة من خطوات حياتها ونضالها على المنجزات التقنية والاجتماعية التي وفرتها الرأسمالية ، ولكي تتعلم كيف تتلاحم جيشاً واحداً يعدّ الملايين من المناضلين الاشتراكيين الذين سيطيحون بالرأسمالية ويقيمون مجتمعاً جديداً ، ينتفي منه بؤس الشعب واستغلال الانسان للانسان ..

ج ٢٠ ، ص ١٩ - ٢٤
طبع في ٢٩ / ١١ / ١٩١٠

ن. ل. تولستوي والحركة العمالية المعاصرة

كان لوفاة تولستوي صداها في أوساط العمال الروس في مـــدن روسيا الكبيرة كلها تقريباً ، وقـد عبروا ، بشكل او بآخر ، عن موقفهم من الكاتب الذي اعطى العالم مجموعـة من أروع المؤلفـات الفنية رفعته إلى مصاف الكتاب العظام في العالم كله ، وعـن موقفهم من المفكر الذي طرح بقوة وثقة وإخلاص عظيم عدداً من المسائل تمسّ سمات النظام السياسي والاجتماعي الراهن الأساسية . ويمكن القول ، بصورة عـامة ، ان هذا الموقف قـد انعكس في البرقية(٧٠) التي ارسلها النواب العمال في الدوما الثالثة ونشرتها الصحف .

بدأ تولستوي نشاطه الأدبي في ظل نظام القنانة ، ولكن في فترة كان من الواضح فيهـا ان هذا النظام يعيش ايامـه الأخيرة . ويقـع نشاط تولستوي الرئيسي في حقبة من التاريخ الروسي تمتد بين نقطتي انعطاف فيه ، أي بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ . فخلال هذه الحقبة كلها نفذت آثار القنانة ورواسبها المباشرة الى حياة البلد الاقتصادية (وخصوصاً في الريف) والسياسية كلهـا . وفي الوقت نفسه كانت هذه الحقبة ، على وجه الضبط ، فترة نموّ الرأسمالية السريـع من الأسفل ، وغرسها من الأعلى .

ففيم تجلت رواسب القنانة ؟ تجلت ، قبل كل شيء وبأوضح صورة ، في أن الزراعة في روسيا ، وهي بلد زراعي في الدرجة الاولى ، كانت آنذاك في أيدي فـلاحين حل بهم الخراب والفقر ، يديرون اقتصاداً قديماً بدائيـاً فوق قطع قديمة من الأرض تحدرت اليهم من عهد القنـــانة ، واقتطعت منها في عام ١٨٦١

أقسام لصالح الاقطاعيين . ومن جهة أخرى كانت الزراعة في روسيا الوسطى في ايدي اقطاعيين يزرعون الأراضي بكدح الفلاح، ومحراث الفلاح، وحصان الفلاح، مقابل « الأراضي المقتطعة » والاعشاب والسقاية الخ . وقد كان هذا ، في حقيقة الأمر ، نظام عهد القنانة القديم في ادارة الزراعة . وكان نظام روسيا السياسي في تلك الفترة مشبعاً هو الآخر بروح القنانة . ويتضح هذا من تركيب جهاز الدولة حتى المحـــاولات الأولى لتغييره في عام ١٩٠٥ ، ومن هيمنة النبلاء – ملاكي الأراضي – على أمور الدولة، ومن تحكم الموظفين المطلق الذي كانوا بشكل رئيسي، والكبار منهم خصوصاً ، من النبلاء – ملاكي الأراضي .

أخذت روسيا الأبوية القديمة هـــذه تنهار بسرعة بعد عام ١٩٦١ بتأثير الرأسمالية العالمية . فشرع الفلاحون ،الذين اصبحوا عرضة لجوع وموت وخراب لم يعهد له مثيـــل من قبل ، يفرون الى المدن مخلفين وراءهم أراضيهم . وأخذت الخطوط الحديدية تمدد، والمصانع والمعامل تبنى بسرعة بفضل «اليد العاملة الرخيصة» من الفلاحين الذين حل بهم الخراب . فنما الرأسمال المـــالي الكبير ، والتجارة والصناعة الكبيرتان في روسيا .

وهذا التداعي السريـع والشاق والحاد لتلك « الدعائم » القديمة كلها في روسيا القديمة ، هو الذي انعكس في مؤلفات تولستوي الفنـــان ، وفي آراء تولوستوي المفكر .

كان تولستوي على معرفة رائعة بروسيا الفلاحية وبحيـــاة الاقطاعي والفلاح . وقد رسم في مؤلفاته الفنية صوراً لهذه الحياة هي من روائع الأدب العالمي . وقد زاد التداعي الحاد « للدعائم القديمة » كلها في روسيا الفلاحية من انتباه تولستوي الى ما يجري حوله ، ومن عمق اهتمامه به ، وأدّى الى تحول في نظرته الى العالم كلها . كان تولستوي ينتمي،أصلاً وتربية، الى انبل النبلاء من الاقطاعيين

في روسيا . الا انه قطع صلته بكل ما في هذه البيئة من آراء مألوفة وراسخة ، وانهال ، في مؤلفاته الأخيرة ، بالنقد العنيف على كافة نظم الدولة والكنيسة والمجتمع والاقتصاد المعاصرة القائمة على استبعاد الجماهير وبؤسها وخراب الفلاحين والملاك الصغار بوجه عام ، وعلى العنف والرياء الذين يتغلغلان في الحياة المعاصرة كلها من أعلاها الى ادناها .

ليس نقد تولستوي بالجديد . فهو لم يقل شيئاً لم يقله قبله ، بزمن طويل ، الكتاب الذي وقفوا الى جانب الكادحين في الأدبين الأوروبي والروسي على حد سواء . لكن أصالة نقد تولستوي وأهميته التاريخية في أن هذا النقد يعبر بقوة ، لا يمتلكها الا العباقرة من الفنانين ، عن التصدع في آراء أوسع الجماهير الشعبية في روسيا في الفترة المذكورة ، وعلى الاخص في روسيا الريفية ، روسيا الفلاحية . ويتميز نقد تولستوي للأنظمة المعاصرة عن نقد ممثلي الحركة العمالية المعاصرة لهذه الانظمة نفسها ، بأنه ينظر الى الامور من وجهة نظر الفلاح الابوي الساذج ، ويضمّن تعاليمه ونقده نفسية هذا الفلاح . واذا كان نقد تولستوي يتميز بمثل هذه القوة والاندفاع والقدرة على الاقناع والنضارة والاخلاص والجرأة التي لا تعرف الوجل في محاولته الوصول إلى الجذور ، والكشف عن السبب الحقيقي لمصائب الجماهير ، فلأن هذا النقد يعبر بالفعل عن تحول في نظرة ملايين الفلاحين الذين ما كادوا يتحررون من القنانة حتى رأوا ان هذه الحرية تعني فظائع جديدة ، فظائع الافلاس والموت جوعاً ، وحياة التشرد بين « نصابي » المدينة الخ . لقد عبّر تولستوي عن حالتهم النفسية تعبيراً بلغ من الامانة حداً جعل تولستوي نفسه يحمّل تعاليمه سذاجتهم ، وعزوفهم عن السياسة ، وصوفيتهم ، ورغبتهم في الهروب من الدنيا ، « وعدم مقاومتهم الشر » ، ولعناتهم العاجزة ، يصبونها على الرأسمالية « وسلطة المال » .

ففي تعالم تستوي امتزج احتجـــاج ملايين الفلاحين ويأسهم في كل واحد .

ان ممثلي الحركة العمالية المعاصرة يرون أن هناك ما يجب الاحتجاج عليه، ولكن ليس هناك ما يدعو الى اليأس . اليأس من صفات الطبقات المحتضرة، في حين ان طبقة العمال المأجورين تنمو وتتطور وتتوطد بشكل حتمي في المجتمعات الرأسمالية كلها ، بما في ذلك روسيا . اليأس من صفات الذين لا يفهمون أسباب الشر ، ولا يجدون منه مخرجاً ، ولا هم بالقادرين على النضال . والبروليتاريا الصناعية المعاصرة ليست في عداد هذه الطبقات .

طبع في ٢٨ تشرين الثاني عام ١٩١٠
ج ٢٠ ، ص ٣٨ - ٤١

* * *

تولستوي والنضال البروليتاري

سلّط تولستوي بقوة وإخلاص شديدين سيف النقد على الطبقات المسيطرة وفضح بوضوح كبير ما في صميم المؤسسات التي يستند اليها المجتمع المعاصر، كنيسة وقضاء وروحاً عسكرية وزواجاً «شرعياً» وعلماً برجوازياً، من بهتان. إلا أن تعاليمه كانت على تناقض تام مع حياة البروليتاريا، حفارة قبر النظام القائم، وعملها ونضالها. فما هي إذاً وجهة النظر التي عكستها مواعظ تولستوي؟ إن الجماهير الواسعة من الشعب الروسي، التي اصبحت تكره سادة الحياة المعاصرة، إلا انها لمّا تبلغ مرحلة النضال الواعي المتماسك الذي لا يعرف الهوادة، بل يسير حتى نهاية الشوط، هي التي تتكلم بلسان تولستوي.

وقد بيّن تاريخ الثورة الروسية العظيمة وما انتهت اليه أن الجماهير، التي كانت في موقع وسط بين البروليتاريا الاشتراكية الواعية وبين المدافعين بحزم عن النظام القديم، هي بالضبط الجماهير التي تحدث تولستوي بلسانها. وقد أبدت هذه الجماهير — ومعظمها من الفلاحين — خلال الثورة عظيم كرهها للقديم، ومدى شعورها بوطأة النظام القائم، ورغبتها العفوية في التخلص منها والبحث عن حياة أفضل.

وقد أظهرت هذه الجماهير في الوقت نفسه خلال الثورة أنها كانت على وعي غير كاف في حقدها، وغير متماسكة في نضالها، ومحدودة ضمن أطر ضيقة في بحثها عن حياة أفضل.

لقد انعكس هذا الخضم العظيم من الناس ، المضطرب حتى أعمق أعماقه ، في تعاليم تولستوي بكل ما فيه من نقاط قوة وضعف .

إن الطبقة العاملة الروسية ستتعرف على أعدائها بشكل أفضل ، وهي تدرس مؤلفات ليف تولستوي الأدبية . ولا بد للشعب الروسي ، وهو يتمعن في تعاليم تولستوي ، من ان يفهم ما هي طبيعة ضعفه الذي عاقه عن السير بقضية تحرره حتى النهاية ، وعليه ان يفهم هذا كي يسير الى الأمام .

إن الذين يعيقون هذا السير الى الأمام هم الذين ينعتون تولستوي « بالضمير الحي » ، و « بمعلم الحياة » . وهذا كذب ينشره الليبراليون الراغبون عن وعي في استغلال الجانب المعادي للثورة من تعاليم تولستوي . كما يردد بعض الاشتراكيين الديمقراطيين سابقاً ، وراء الليبراليين ، هذه الأكذوبة عن تولستوي « معلماً للحياة » .

ولن يظفر الشعب الروسي بتحرره إلا عندما يدرك أن عليه ان يتعلم كيف يناضل في سبيل حياة أفضل لا على يدي تولستوي ، بل على يدي الطبقة التي لم يدرك تولستوي اهميتها ، والقادرة هي وحدها على تقويض العالم القديم الذي كان تولستوي يكرهه ، أي على يدي البروليتاريا .

طبع في ١٨ كانون اول ١٩١٠
ج ٢٠ ، ص ٧٠ – ٧١

ل. ن تولستوي وعصره

الحقبة ، التي ينتمي اليها تولستوي ، والتي انعكست بوضوح عظيم في مؤلفاته الأدبية العبقرية ، كما في تعاليمه ، هي الحقبة الممتدة ما بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ . صحيح أن نشاط تولستوي الأدبي ابتدأ قبل هذه الحقبة وانتهى بعدها، إلا أن تولستوي ، فناناً ومفكراً ، قد نضج نهائياً في هذه الحقبة بالذات التي نتج عن طابعها الانتقالي كل ما تتصف به مؤلفات تولستوي و « التولستوية » على حد سواء من سمات مميزة .

لقد عبّر تولستوي في روايته « آنا كارينينا » وعلى لسان ليفين ، بوضوح بالغ ، عن فحوى الانعطاف الذي تم في التاريخ الروسي خلال هذه السنوات الخمسين حين قال : « ... الأحاديث الدائرة حول المحصول واستئجار العمال الخ — وهي أحاديث كان ليفين يعرفها وكانت تعتبر شيئاً سافلاً جداً — بدا له الآن أنها ، هي وحدها ، ذات أهمية . وأخذ ليفين يفكر : « ربما لم يكن لهذا أهمية في ظل القنانة ، أو ليس له من أهمية الآن في انكلترا . فالظروف نفسها محددة في كلتا الحالتين . أما عندنا الآن ، حيث انقلب هذا كله ، وما زال يتوضّع من جديد ، فإن معرفة كيف ستتوضع هذه الظروف هي المسألة الوحيدة الهامة في روسيا » (مؤلفات ج ١٠ ، ص ١٣٧) .

— « انقلب هذا كله الآن عندنا وما زال يتوضع من جديد » — .

يصعب على المرء ان يتصور وصفاً أدق للفترة الواقعة بين عامي ١٨٦١

و ١٩٠٥ من هذا الوصف . إن كل روسي يعرف جيداً ما « انقلب » ، أو أنه ، على الأقل ، مطلع تماماً عليه . إنه القنانة « والنظام القديم » كله الذي يتناسب معها. أما الذي « ما زال يتوضع من جديد » فشيء تجهله اوسع الجماهير الشعبية وهو غريب عنها لا تفهمه . وهذا النظام البرجوازي « الذي ما زال يتوضع » يرتسم غامضاً امام عيني تولستوي بشكل مجدار هو انكلترا . وهو مجدار على وجه الدقة ، لأن تولستوي يرفض ، مبدئياً إن صح التعبير ، أي محاولة لتفهّم السمات الأساسية للنظام الاجتماعي في « انكلترا » هذه ، وعلاقة هذا النظام بسيطرة رأس المال ، وبدور المال وظهور التبادل وتطوره . إنه ، كالشعبيين ، لا يريد أن يرى ، إنه يغمض عينيه معرضاً عن الفكرة القائلة إن ما يتوضع في روسيا ليس سوى النظام البرجوازي .

صحيح أن معرفة « كيف سيتوضع » هذا النظام ، النظام البرجوازي الذي يتخذ اشكالاً متنوعة جداً في « انكلترا » والمانيا واميركا وفرنسا الخ كانت أهم مسألة ، إن لم تكن المسألة « الوحيدة الهامة » ، من حيث المهام المباشرة للنشاط الاجتماعي والسياسي كله في روسيا خلال الحقبة الممتدة بين عامي ١٨٦١ و ١٩٠٥ (وبالنسبة للفترة الراهنة ايضاً) . لكن مثل هذا الطرح المحددوالتاريخي المشخّص للمسألة شيء غريب تماماً عن تولستوي . فهو يحاكم الأمور محاكمة مجردة ، ولا يقبل إلا المبادىء « الخالدة » في الأخلاق ، وإلا حقائق الدين الخالدة دون أن يعي أن وجهة النظر هذه ليست إلا انعكاساً ايديولوجياً للنظام القديم (« الذي انقلب ») ، لنظام القنانة ، لنظام حياة الشعوب الشرقية .

لقد صرح تولستوي في قصة « لوتسرن » (التي صدرت عام ١٨٥٧) ان الاعتراف « بالحضارة » خيراً ليس الا « معرفة موهومة » « تقضي على ما في الطبيعة الانسانية من حاجات غريزية ، بدائية وسعيدة الى فعل الخير» . ويهتف تولستوي

قائلاً : « عندنا مرشد واحد ، وواحد فقط معصوم عن الخطأ هو الروح الكوني المستقر في أعماقنا » (مؤلفات ج ٢ ص ١٢٥) .

ويكرر تولستوي في « عبودية عصرنا » (المكتوبة عام ١٩٠٠) باصرار متزايد هذه النداءات الى الروح الكوني معلناً ان الاقتصاد السياسي « علم وهمي » لانه يتخذ « انكلترا الصغيرة الموجودة في وضع استثنائي تماماً » «نموذجاً» له ، بدل ان يتخذ « وضع البشر في الكون اجمع خلال الحقبة التاريخية كلها » . أما ما هو هذا « الكون اجمع » فتكشف عنه مقالته « التقدم وتعريف الثقافة » (عام ١٨٦٢) . يحاول تولستوي في هذه المقالة أن يفنّد رأي « المؤرخين » القائل ان التقدم « قانون عام للبشرية » باستشهاده « بكل ما يسمى شرقاً » (ج ٤ ، ١٦٢) ، معلناً « أنه لا يوجد قانون عام لحركة البشرية الى الامام ، والبرهان على ذلك هي الشعوب الشرقية الساكنة » .

وهكذا ، فالتولستوية بمضمونها التاريخي الواقعي هي ، بالضبط ، ايديولوجيا النظام الشرقي ، النظام الآسيوي . ومن هنا كانت دعوته الى التقشف وعدم مقاومة الشر بالعنف ورنّات التشاؤم العميقة ، وقناعته بأن « كل شيء عدم ، كل شيء عدم مادي . . (في معنى الحياة ٢٢ ، ص ٥٢) ، والايمان « بالروح » « والمبدأ الكلي » ، حيث ان الانسان بالنسبة له ليس الا « عاملاً » « مكلفاً بقضية خلاص نفسه » الخ . وظل تولستوي اميناً لهذه الايديولوجيا في « سونات كرتزر » ايضاً اذ يقول : « لن يتحقق تحرير المرأة في الجامعات او في البرلمانات بل في غرفة النوم » ، كما يعلن في مقالة كتبها عام ١٨٦٢ ان الجامعات « لا تعد إلا ليبراليين نزقين ومرضى » « لا حاجة للشعب بهم بتاتاً » ، « انتزعوا دون جدوى من وسطهم القديم » ، « ولا يجدون لهم مكاناً في الحياة » الخ (ج ٤ ، ص ١٣٦ — ١٣٧) .

التشاؤم وعدم المقاومة والالتجاء الى «الروح» ايديولوجيا تظهر بالضرورة في حقبة « انقلب » فيها النظام القديم كله ، حقبة لا ترى فيها الجماهير التي نشأت في هذا النظام القديم ورضعت مبادئه وعاداته وتقاليده مع حليب امهاتها، ولا تستطيع أن ترى ، ما هو النظام الجديد الذي « يتوضع » ، وما هي القوى الاجتماعية التي « تنسقه » ، وكيف « تنسقه » ، وما هي القوى الاجتماعية القادرة على ان تحمل لها الخلاص من الآلام العديدة والحادة جداً التي تميز فترات « التصدع ».

وكانت الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٩٠٤ واحدة من تلك الفترات في تاريخ روسيا ، إذ كان القديم قد انهار إلى غير رجعة أمام اعين الناس جميعاً ، وكان الجديد ما يزال يتنسق ، علماً بأن القوى الاجتماعية التي كانت تخلق هـذا التنسيق لم تظهر مقدرتها عمليا لأول مرة ، وعلى المستوى لوطني العـام وفي اعمال جماهيرية سافرة في مختلف الميادين إلا في عام ١٩٠٥ ، واعقبت احـــداث عام ١٩٠٥ في روسيا أحداث مماثلة في عدد من دول هـذا « الشرق » نفسه ، الذي استشهد تولستوي عام ١٨٦٢ « بسكونه » . لقد كان عام ١٩٠٥ بداية النهاية للسكون «الشرقي». ولهذا السبب بالضبط ، وضع هذا العام حداً تاريخياً للتولستوية ، وحداً لذلك العهد كله الذي استطاع ، وكان لا بد له ، أن يولد تعاليم تولستوي ، لا بوصفها شيئاً فردياً أو نزوة أو تظاهراً بالأصالة ، بل بوصفها ايديولوجيا اظروف حياة أحاطت فعلاً بالملايين والملايين من الناس خلال فترة معينة من الزمن.

تعاليم تولستوي طوباوية لا شك في ذلك ، وهي بمضمونها رجعية بأدق واعمق ما في هذه الكلمة من معنى . إلا ان علينا أن لا نستنتج من ذلك إطلاقاً أن هذه التعاليم لم تكن اشتراكية ، أو أنها لم تكن تنطوي على عناصر نقد قادرة على أن توفر مادة ثمينة لتنوير الطبقات التقدمية .

هناك اشتراكية واشتراكية . ففي البلدان التي يكون شكل الانتاج فيها رأسمالياً ، توجد اشتراكية تعبر عن ايديولوجيا الطبقة المدعوة لان تحل محل البرجوازية ، وتوجد اشتراكية تتطابق وايديولوجيا الطبقات التي تحل البرجوازية

محلها . فالاشتراكية الاقطاعية ، مثلاً ، اشتراكية من هذا النوع الأخير ، ولقد قيّم ماركس منذ أمد طويل ، منذ اكثر من ستين سنة ، طابع اشتراكية كهذه كما قيّم مختلف انواع الاشتراكية[71] .

وبعد ، فإن العناصر الانتقادية تميز تعاليم تولستوي الطوباوية ، كما تميز كثيراً من المذاهب الطوباوية . إلا أنه لا يجوز لنا أن ننسى ملاحظة ماركس العميقة القائلة ان اهمية العناصر النقدية في الاشتراكية الطوباوية «تتناسب عكساً والتطور التاريخي» . فبقدر ما يتطور نشاط القوى الاجتماعية التي «تنسق» روسيا الجديدة وتحمل الخلاص من المصائب الاجتماعية الراهنة ، ويزداد طابعه تحديداً ، «تفقد» الاشتراكية الطوباوية الانتقادية «كل معنى عملي وكل تبرير نظري لها» .

منذ ربع قرن كان بوسع العناصر الانتقادية في تعاليم تولستوي أن تكون أحياناً ذات نفع من الناحية العملية لبعض فئات الشعب ، على الرغم مما في التولستوية من سمات رجعية وطوباوية . أما في العقد الأخير مثلاً ، فلم تعد الحال كما كانت عليه ، إذ ان التطور التاريخي خطا خطوات لا بأس بها إلى الأمام منذ عام ١٨٨٠ حتى نهاية القرن الماضي . وفي أيامنا هذه ، بعد ان وضعت الأحداث المشار اليها آنفاً حداً للسكون «الشرقي» ، في أيامنا هذه ، حيث أصابت افكار «الفيخيين» الرجعية عن وعي – الرجعية بالمعني الطبقي الضيق ، بالمعنى الطبقي الأناني للكلمة – انتشاراً واسعاً جداً في اوساط البرجوازية الليبرالية ، حتى اصابت بالعدوى قسماً من ادعياء الماركسية ، واوجدت تيار «التصفية» ، كل محاولة في ايامنا لتمجيد تعاليم تولستوي ، وتبرير «عدم مقاومته» والتجائه إلى «الروح» ودعواته إلى «الكمال الذاتي الأخلاقي» ، ومذهبه في «الضمير» «والحب» الشامل ، ودعوته إلى التقشف وحياة التأمل الخ . او التخفيف من وقعها إنما تجلب اكبر الضرر وافدحه .

طبع في ٢٢ كانون ثاني ١٩١١ ج ٢٠ ، ص ١٠٠ – ١٠٤

من مقال

« حول الحملة الانتخابية والبرنامج الانتخابي »

... قال ليف تولستوي قبـــل وفاته بقليل ، وقال بأسف يميز اسوأ جوانب « التولستوية » ، إن الشعب الروسي « تعلّم » بسرعة فائقة « ان يصنع الثورة ». ونحن نأسف فقط لأن الشعب الروسي لم **يتقن تماماً** هذا العلم الذي قد يبقى لقرون كاملة بدونه عبداً لامثال بوريشكيفتش. ولكنه من الصحيح أيضاً ان البروليتاريا الروسية ، في سعيها إلى تحويل المجتمع تحويلاً اشتراكياً تاماً ، اعطت الشعب الروسي بعامة، والفلاحين الروس بخاصة ، **دروساً** لا تعوض في هذا العلم. ولن تستطيع اية مشانق ينصبها ستوليبين ولا اي جهود يائسة يبذلها « الفيخيون» ان تنسي احداً هذه الدروس . لقد اعطي الدرس . والدرس يستوعب الآن . وسيعاد الدرس ...

طبع في ١٨ (٣١) / ١٠ ١٩١١
ج ٢٠ ص ٣٦٢

مِن مَقالاتٍ وَخُطبٍ وَرَسائِل

مَا قبلَ أُكتوبر

من مقال

« اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية » (٧٢)

يدل تاريخ الحركة العمالية في مختلف البلدان على أن الفئات الأكثر اعداداً من العمال هي التي تتقبل بسهولة اكبر وقبل غيرها افكار الاشتراكية ، ومن هؤلاء العمال بصورة رئيسية ، العمال ــ الطليعيون الذين تفرزهم أي حركة عمالية ، وهم عمال يعرفون كيف يكسبون ثقة الجماهير العمالية كاملة ، عمال يكرسون انفسهم كلية لقضية تعليم البروليتاريا وتنظيمها ، عمال يتبنون الاشتراكية عن وعي كامل ، لا بل ينشئون بانفسهم نظريات اشتراكية . وقد اعطت أي حركة عمالية حية مثل هؤلاء القادة ، اعطت برودون وفاليان وفيتلنغ وبيبل وغيرهم . وتبشر حركتنا العمالية الروسية بأنها لن تتأخر عن اختها الأوروبية في هذا المجال . وفي الوقت الذي يفقد فيه المجتمع الراقي الاهتمام بالأدب الشريف ، الأدب غير الشرعي ، ينمو بين العمال ميل شديد إلى المعرفة وإلى الاشتراكية ، ويبرز من بين صفوفهم ابطال حقيقيون يجدون في انفسهم من التصميم وقوة الإرادة ما يمكنهم من أن يتعلموا ويتعلموا ، على الرغم من وضعهم الحياتي البالغ السؤ ، وعملهم الشاق والمضني في المصانع ، ومن أن **يخلقوا من** انفسهم اشتراكيين ديمقراطيين حقيقيين و « انتليغنسيا عمالية » (*) . وهذه « الانتليغنسيا العمالية » موجودة الآن في روسيا ، وواجبنا أن نبذل كافة الجهود لكي تتوسع صفوفها باستمرار ، ولكي تلبى بشكل تام كافة حاجاتها العقلية العالية حتى يخرج من صفوفها قادة الحزب

(*) الانتليغنسيا كلمة روسية تعني فئة المثقفين .

الاشتراكي الديمقراطي العمالي . وعلى الصحيفة ، التي قد ترغب في أن تصبح لسان حال الاشتراكيين الديمقراطيين الروس جميعهم ، أن تكون في مستوى العمال الطليعيين : فليس عليها فقط ان لا تنحط بمستواها بشكل اصطناعي ، بل عليها ، بالعكس ، أن ترفع منه وأن تتابع مسائل الديمقراطية الاشتراكية العالمية كلها، التكتيكية والسياسية والنظرية ، وعندئذ فقط يمكن إشباع متطلبات الانتيليغنسيا الروسية التي تستطيع آنئذ أن تأخذ بيديها القضية العمالية الروسية ، وبالتالي قضية الثورة الروسية .

وتأتي بعد هذا العدد القليل من الطليعيين فئة واسعة من العمال المتوسطين. وهؤلاء ينزعون بقوة إلى الاشتراكية ، ويشاركون في الحلقات العمالية ، ويقرؤون الصحف والكتب الاشتراكية ، ويشاركون في التحريض ، لكنهم يتميزون عن الفئة الأولى بأنهم لا يستطيعون أن يصبحوا قادة مستقلين تماماً للحركة الاشتراكية الديمقراطية العمالية . فهذا العامل الوسط لن يفهم هذه المقالة أو تلك من الصحيفة ، التي قد تكون لسان حال الحزب، وقد لا يتبين تماماً إحدى المسائل النظرية أو العملية المعقدة . وليس معنى هذا أن على الصحيفة أن تهبط إلى مستوى جماهير قرائها،بل واجبها ، على العكس ، أن ترفع من مستواهم وتساعد على إخراج عمال طليعيين من الفئة المتوسطة . إن على مثل هذا العامل، الذي يستغرقه النشاط العملي المحلي ،والذي ينصب جل اهتمامه على اخبار الحركة العمالية ومسائل التحريض المباشرة ، أن يربط بين أي خطوة من خطواته وبين فكرته عن الحركة العمالية الروسية كلها ، وعن اهميتها التاريخية ، وعن الهدف النهائي للاشتراكية . ولهذا فعلى الصحيفة التي يشكل العمال المتوسطون جمهور قرائها أن تربط الاشتراكية والنضال السياسي بأي مسألة محلية وضيقة .

كتب في آواخر ١٨٩٩

ج ٤ ص ٢٦٨ — ٢٧٠

في ذكرى الامير غيدين

(ماذا يعلم الشعب « ديمقراطيونا » اللاحزبيون ؟)

« عبرت الصحافة التقدمية كلها عن مواساتها العميقة للخسارة الفادحة التي حلت بروسيا بفقد ب . أ . غيدين . فشخصية بيوتر الكسندروفيتش الرائعة كانت تجذب إليها الناس الشرفاء كلهم من أي حزب أو اتجاه كانوا . فياله من مصير نادر وسعيد هذا المصير ! ! ! » يلي ذلك مقتطفات واسعة من «روسكيي فيدوموستي» الديمقراطية الدستورية اليمينية ، حيث يفيض الأمير بافل ديمتريفتش دولغاروكوف رقة وحناناً ، وهو يستعيد حياة « هذا الانسان العجيب » ونشاطه . والأمير دولغاروكوف واحد من هذه السلالة الدولغاروكوفية التي اعترف ممثلوها صراحة بجذور ديمقراطيتهم ! الأفضل أن نسوي امورنا مع الفلاحين سلماً من أن ننتظر حتى يأخذوا الأرض بانفسهم ... « نحن نشاطر مشاطرة عميقة مشاعر الأسى التي بعثها موت الأمير غيدين في نفس من اعتاد أن يقدر **الانسان** منها كان حزبه . والفقيد غيدين كان ، بالضبط ، إنساناً قبل أي شيء آخر » .

هكذا تكتب جريدة « توفاريش »[٧٣] في عددها ٢٩٦ الصادر يوم الثلاثاء في التاسع عشر من عام ١٩٠٧

ليس كتاب « توفاريش » اكثر الديمقراطيين حماسة في صحافتنا الشرعية وحسب ، بل يعتبرون انفسهم اشتراكيين ـ اشتراكيين نقديين بالطبع . إنهم يكادون يكونون اشتراكيين ديمقراطيين ؛ ويلقى المناشفة بليخانوف ومارتوف

وسميرنوف وبيريبالافسكي ودان وغيرهم ترحيباً حاراً في الصحيفة التي يزين السادة بروكوبوفيتش وكوسكوف وبورتوغالوف وغيرهم من « الماركسيين السابقين » اعمدتها بتوقيعهم . وبكلمة واحدة ، لا مجال لأي شك في أن كتاب « توفاريش » اكثر ممثلي مجتمعنا « المتنور » ،والبعيد عن العمل السري الضيق « والديمقراطي » الخ « يسارية » .

ولا يسعنا ، عندما تقع اعيننا على اسطر كالتي أوردناها سابقاً ، إلا أن نهتف بوجه هؤلاء السادة : أي سعادة لنا ، نحن البلاشفة ، أننا لم نتم ، قصداً ،إلى هؤلاء الناس الشرفاء من صحيفة « توفاريش » !

ايها السادة « الشرفاء » من الديمقراطية الروسية المتنورة ! إنكم تعلمون الشعب الروسي البلادة ، وتسممونه بعفونات التزلف والخنوع اكثر بمائة مرة مما يفعل جماعة المائة السود الشهيرين بوريشكيفتش وكروشيفان ودوبروفان ، الذين تخوضون ضدهم حرباً إلى هذه الدرجة من الجد والليبرالية والرخص ، وإلى هذه الدرجة من المنفعة والأمان لكم . أتهزون اكتافكم وتتوجهون إلى«شرفاء» مجتمعكم جميعاً بابتسامة ازدراء بخصوص هذه « المفارقات الغبية » جداً ؟ أجل ،أجل ! نحن نعرف بشكل رائع أن لا شيء في العالم يمكن أن يزعزع غروركم الليبرالي التافه . ولهذا بالضبط نسر ، لاننا نجحنا ،بنشاطنا كله ،أن نعزل أنفسنا عن حلقة شرفاء المجتمع الروسي المتنور بجدار صلب .

هل نستطيع أن نجد أمثلة على أن جماعة المائة السود قد أفسدت وأربكت اي فئات واسعة من السكان ؟ كلا .

فلا صحافتهم ولا اتحادهم ولا اجتماعاتهم ولا انتخابات الدوما الأولى او الثانية ، تستطيع ان تقدم مثل هذه الامثلة . جماعة المائة السود تثير غضب الشعب باعمال العنف وبوحشيتها التي تشارك فيها الشرطة وقوات الجيش . المائة السود

يثيرون الحقد والاحتقار باحتيالهم ومكائدهم ورشاويهم . المائة السود ينظمون باموال الحكومات مجموعات وعصابات من السكيرين الذين لا يقدرون على العمل إلا بإذن من البوليس وبتحريض منه. وليس لهذا كله أي تأثير فكري خطر على أي فئات واسعة من السكان .

وبالعكس ، فمثل هذا التأثير تمارسه دون شك صحافتنا الشرعية، الليبرالية « والديمقراطية ». وما انتخابات الدوما الأولى والثانية ، والاجتماعات والاتحادات والتعليم إلا برهان على ذلك . وحديث « التوفاريش » بمناسبة موت غيدين يري بأم العين ماهية هذا التأثير الفكري .

« ... خسارة فادحة ... شخصية رائعة ... مصير سعيد . . كان انساناً قبل أي شيء آخر » .

كان الاقطاعي، الأمير غيدين، يمارس بكل نبل سياسة ليبرالية حتى ثورة اوكتوبر [٧٤] . وانتقل بعد أول انتصار للشعب ، مباشرة بعد ١٧ اوكتوبر عام ١٩٠٥ ، وبدون أي تردد إلى معسكر الثورة المضادة، إلى حزب الأكتوبريين، إلى حزب الإقطاعي والرأسمالي الكبير ، الحاقدين على الفلاحين وعلى الديمقراطية . في الدوما الاولى كان هذا الرجل النبيل يدافع عن الحكومة ، أما بعد طرد الدوما الأولى فقد اخذ يتفق – لكن الاتفاق لم يتم – على الدخول في الوزارة . هذه هي اهم المراحل في حياة هذا الاقطاعي النموذجي المعادي للثورة .

ويظهر سادة ذوو ملابس لائقة ، متنورون ومتعلمون ، فوق شفاههم كلمات عن الليبرالية والديمقراطية والاشتراكية ، وخطب عن تعاطفهم مع قضية الحرية ونضال الفلاحين من أجل الارض وضد الاقطاعيين . انهم السادة الذين يحتكرون بالفعل المعارضة الشرعية في الصحافة والاتحادات والاجتماعات

والانتخابات ثم يعظون الشعب بعد ذلك وهم يرفعون عيونهم إلى العلاء : « يا له من مصير نادر وسعيد !.. كان الامير الفقيد **انساناً قبل أي شيء آخر** » .

أجل ، لم يكن غيدين انساناً وحسب ، بل مواطناً عرف كي يرقى إلى فهم المصالح العامة لطبقته والدفاع عنها بذكاء كبير . أما انتم ، أيها السادة الديمقراطيون المتنورون ، فلستم إلا اغبياء صغاراً بكائين تسترون بغبائكم الليبرالي أنكم لستم أهلاً إلا لان تكونوا خدماً مثقفين لهذه الطبقة الاقطاعية نفسها.

إن تأثير الاقطاعيين في الشعب ليس بالامر المخيف . فهم لن ينجحوا أبداً في أن يخدعوا جمهوراً واسعاً من العمال ، وحتى من الفلاحين لمدة طويلة . إلا ان تأثير **المثقفين** الذين لا يشاركون مباشرة في الاستغلال والذين تعلموا استعمال الكلمات والمفاهيم العامة ، المثقفين المولعين بالوصايا «الخيرة» ، الذين يرفعون ، عن طيب قلب وغباء في احيان كثيرة ، وضعهم بين الطبقات إلى مستوى **المبدأ** ، مبدأ الاحزاب القائمة فوق الطبقات ، والسياسة القائمة فوق الطبقات ، إن تأثير هؤلاء المثقفين البرجوازيين في الشعب لخطر . هنا ، وهنا فقط ، يتضح جلياً تسميم الجماهير الواسعة تسميما في مقدوره أن يجر وراءه أذى حقيقياً ، ومن الواجب تكتيل قوى الاشتراكية كلها لمحاربته .

– كان غيدين انساناً متعلماً ، مثقفاً ، انسانياً وصبوراً – يتكلم هؤلاء الليبراليون والديمقراطيون الحقيرون الضعيفو الإرادة وهم يلهثون بسرعة واندفاع ، متصورين انهم ارتفعوا فوق « أي حزبية »، ارتفعوا حتى مستوى النظرة « الانسانية العامة » .

انكم مخطئون ، أيها المبجّلون . ليست هذه النظرة نظرة انسانية عامة ، بل نظرة العبيد المتزلفين . إن العبد الذي يعي وضعه العبودي ، ويناضل ضد هذا الوضع لثائر . والعبد الذي لا يعي عبوديته ويقضي حياة عبودية صامتة

لا واعية لا يفوه ببنت شفة هـو عبد فقط . اما العبد الذي يسيل لعابه ، وهـو يصف راضياً سحر حياة العبودية ،فهو جلف مستزلم . وانتم بالضبط اجلاف مثله ، ايها السادة من جريدة « توفاريش » . انـكم تذوبون رقةونبلاً يبعثان الاشمئزاز ، وانتم تذكرون ان الاقطاعي المعـادي للثورة والمساند لحكومـة الثورة المضادة كان متعلماً وإنسانياً . انتم لا تفهمون انـكم تجعلون من العبد جلفاً مستزلـماً بدلاً من ان تجعلوا منـه ثائراً . كلماتـكم عن الحرية والديمقراطية بريق زائف وجمـــل محفوظة عن ظهر قلب وثرثرة شائعة او نفاق . إنها اعلان مصقول . وانتم انفسكم قبور مكلسة . نفوسكم الصغيرة نفوس عبيد أجلاف ، وما علمكم وثقافتكم وتنوركم إلا نوع من البغاء المتقن . فانتم لا تبيعون ارواحـكم دفعاً للحاجة وحسب ، بل « حباً بالفن » ايضاً !

وترددون بتأثر : كان غيدين دستورياً عنيداً إنـكم تُرْجفون او انـ امثال غيدين قد خدروكم تماماً . ان تدعوا امام الشعب علنا من اسس حزباً يساند حكومـة فيتي ودوباسوف وغوريمكين وستوليبين انساناً دستورياً عنيـداً يشبه قولـكم عن كاردينال ما إنه مناضل عنيد ضد البابا . وبدلاً من ان تعلموا الشعب كيف يفهم الدستور فهما صحيحاً ، تحولونه ، ايها الديمقراطيون ، في كتاباتكم إلى اكلة سمك بالفجل ، إذ لاشك ان الدستور للاقطاعي المعادي للثورة هـــو ، بالضبط ، اكلة سمك بالفجل ، إنه اكمـــل الاساليب في نهب وإخضاع الفلاح والجماهير الشعبية كلهـا . فإذا كان غيدين دستورياً عنيداً ، معناه انـ دوباسوف وستوليبين دستوريان عنيدان ايضاً ، لان غيدين نفسه كان يساند **في واقع الأمر سياستهما** . ولم يكن باستطاعة دوباسوف وستوليبين ان يكونا ما كانا عليـــه ويمارسا سياستهما بدون مساعدة الاوكتوبريين ومنهم غيدين . على اي اساس يجب علينا ان نحكم على الوجه السياسي للانسان (الدستوري) ، أيهـــا الديمقراطيون

العظيمو الحكمة من النـاس « الشرفاء » ؟ أمن خطبـــه ودقه على صدره وذرفه دموع التماسيح ؟ أم من نشاطه الفعلي على الصعيد العام ؟

مـا هو الشيء المميز ، النموذجي في نشاط غيدين السياسي ؟ هـل انه لم يستطع أن يتفق مع ستوليبين على الاشتراك في الوزارة بعد طرد الدوما الاولى، أم انه حاول الاتفاق مع ستوليبين ؟ هـــل انه كان يتلفظ فيا مضى بعبارات ليبرالية أم أنه اصبح أوكتوبريا (معادياً للثورة) بعد السابـع من تشرين الاول (اوكتوبر) مبـاشرة ؟ إنـكم تعلمون الشعب ، حين تدعون غيـدين دستوريا عنيداً ، ان افعال غيدين الاولى هي النموذجية والمميزة . ومعنى هـــذا أنـكم ترددون مقتطفات من الشعارات الديمقراطية دون أن تفقهوا الفباء الديمقراطية .

إن الديمقراطية ، وتذكروا هذا جيداً ايهـــا السادة الشرفاء من المجتمع الراقي ، تعني النضال ضـد سيطرة الاقطاعيين المعادين للثورة على البلد ، هـــذه السيطرة التي ساندها السيد غيدين وجسدها طوال حياته السياسية كلهـا . - كان غيـدين انساناً متعلماً — يردد ديمقراطيونا من رواد الصالونات وهم يذوبون رقـة . أجل ، لقد اعترفنا بذلك ، ونعترف الآن بطيبة خاطر انه كان اكثر علماً وذكاء (والعلم والذكاء لا يجتمعان دائـماً) من الديمقراطيين انفسهم ، لانه كان يفهـــم مصالح طبقته وحركته الاجتماعية المضـادة للثورة افضل مما تفهمون ، ايها السادة من « توفاريش » ، مصالح الحركة التحررية .

كان هذا الاقطاعي المتعلم والمعادي للثورة يعرف كيف يدافـــع عن مصالح طبقته بمهارة ومكر ويخفي ببراعـــة تحت ستار من الكلمات النبيلة ، «والجنتلمانية » في مظهرها ، مطـامع الاقطاعيين وجشعهم ويصر (أمام ستوليبين) على إحاطة هذه المصالح بأكثر اشكال السيطرة الطبقية تمدّناً . لقد ضحى غيـدين وأضرابه « بعلمهم » كلـه خدمةً لمصالح **الاقطاعيين** . وهذا الواقع كان يمكن

أن يكون لديمقراطي" حقيقي ، لا لجلف « شريف » من الصـــالونات الروسية الراديكالية ، موضوعاً عظيما يظهر « تعهّر » العلم في المجتمع المعاصر .

عندما يثرثر « الديمقراطي" » عن العلم ، يريد أن يحدث في فكر القارىء تصوراً عن المعارف الغنية والافق الواسع ونبل القلب والعقل . أمّا العلم بالنسبة للأسياد من امثال غيدين فطلاء رقيق ، ترويض « وتدرب » على عقد أقذر الصفقات السياسية وأفظعها بطرق جنتلمانية . فالأوكتوبرية ، ونظرية غيدين « في التجدد السلمي (٧٥) » ومباحثاته مع ستوليبين بعد طرد الدوما الأولى ، كانت كلها ، من حيث جوهرها ، تدبيراً لأقذر أمر وأفظعه ، وهو تنظيم الدفاع عن حقوق النبلاء الروس في دم وعرق الموجيك الذي نهبه الغيدينيّون دائماً وباستمرار حتى عام ١٨٦١ ، وفي عام ١٨٦١ ، وبعد عام ١٨٦١ ، وبعـــد عام ١٩٠٥ ، تنظيما اكثر ما يكون أماناً وخبثاً وبراعة ورسوخاً من الداخل وتمويهاً من الخارج .

لقد علم نيكراسوف وسالتيكوف منذ أمد المجتمع الروسي أن يتبيّن مصالح الاقطاعي المتعلم الجشعة تحت مظهره المصقول والمصبوغ ، وعلما الشعب أن يبغض نفاق امثاله وغلاظة قلوبهم . أمّا المثقف الروسي المعاصر المنتمي إلى حزب الكاديت (*) أو أبواقه ، الذي يتوهم نفسه الحافظ الأمـــين للتراث الديمقراطي" ، فانه يعلم الشعب الخنوع ، ويتباهى بعدم تحيّزه بوصفه ديمقراطياً لاحزبياً . إن مشهد هذا المثقف يكاد يكون اكثر بشاعة من مآثر دوباسوف وستوليبين .

كان غيدين إنساناً ، كان إنسانياً ، ـيردّد ديمقراطيو الصالونات في انبهار .

(*) ـ أظهر الكاديت من الهوان في تقبيحهم غيدين اكثر بمائة مرة مـــا أظهره السادة من « توفاريش » ، لكننا أخذنا هؤلاء مثالاً على « ديمقراطية » الناس « الشرفاء » من المجتمع الروسي « الراقي » .

هذا التأثر بإنسانية غيدين يذكرنا لابنيكراسوف وشيدرين فقط ، بل بكتاب تورغنيف « مذكرات صيّاد ». أمامنا إقطاعي متمدن ، متعلّم ، مهذب ناعم في تعامله مع الناس وذو صبغة اوروبية . يقدم هذا الاقطاعي الخمر لضيفه ويدير معه أحاديث فكرية رفيعة . ويسأل الاقطاعي خادمه : « لماذا لم تسخّن الخمر » ؟ فيصمت الخادم ويشحب لونه . وينادي الاقطاعي خادماً آخر ويقول له دون أن يرفع صوته : « تصرّف ... بخصوص فيودور » .

ها كم مثالاً صغيراً على « الانسانية » الغيدينية ، أو الانسانية على طريقة غيدين . إن اقطاعي تورغنيف « إنساني » أيضاً ... بالمقارنة مع سالتيخيتشا مثلاً ، إنساني لدرجة أنه لا يذهب بنفسه إلى الإصطبل ليتّحقق ممّا إذا اتخذ خدمه الترتيبات الملائمة لجلد فيودور . إنه إنساني لدرجة أنه لم يهتم ببلّ القضبان التي يجلد بها فيودور في الماء . إنه ، هذا الاقطاعي ، لا يسمح لنفسه بضرب خادم أو شتمه ، إنه « يتصرّف » من بعيد فقط بوصفه إنساناً متعلمّاً ذا اساليب ناعمة وانسانية ، بدون ضجة ، بدون فضيحة ، « بدون ظهور علنيّ » ..

هكذا تماماً إنسانية غيدين هي الأخرى . إنه لم يشترك شخصياً في جلد الفلاحين وتعذيبهم مع امثال لوجينوفسكي وفيلونوف ، ولم يذهب في حملات تأديبية مع امثال رينينكامبف وميليرزاكاميلسكي . إنه لم يطلق الرصاص على موسكو مع دوباسوف . كان إنسانياً لدرجة أنه امتنع عن مثل هذه المآثر ، تاركاً لامثال هؤلاء الابطال من « الاصطبل » الروسي أن « يتصرفوا » ، ومكتفياً بأن يقود ، من هدوء مكتبه الأنيق ، الحزب السياسي الذي ساند حكومة دوباسوف وأمثاله ، والذي شرب قادته نخب دوباسوف ، قاهر موسكو .. أليس إنسانيّاً بالفعل أن ترسل امثال دوباسوف « ليتصرفوا بخصوص فيودور » ، بدلاً من أن تحضر انت نفسك إلى الاصطبل ؟ إن هذا مثال الانسانية بالنسبة للعجائز القائمين على القسم

السياسي في صحافتنا الليبرالية والديمقراطية ... كان انساناً رائعاً ، لم يزعج ذبابة واحدة ! « مصير نادر وسعيد » أن تساند أمثال دوبا سوف وتجني ثمار تنكيل امثاله، ثم أن لاتكون مسؤولاً عن امثال دوبا سوف .

يعتبر ديمقراطيو الصالونات أن اعلى درجات الديمقراطية هي الشكوى من أن امثال غيدين لايحكموننا (إذ لاتخطر على بال غبي الصالونات هذا فكرة التقسيم « الطبيعي » للعمل بين غيدين وأمثال دوباسوف) . اسمعوا :

« كم هو مؤسف أن يكون غيدين قد مات الآن بالضبط ، ونحن أحوج ما نكون إليه . إذاً لكان ناضل ضد اليمينيين المتطرفين ، مبدياً أفضل جوانب روحه ، ومنافحاً عن المبادىء الدستورية بكل ما اتصف به من همة وفطنة ». (« توفاريش » العدد ٢٩٩ ، الجمعة ٢٢ حزيران ، « ذكرى الأمير غيدين ». رسالة من مقاطعة بسكوف) .

من المؤسف أن غيدين المتعلم والانساني وصاحب « التجدد السلمي » لم يعد يستر بكلامه الفارغ عن الدستور عري الدوما الثالثة ، دوما اوكتوبر ، وعري السلطة الاستبدادية التي قوّضت الدوما ! إن مهمة الكاتب الاجتماعي « الديمقراطي » لا أن يمزّق الستر الكاذبة ، لا أن يري الشعب اعداءه الظالمين بكامل عريهم ، بل أن يأسف لغياب المنافقين المجرّبين الذين يزيّنون صفوف الأوكتوبريّين . « من هو الانسان التافه الضيق الافق ؟ إنه معاء فارغ مملوء جبناً وأملا في أن يرحمه الله (٧٦) ». ومن هو الانسان التافه، الضيق الافق، الليبرالي الديمقراطي الروسي من معسكر الكاديت أو القريب منه ؟ إنه معاء فارغ مملوء جبناً وأملا في أن يرحمه الاقطاعي المعادي للثورة !

حزيران ١٩٠٧
ج - ١٦ - ص ٣٧ - ٤٥

بصدد « الفيخي » (٧٧)

تمثل المجموعة الشهيرة « فيخي » ، التي وضعها كتاب ذوو تأثير عظيم من الكاديت ، وصدرت منها عدة طبعات متوالية في وقت قصير ، واستقبلتها الصحافة الرجعية كلها باعجاب كبير ، علامة حقيقية من علامات العصر. ومنها « صححت » صحف الكاديت بعض المقاطع الفظة منها ، وتبرأ منها بعض الكاديت العاجزين تماماً عن التأثير في مجمل سياسة حزبهم أو الهادفين إلى خداع الجماهير عن المعنى الحقيقي لهذه السياسة ، يبقى واقع لا شك فيه ، هو ان **« فيخي » عبرت عن جوهر الكاديتية المعاصرة الحقيقي**. وبالتالي فان حزب الكاديت هو حزب «الفيخي»

وعلى الديمقراطية العالمية ، التي تقدر اعلى التقدير نمو وعي الجماهير السياسي والطبقي ، ان ترحب « بالفيخي » بوصفها فضحاً ممتازاً ، يقوم به قادة الكاديت الفكريون ، لماهية اتجاههم السياسي . لقد كتب « الفيخي » السادة : بيرد يابيف وبولغاكوف وغرشنزون وكيستياكوفسكي وستروفي وفرنك وإيزغوييف . هذه الاسماء وحدها ، وهي اسماء نواب مشهورين ، ومرتدين مشهورين ، وكاديت مشهورين ، تفصح عن ذاتها بما فيه الكفاية . إن مؤلفي « الفيخي » يبدون قادة فكر حقيقيين لاتجاه اجتماعي كامل ، وهم يقدمون بإيجاز موسوعة كاملة في مسائل الفلسفة والدين والسياسة والأدب وتقييم مجمل حركة التحرر وتاريخ الديمقراطية الروسية . إن مؤلفي « الفيخي » يقلصون الموضوع الحقيقي لمؤلفهم ، حين يضعون له عنواناً ثانوياً « مجموعة مقالات في الانتليغنسيا الروسية » ، اذان «الانتليغنسيا» تظهر عندهم فعلاً بوصفها القائدة الروحية لحركتي الديمقراطية الروسية والتحرر

الروسية كلتيها ، وملهمتها والمعبرة عنها. « الفيخي » علامات بارزة على طريق انفصال الحركتين الكاديتية الروسية والليبرالية الروسية عامة انفصالا كاملا عن حركة التحرر الروسية ومهامها الأساسية وتقاليدها الصميمية كلها .

– ١ –

تتناول موسوعة المرتدين الليبراليين ثلاثة مواضيع رئيسية : ١ – النضال ضد الاسس الفكرية لمجمل نظرة الديمقراطية الروسية (والعالمية) إلى العالم ، ٢ – التخلي عن حركة التحرر في السنوات الأخيرة والتشهير بها ؛ ٣ – الاعلان الصريح عن مشاعرهم ، مشاعر العبيد (وبالتالي سياسة « العبيد ») نحو برجوازية اوكتوبر والسلطة القديمة ، ونحو روسيا القديمة كلها بوجه عام .

ويبدأ مؤلفو « الفيخي » من الاسس الفلسفية لنظرة « المثقفين » إلى العالم . وتبرز من خلال الكتاب كله فكرة النضال الحاسم ضد المادية التي توصف بأنها عقيدة ، ميتافيزيكا ، وبأنها « أدنى اشكال الفلسفة واكثرها بدائية » (ص ٤ الطبعة الأولى من « فيخي ») . كما يندد بالوضعية ، لأنهـا كانت والميتافيزيكا المادية شيئاً واحداً « بالنسبة لنا » (أي بالنسبة للانتليغنسيا الروسية التي قضت عليها «الفيخي » ، أو لأنها كانت « تُفسر بروح المادية فقط ، في حين لا يستطيع صوفي واحد أو مؤمن واحد أن ينكر الوضعية العلمية أو العلم » . لا تمزحوا ! «العداء للاتجاهات المثالية والدينية الصوفية » هو سبب تهجم الفيخي على « الانتليغنسيا » ، وعلى أي حال كان يوركيفتش فيلسوفاً حقيقياً بالمقارنة مع تشرنيشفسكي .

من الطبيعي تماماً أن تندد الفيخي دون كلل بإلحاد المثقفين ، وتحاول بكل حزم تجديد النظرة الدينية بكل مداها بحكم أخذ اصحاب المجموعة بوجهة النظر تلك . ومن الطبيعي أن الفيخي ، بقضائها على تشرنيشفسكي فيلسوفاً ، تقضي على بيلنسكي كاتباً اجتماعياً . فبلنسكي ودوبروليوبوف وتشرنيشفسكي قادة

« المثقفين » (١٣٤ ، ٥٦ ، ٣٢ ، ١٧ الخ). أما تشايادايف وفلاديمير سولوفيوف ودوستويفسكي « فليسوا بمثقفين » . الأولون قادة اتجاه تحاربه الفيخي حرب حياة أو موت . أما الآخرون (فكانوا يؤكدون دون كلل) ما تؤكده الفيخي بالضبط . لكن « أحدا لم يصغ اليهم ، بل كان المثقفون يمرون بهم مرور الكرام » هذا ما تؤكده الفيخي .

ويستطيع القارىء أن يرى من هنا أن الفيخي لا تهاجم المثقفين ، فليس هذا إلا طريقة مصطنعة في التعبير لتعمية القضية . إن الهجوم يجري على طول الخط ضد الديمقراطية ، ضد النظرة الديمقراطية إلى العالم .

وبما أنه من المحرج بالنسبة لقادة فكر في حزب يعلن أنه « دستوري ديمقراطي » أن يسموا الاشياء بأسمائها الحقيقية ، تراهم يأخذون هذه العبارة عن (مسكوفسكيي فيدوموستي [٧٨]) ويتخلون لا عن الديمقراطية (فيالها من فرية غير لائقة !) ، بل عن « الانتليغنسيا » فقط .

وتعلن الفيخي ان رسالة بيلنسكي إلى غوغول « تعبير ملتهب وكلاسيكي عن مزاج المثقفين » (٥٦). « يعتبر تاريخ ادبنا الاجتماعي بعد بيلنسكي، من حيث فهمه للعالم ، كابوساً متصلاً (٨٢) » .

هكذا ، إذاً ، هكذا . مزاج الفلاحين الاقنان ، وهو مزاج معادٍ للقنانة ، «مزاج مثقفين» إذاً . وتاريخ احتجاج أوسع جماهير السكان على مخلفات بقايا نظام القنانة في الحياة الروسية كلها ونضالها ضده من عام ١٨٦١ حتى ١٩٠٥ « كابوس متصل». او لعل مزاج بيلنسكي في رسالته إلى غوغول لم يكن مرتبطاً بمزاج الاقنان في راي مؤلفينا الاذكياء والمتعلمين ؟ او ان تاريخ ادبنا الاجتماعي لم يكن مرتبطاً باستياء الجماهير الشعبية من بقايا الظلم الاقطاعي ؟

كانت (موسكوفسكيي فيدموستي) تحاول دائماً ان تبرهن على ان

الديمقراطية الروسية ، بدءاً من بيلنسكي ، لا تعبر مطلقاً عن مصالح اوسع جماهير السكان في نضالها لنيل ابسط حقوق الشعب ، التي كانت تخرقها المؤسسات الاقطاعية ، بل تعبر فقط « عن مزاج مثقفين».

إن برنامج « فيخي » وموسكوفسكيي فيديموستي واحد في الفلسفة وفي الأدب الاجتماعي . إلا ان المرتدين الليبراليين في الفلسفة قرروا ان يقولوا الحقيقة كلها ، ويكشفوا برنامجهم كله (وهو محاربة المادية ، والوضعية المفسرة مادياً ، وتجديد الصوفية والنظرة الصوفية الى العالم) . اما في الأدب فهم يدورون ويلوبون ويراوغون. لقد قطعوا صلتهم بأهم افكار الديمقراطية ، وبابسط الاتجاهات الديمقراطية ، لكنهم يتظاهرون بأنهم يقطعون صلتهم بالمثقفين فقط .

لقد تحولت البرجوازية الليبرالية تحولاً حاسماً من الدفاع عن حقوق الشعب إلى الدفاع عن المؤسسات الموجهة ضد الشعب ، لكن السياسين الليبراليين يودون الاحتفاظ باسم « ديمقراطيين » .

إن تاريخ حركتنا القريب يتعرض الآن للشعوذة نفسها التي تعرضت لها رسالة بيلنسكي إلى غوغول وتاريخ الأدب الروسي الاجتماعي .

- ٢ -

إن الهجوم الذي يشن على صفحات « الفيخي » لا يستهدف بالفعل إلا تلك الانتليغنسيا التي عبرت عن الحركة الديمقراطية ، ويستهدفها فقط بمقدار ما كانت شريكة حقيقية في هذه الحركة . (الفيخي) تشن هجوماً محموماً على الانتليغنسيا بالضبط ،« لكون هذه الفئة القليلة العاملة في السر قد برزت إلى عالم الوجود وكسبت كثيراً من المريدين ، واصبحت ،لفترة ما ، ذات تأثيرفكري، لا بل ذات قدرة فعلية » (١٧٦) . كان الليبراليون يتعاطفون مع الانتلغنسيا ويساندونها في بعض الاحيان سراً ، **مادامت فئة صغيرة تعمل في السر فقط** ،

مادامت لم تكسب كثيراً من المريدين، ما دامت لم تصبح قادرة فعلاً. وهذا يعني أن الليبرالي كان يتعاطف مع الديمقراطية ما دامت هذه لم تحرك الجماهير الحقيقية، إذ انها لم تكن تخدم، بدون إشراك الجماهير، إلا أهداف الليبرالي الأنانية، ولم تكن تساعد إلا على وصول الأوساط العليا من البرجوازية الليبرالية إلى السلطة.

إلا ان الليبرالي تخلى عن الديمقراطية، حين جذبت اليها الجماهيرالتي بدأت تحقق اهدافها وتدافع عن مصالحها. **ان الكاديت يشنون، في الواقع، حرباً على الحركة الديمقراطية للجماهير**، وهم يسترون ذلك بصراخهم ضد المثقفين الديمقراطيين. وإليكم واحداً من الامثلة الظاهرة العديدة على ذلك. يعلن الكاديت في «الفيخي» أن الحركة الاجتماعية العظيمة في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر هي «ثورة مثقفين استمرت زمناً كافياً وكشفت عن امكاناتها الروحية كلها» (٥٧)

هذا جميل، أليس كذلك؟ الحركة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لا تمثل، وأرجوكم أن تروا ذلك، نموذجاً لاعمق حركة ديمقراطية جماهيرية وأوسعها، بل نموذجاً لثورة «مثقفين»! وبما أن المهام الديمقراطية لم تتحقق في أي زمان أو مكان دون حركة **متجانسة**، فمن الواضح تماماً ان قادة الليبرالية الفكريين يقطعون صلتهم بالديمقراطية بالذات.

إن «الفيخي» تنعى على الانتليغنسيا الروسية على وجه الضبط كونها تعبيراً عن **كل حركة** ديمقراطية ورفيقاً **ضرورياً** لها. «لقد تم بسرعة مذهلة تلقيح **الراديكالية** الاجتماعية للغرائز الشعبية (*) بالراديكالية السياسية لافكار المثقفين» (١٤١)، ولم يكن هذا «خطيئة سياسية أو خطيئة تكتيكية فقط،

(*) «غرائز الجماهير الشعبية التي تألمت كثيراً» — نجد هذه العبارة بعد سطرين من الصفحة نفسها.

بل كانت هناك خطيئة اخلاقية » . فلا يمكن أن تكون حركة ديمقراطية ، حيث لا توجد جماهير شعبية تألمت كثيراً . وتتميز الحركة الديمقراطية عن « العصيان » بكونها تتم ، بالضبط ، تحت شعار افكار سياسية راديكالية معينة . ليست الحركة الديمقراطية والافكار الديمقراطية مخطئة سياسياً وغير مناسبة تكتيكياً فحسب ، بل مخطئة أخلاقيـــا أيضاً _ هذا هو محتوى فكرة « الفيخي » الحقيقي ، وهو محتوى لايختلف في شيء عن افكار بابيدانوستسيف الحقيقية . إلا أن بابيدانوستسيف قال ما يقوله امثال ستروفي وإيزغوييف وفرانك وشركاهم بشكل أصرح وأشرف.

وعند ما تبدأ « الفيخي » اعطـاء تحديد ادق لمضمون افكار « المثقفين » البغيضة ، تتحدث بالطبـع عن الافكار « اليسارية » بعامة ، والماركسية والشعبية بخاصة ، فتتهم الشعبيين « بحبهم الكاذب للفلاح » والماركسيين « بحبهم الكاذب للبروليتاري » (٩) ، ثم تندرو أولاء وأولئك هباء « لتعبدهم للشعب » (٥٩،٥٩-٦٠) . إن الله ، بالنسبة للمثقف البغيض ، « هـو الشعب ، وهدفه الأوحـد هو سعادة الاكثرية » (١٥٩) . « إن الخطب العاصفة ، التي تفوهت بها الكتلة اليسارية الملحدة » ، هي اكثر ما يذكره الكاديت بولغاكوف من الدوما الثانية ، واكثر ما يثير استياءه . ولا يوجد ادنى ريب في ان بولغاكوف عـبر هنا تعبيراً اوضـح من سواه عن النفسية العامة للكاديت وعن مكنون افكار حزبهم كله .

إن طمس الفروق بين الشعبية والماركسية ليس أمر عرضياً ، بل حتمياً بالنسبة لليبرالي . وهو ليس « هفوة » أديب (يعرف ، على أي حال ، هـــذه الفروق تماماً) ، بل تعبيراً منطقياً عن ماهية الليبرالية حالياً . إذ ان البرجوازية الليبرالية في روسيا لا تبغض ولا تخاف ، في الوقت **الراهن** ، الحركة الاشتراكية للطبقة العاملة في روسيا ، بقدر ماتبغض وتخاف حركة العمال والفلاحين الديمقراطية ، أي ما هو مشترك بين الشعبية والديمقراطية ، ألا وهـو الدفاع عن الديمقراطية عن

طريق التوجه إلى الجماهير . إن ما يميز الفترة الراهنة هو أن الليبرالية في روسيا تحولت تحولاً حاسماً ضد الديمقراطية . فمن الطبيعي تماماً ألا تهمها الفروق الموجودة داخل الحركة الديمقراطية ولا الأهداف النهائية والابعاد أو الآفاق التي يمهد لها تحقيق الديمقراطية ..

« الفيخي » تعج بكلمات من نوع « التعبد للشعب » . وهذا ليس عجيباً ، إذ لم يبق أمام البرجوازية الليبرالية التي تخاف الشعب إلا ان تقيم الدنيا وتقعدها بصراخها عن « تعبد الديمقراطيين للشعب » . إن التراجع لا يمكن تغطيته إلا بقرع الطبول قرعاً قوياً بنوع خاص . وبالفعل ، لا يمكن نكران ان الدوما الأولى والثانية عبرتا ، في اشخاص نواب الفلاحين والعمال بالضبط ، عن المطالب والمصالح والآراء الحقيقية لجماهير العمال والفلاحين . وهؤلاء النواب « المثقفون» (*) بالذات هم الذين اثاروا في نفوس الكاديت **حقداً على « اليساريين »** لا حدود له لفضحهم تراجعات الكاديت المستمرة عن الديمقراطية .

ولا يمكننا بالفعل ان ننكر « النظام الانتخابي الديمقراطي » (**) . ومع هذا لا يشك اي سياسي شريف في انه لو جرت انتخابات وفق احكام هذا النظام، اي انتخابات ديمقراطية حقاً ، لكانت الاكثرية الساحقة إلى جانب نواب جماعات العمل ونواب الحزب العمالي .

ولا يبقى امام البرجوازية الليبرالية ، التي ادارت وجهها إلى الوراء، إلا أن

(*) ان تشويه « الفيخي » للمعنى العادي لكلمة « مثقف » لمضحك . إذ يكفينا أن نتصفح جداول نواب الدوما الأولى والثانية حتى نرى فوراً أن الاكثرية الساحقة من الفلاحين هي عند جماعات العمل ، وأن اكثرية العمال في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وأن جمهور المثقفين البرجوازيين يتركز في الكاديت .

(**) كان هذا النظام الانتخابي يتضمن أربعة مطالب : حق الانتخاب العام والمتساوي والمباشر والسري .

تغطي انفصالها عن الديمقراطية بكلمات تقتبسها من «موسكوفسكيي فيدوموستي» و «نوفويي فريميا». وهذه الكلمات ترصع مجموعة «فيخي» كلها.

الفيخي تيار متصل من الأقذار يصب على الديمقراطية. فمن المفهوم إذاً ان يخف كتاب «نوفويي فريميا» روزانوف ومينشيكوف وستوليبين إلى معانقة (الفيخي). ومن المفهوم ايضاً ان يستبد الانبهار بأناتولي فولينسكي من مؤلف قادة الليبرالية هذا.

وتكتب الفيخي قائلة: عندما كان المثقف يفكر في واجبه نحو الشعب، لم يكن يخطر له على بال أبداً أن فكرة المسؤولية (التي يفترضها هذا الواجب) يجب أن توجه لا اليه، أي المثقف فحسب، بل إلى الشعب ايضاً (١٣٩). كان الديمقراطي يفكر في توسيع حقوق الشعب وحريته مجسداً هذه الفكرة بكلامه عن «واجب» الطبقات العليا. لكنه لم يكن في وسع الديمقراطي، ولن يكون في وسعه، ان يفكر في امكانية الحديث عن «مسؤولية» الشعب أمام الطبقات الحاكمة في بلد ما قبل «الاصلاح» أو في بلد «دستور» الثالث من حزيران (٧٩). وحتى يستطيع الديمقراطي أو دعي الديمقراطية أن «يفكر» في هذا، لابد له من ان يتحول نهائياً إلى ليبرالي معاد للثورة.

ونقرأ في (الفيخي) ما يلي: إن الانانية وتوكيد الذات قوة عظيمة. وهي، بالضبط، التي تصنع من البرجوازية الغربية أداة جبارة لا واعية لقضية الله على الأرض (٩٥). وهذا ليس إلا رواية مصححة للعبارة الشهيرة «Enrichisse3 Vous! (٨٠) اغتنوا!» أو لعبارتنا الروسية «اعتمادنا على الاقوياء». عندما كانت البرجوازية تساعد الشعب في نضاله طلباً للحرية، كانت تعلن هذا النضال قضية الهية. وعندما خافت الشعب وتحولت إلى مساندة كافة اساليب القرون الوسطى الموجهة ضد الشعب، صارت تسمي «الأنانية» والإثراء والسياسة

الخارجية الشوفينية الخ قضية إلهية . هذا ما كان في كل مكان من أوروبا ، وهـذا ما يتكرّر الآن في روسيا .

« كان على الثورة أن تنتهي شكلاً ومضموناً بوثيقة السابع عشر من اوكتوبر » ـ هذه هي بداية الأوكتوبرية ونهايتها، أي برنامج البرجوازية المعادية للثورة . هذا ما كان يردده الأكتوبريّون ، ووفقه علناً يعملون . في حين أن الكاديت كانوا يعملون ما يعمله الأولون إنما بالسرّ (وابتداء من السابع عشر من أوكتوبر)، لكنهم كانوا يرغبون في الوقت نفسه في التظاهر بأنهم ديمقراطيون. ولهذا ، فالتمييز الكامل والواضح والصريح بين الديمقطراطين والمرتدين أمر في غاية النفع والضرورة لانتصار قضية الديمقراطية . ويجب استغلال « الفيخي » لهذه القضية الضرورية . فالمرتد ايزغوييف يكتب ما يلي : « يجب أن تكون فينا الجرأة لنعرف ، أخيراً ، أن الغالبية العظمى من النواب في دومانا ، باستثناء ثلاثين أو أربعين من الكاديت والأوكتوبريين ، لم يكن عندها من المعارف ما يمكنها من قيادة روسيا وإعادة بنائها » (٢٠٨) . طبعاً . فمن أين للنواب الموجيك أو العمّال أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة . من الضروري إذاً أن تكون في الدوما أغلبية من الكاديت والأوكتوبريين ، وبالتالي أن تقوم دوما ثالثة تأميناً لهذه الأغلبية . .

ولكي يفهم الشعب ومن يتعبدون له كامل « مسؤوليتهم » أمام المتقلدين زمام الأمور في الدوما الثالثة ، وفي روسيا الدوما الثالثة ، يجب أن ندعو الشعب مع انطون فولينسكي ، إلى « التوبة » (الفيخي ، ٢٦) ، وإلى « الرضوخ »، (٤٩) ، وإلى النضال ضد « عجرفة المثقف » (٥٢) ، وإلى « الطاعة » (٥٥) وإلى « تناول الطعام البسيط والغليظ بحسب وصايا موسى العشر » (٥١)، وإلى مكافحة « جمهرة الأبالسة التي دخلت جسد روسيا العملاق » (٦٨) . فـاذا كان الفلاحون ينتخبون جماعات العمل والعمال الاشتراكيين الديمقراطيين، فما هذا إلا

وسوسة شيطانية ، إذ ان الشعب يكن ، بطبيعته ، كما اكتشف هذا منذ أمد طويل كاتكوف وبوبيدا نوستسيف، « بغضاً للمثقفين » (٨٨؛إقرأ: للديمقراطية).

من واجب المواطنين الروس اذاً ـ كما تعلمنا «الفيخي» ـ « أن يباركوا هذه السلطة التي تحمينا ، « نحن المثقفين » ، وهي وحدها التي تحمينا بحرابها وسجونها من غضبة الشعب » (٨٨) .

هـذا الخطاب جيد لأنه صريح ، ومفيد لأنه يكشف الماهية الحقيقية لسياسة حزب الكاديت كله خلال سنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٩ . وهذا الخطاب جيد ، لأنه يكشف بإيجاز ووضوح روح « الفيخي » . « والفيخي » جيدة ، لأنها تكشف روح السياسة **الفعلية** لليبراليين الروس بمن فيهم الكاديت . ولهذا السبب كان نقاش الكاديت مع (الفيخي) وتخلي الكاديت عن « الفيخي » رياء متصلاً ولغواً لا نفع فيه .اذ ان الكاديت ، بوصفهم جماعة، حزباً ، قوة اجتماعية، مارسوا ويمارسون سياسة الفيخي **ذاتها** . ان الدعوة للمشاركة في دوما بوليغين [٨١] في آب وأيلول من عام ١٩٠٥ ، وخيانة قضية الديمقراطية في آخر هذه السنة نفسها، والخوف المنتظم من الشعب والحركة الشعبية والنضال المنتظم ضد العمال والفلاحين في الدوما الأولى والثانية ، والتصويت لصالح الميزانية وخطب كاراأولوف عن الدين، وبيريزوفسكي عن المسألة الزراعية في الدوما الثالثة، والسفر الى لندن [٨٢] - هذه كلها علامات لا حصر لها على هذه السياسة ، **وعلى مثل** هـذه السياسة التي تدعو اليها « الفيخي » ، فكرياً .

ولن تستطيع الديمقراطية الروسية أن تخطو خطوة واحدة الى الأمام ما لم تفهم جوهر هذه السياسة ، وما لم تفهم جذورها الطبقية .

١٣ / ١٢ / ١٩٠٩

ج ١٩ ، ص ١٦٧ ـ ١٧٥

من مقال

« جماعـــة « فبيريود » [٨٣]

أصدرت جماعة فبيريود في باريس « مجموعة من المقالات حول المسائل الدورية » بعنوان « فبيريود » . وبصدور كراس الرفيق ساجين (« في مسألة بعث الحزب ») الذي نشره على نفقته الخاصة ، وبصدور البيان الذي وقعته جماعـــة « فبيريود » ، والبرنامج الذي أقرته ، توفر للحزب الآن من المعطيات ما يكفي للحكم على الفبيريوديين .

يتميز برنامج الفبيريوديين بالخواص الثلاث التاليـة : اولاً ، إنهم أول من يطرح ، من بين جماعات حزبنا وفئاته كلها ، فلسفة ويطرحها تحت اسم مستعار. « الثقافة البروليتارية » ، « الفلسفة البروليتارية » – هـذا ما يتضمنه برنامجهم . وما يختفي تحت هذا الاسم المستعار هو الماخية أي الدفاع عن المثاليـة الفلسـفية بأشـكالهـــا المختلفة (من تجربية انتقادية وتجربية احادية الخ ..) . وأعلنت هذه المجموعة ، ثانياً ، أن الأوتزوفية [٨٤] « لون مشروع » في المجال السياسي ، وأخبرتنا أنهم لا يوافقون على تحديد مهام الحزب بالنسبة لمجلس الدوما . وقد عرض هـذا التحديد في برنامج الفبيريوديين بغموض وتشويش لا يمكن معهما وصف هذا التحديد إلا بأنه مداراة لأفكار الأوتزوفيين . والخاصة الثالثة والأخيرة هي أن البرنامـج دان بحزم الانشقاق وطالب بتوحيد مختلف الفئات وصهرها في الحزب.

وهكذا يكون حاصل ما لدينا ، إذا بدأنا من النقطة الاخيرة ، رغبة طيبة جداً ورغبتان أخريان مغلفتان باتجاه فكري وسياسي رديء جداً ، تعبران عن الانفصال عن الماركسية ، وعن اخضاع البروليتاريا للسياسة والايديولوجيا البرجوازيتين. ويظهر كتاب «فبيريود» جلياً النتائج التي نحصل عليها من هذا الخليط.

فمكسيموف ، صاحب المقالة الافتتاحية ، يلتزم بثبات بدبلوماسية البرنامج ، حين يتحدث عن « الثقافة البروليتارية » دون أن يوضح ما يقصده بهذه العبارة . إن اللعب « بالغمّيضة » في مقال يزعم صاحبه انه كتبه لعرض الآراء بصورة شعبية مبسطة لأمر يفقأ العين. فأي تبسيط هذا وأي شعبية هذه ، إذا كان لا يوجد **قارىء واحد** ، باستثناء الذين يعرفون مكسيموف **شخصياً** أو الذين يتابعون **كل مراحل النقاش** الدائر حول الماخية أو بسببها ، يستطيع ان يفهم المعنى الحقيقي لعبارة كهذه ؟ وأي شعبية هذه ، عندما يتحدث مكسيموف نفسه في الصفحة الرابعة من الكتاب عن « خطر المنحدرين من الانتليغنسيا على الاشتراكية البروليتارية » ، أولئك الذين يتقبلون دون تمحيص أفكار العلم والفلسفة البرجوازيين غير الصحيحة والضارة بالبروليتاريا ويدعون اليها . . . » ؟

النقاط الثلاث من وضع مكسيموف. فهل تعني هذه النقاط صمتاً خجولاً؟ لا ندري . لكننا نعرف يقيناً ان الحديث في مقال « شعبي مبسط » عن ضرر « **الفلسفة البرجوازية** » على البروليتاريا ، دون ان تحدد بدقة ووضوح **الفلسفة المقصودة** بالضبط ، معناه اللجوء الى أسوأ انواع الدبلوماسية الانشقاقية . فاذا كنتم تعتبرون مسألة الفلسفة البرجوازية مسألة هامة ، وكنتم تطرحونها في المقالة الافتتاحية « لكتاب مبسّط » ، لتكن عندكم الرجولة إذاً لأن تتحدثوا بصراحة . دافعوا عن أفكاركم ولا تخفوها .

ويخرق الرفيق ساجين ، بوصفه « إنساناً عملياً » على ما يبدو ، دبلوماسية

مكسيموف بكثير من قلة التهذيب (*) . فهو يطالب في الصفحة (٣١) من كراسه بتأمين « حرية الفكر الثوري والفلسفي التامة لأعضاء الحزب » .

إنه لشعارانتهازي تماماً هذا الشعار، لم يطرحه إلا الانتهازيون، الانتهازيون داخل الأحزاب الاشتراكية في مختلف البلدان ، ولم يكن يعني بالفعل شيئاً سوى « حرية » إفساد الطبقة العاملة بالايديولوجيا البرجوازية . نحن نطالب الدولة (وليس الحزب) « بحرية الفكر » (إقرأ : حرية الصحافة والقول والمعتقد) تماماً كما نطالب بحرية الاتحادات . أما حزب البروليتاريا فاتحاد حرّ قام للنضال ضد « أفكار » (إقرأ : ايديولوجيا) البرجوازية، وللدفاع عن شيء واحد محدد وتطبيقه في الحياة ، ألا وهو النظرة الماركسية الى العالم . هذه هي الفباؤنا . وقد أنسى مكسيموف وساجين وشركاهما هذه الألف باءَ زيف موضوعتهم السياسية . فزيف موقفهم السياسي ، لارياؤهم الشخصي ، هو الذي ولد عندهم المناداة بالشعارات البرجوازية . وفحوى هذا الزيف أن بعض الفبيريوديين يريدون بكل جوارحهم جرّ البروليتاريا الى الوراء ، الى افكار الفلسفة البرجوازية (الماخية) ، وبعضهم الآخر لا مبالٍ بالفلسفة ، يطالب فقط « بالحرية التامة » ... للماخية . ولهذا نراهم جميعاً مجبرين على المداورة والتشويش واللعب « بالغميضة » والتمسك بالشعارات البرجوازية .

وماذا تعني عملياً « حرية الفكر الثوري التامة » ؟ لا شيء ، اللهم إلا

(*) في كتاب فبيريود يثرثر انسان عملي آخر هو عامل النسيج البطرسبرجي إ. ن. بشكل غير دبلوماسي بتاتاً فيقول ، « يجب القول بالمناسبة إن كتاب بيلتوف « النظرة الموحّدة » (monistique) بشكل خاص قد يثير تصوراً غير صحيح عن المادية التاريخية . آه بالطبع ! فأصح « تصور عن المادية التاريخية » تعطيه ، طبعاً ، كتب الماخيين وبناة الله الروس . ومَن من الفبيريوديين لا يعرف ذلك ؟ ومن أين لكتاب تربى عليه جيل كامل من الماركسيين الروس ان يضارع مؤلفات أمثال يوشكيفتش وبوغدانوف ولوناتشارسكي الفلسفية ؟

حرية اعتناق الأفكار الأوتزوفية والنصف فوضوية وغيرها . اي اننا نجد هنا الأفكار نفسها التي عبر عنها الفبيريوديون في براجمهم بالجملة التالية ، وهي الاعتراف بالأوتزوفية « لوناً شرعياً » ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام افكار تصاغ بدبلوماسية تافهة ، ومرة أخرى أمام لعب « بالغميضة » ، ومرة أخرى أمام نفاق يفسره تفسيراً كاملاً الموقف الفكري والسياسي الزائف القائل : نحن لسنا ماخيين ، لكننا أنصار إعطاء « الحرية التامة » للماخية (في الحزب) ؛ نحن لسنا أوتزوفيين ، لكننا انصار اعطاء « الحرية التامة » للون الأوتزوفي أو « للفكر الثوري » بوجه عام ! ويبلغ التشويش غايته عندما يعلن **اثنان** من الفبيريوديين (ساجين والعامل أر .) بجزم وبتوقيعهما **الشخصي** عن رأيهما في أهمية استخدام الامكانيات المشروعة ومنصة الدوما وضرورة ذلك ، إذ يقول العامل أر. : « على الديمقراطيين الاشتراكيين ان يناضلوا ضد من يحرض (من ذا الذي يحرضايها الرفيق ؟ أليسوا فبيريوديكم ؟) على عدم استخدام الامكانيات الشرعية المتوفرة أياً كان هـذا الاستخدام (عجباً !) ، لأن هذا الشكل من الأعمال ليس اشتراكياً ديمقراطياً (ص ٤٨ – ٥٩ من الكتاب) . وهـا هو ذا الرفيق أر. نفسه يشتم « البروليتاري » [٨٥] (في عدد سابق) بعنف ، في الوقت الذي يردد فيه كلمات البلاشفة أنصار اتجاه « البروليتاري » ، لأنها صبغت الفبيريوديين بألوان رهيبة كما يزعم . اليكم ما يسمى بتراجع المرء على طول الخط ، بالتخلي عن مواقعه كلها ، بإدانة أصدقائه الفبيريوديين الذين اتخذوا ذات يوم قراراً بمقاطعة مؤتمر الأطباء مثلاً ، وإدانتهم على صفحات الجرائد (دون أن يصرح بذلك مباشرة في هذه المرة أيضاً) ، ثم تغطية تراجعه واستسلامه بدق طبول الحرب . يا لها من دبلوماسية انشقاقية تافهة ! ..

طبع في ١٢/٩/١٩١٠
ج ٩ ص ٣١٢ – ٣١٥

حملة أخرى على الديمقراطية

لم يلق (الفيخي) ، وهو الكتاب الذي اشتهر شهرة ملطخة بالعار وحظي بنجاح هائل في اوساط المجتمع البرجوازي الليبرالي المشبع بنزعـــات الردة ، ما يكفي من الرد والتقييم العميق في معسكر الديمقراطية .

وقد حدث هذا ، لأن فترة نجاح (الفيخي) تطابقت مـع فترة كادت فيها الصحافة الديمقراطية « العلنية » أن تكون مخنوقة تماماً .

والآن يعاود السيد شيبيتين إصدار طبـــعة جديدة من « الفيخي » في «روسكايامیسل » (آب) . وهـذا طبيعي جداً من لسان حال الفيخوفيين الذي يحرره رئيس المرتدين السيد ستروفي . وبالمقـــابل سيكون طبيعياً جداً من الديمقراطية ، وعلى الأخص الديمقراطيـــة العمالية ، ان حاولت أن تعوض ولو القليل مما يتوجب عليها نحو الفيخوفيين .

— ١ —

لقد خرج علينا السيد شيبيتين ، من حيث الشكل ، « برسالة » متواضعة « من فرنسا » يتحدث فيها عن الروس في باريس ، إلا أن هذا الشكل المتواضع يخفي ، في الواقع ، « مناقشة » محددة تماماً لثورة ١٩٠٥ الروسية وللديمقراطية الروسية . يقول هذا الفيخوفي : « لا زلنا نذكر كلنا هذا العام المقلق » (هكذا إذاً ! مقلق بالنسبة لمن ايها السيد الليبرالي الجزيل الاحترام ! ؟) ، المضطرب والمشوش كله ، عام ١٩٠٥ .. » .

« مضطرب ومشوش كله » ! كم من القذارة واوحال المستنقعات يجب ان يكون في نفس إنسان يستطيع ان يكتب امثال هذه الكلمات . لقد اطلق اعداء ثورة عام ١٨٤٨ الالمانيون على هـذا العام اسم « العام المجنون » . وها هو ذا الكاديت من مجلة « روسكايامسل » يعبر عن الفكرة نفسها ، او قل الذعر الرعديد والبليد نفسه .

وسنواجهه ببعض الوقائع ، وأكثرها موضوعية « وتواضعاً » . لقد ارتفعت رواتب العمال في هذا العام كما لم ترتفع من قبل أبداً ، وتدنت أسعار إيجار الأرض. كما نمت مختلف أشكال توحيد العمال حتى الخدم منهم بنجاح لم نعهده من قبل ، وأخذ الشعب ، الجماهير ، « الطبقات الدنيا » تقرأ ملايين المنشورات الرخيصة التي تعالج مواضيع سياسية بنهم لم تعرفه روسيا حتى الآن .

لقد هتف نيكراسوف في الزمن الغابر :

. . . هل سيأتي الوقت ،
(أسرع أسرع أيها الحبيب !)
حين يحمل الشعب من السوق
لا بلوخر ولا الميلورد الغبي ،
بل بيلنسكي وغوغول ؟

وها هو ذا « الوقت » ، الذي طالما حن إليه أحد الديمقراطيين الروس القدامى ، قد أتى . فترك الناس تجارة الشوفان الى تجارة أخرى أربح ، هي الاتجار بالكراريس الديمقراطية الرخيصة الثمن . لقد أصبح الكتاب الديمقراطي الصغير سلعة السوق . وهذا الأدب الجديد الذي يغمر السوق مشبع بأفكار بيلنسكي وغوغول التي جعلتها أثيرين على قلب نيكراسوف وقلب كل انسان شريف في روسيا . . .

. . . يا له من « اضطراب » ! هكذا هتف الخنزير الليبرالي المغرور ودعي العلم والثقافة (لكنه ليس في حقيقة الأمر إلا خنزيراً قذراً وبشعاًومكتنزاً شحماً) . هكذا هتف ، وهو يرى هذا « الشعب » يحمل من السوق **فعلاً** . . . رسالة بيلنسكي إلى غوغول .

لكن هذه الرسالة ليست ، على وجه الدقـة ، إلا رسالة « مثقف » ، كما أعلنت « الفيخي » وسط عاصفة من تصفيق روزا نوف من جماعة « نوفويي فريميا » وانطون - فولينسكي .

يا له من منظر معيب ! - سيقول الديمقراطي من بين أفضل الشعبيين . ويا له من منظر نتعظ منه ! - نتابـع نحن قائلين . يا له من منبّه لأولئك الذين كانوا ينظرون نظرة **عاطفية** إلى مسائل الديمقراطية ، وياله من **شاهد** لكل ما هو حيّ وقويّ في أوساط الحركة الديمقراطية ، يكنس دون رحمـــة الأوهام الأوبلوموفية العفنة !

خيبة الأمل في الليبرالية أمر ينفـع من كان مشغوفاً بهـــا في وقت من الأوقات . أمّا من يودّ أن يتذكر تاريـخ الليبرالية الروسية القديم ، فسيرى في موقف الليبرالي كافيلين من الديمقراطي تشرنيشفسكي صورة دقيقة جداً لموقـف حزب الكاديت ، المكون من البرجوازيين الليبراليين ، من **الحركة** الديمقراطية الروسية **الجماهيرية** . لقد « وجدت » البرجوازية الليبرالية في روسيا « **نفسها** » ، أو قل على الأصـح وجدت ذنَبها . أو لم يحن الوقت بعد للديمقراطية في روسيا أن تجد رأسها ؟

وإنه لأمر لا يطاق بنوع خاص أن نرى أشخاصاً تافهين كشيبيتيف وستروفي وغريديسكول وغيرهم من جماعة الكاديت يتمسكون بأذيال نيكراسوف وشيدرين وغيرهما . الحقيقـــة أن نيكراسوف كان يتأرجح بين تشرنيشفسكي

والليبراليين بسبب ضعفه الشخصي . لكن عواطفه كلها كانت الى جانب تشرنيشفسكي . وبسبب ضعفه الشخصي هذا كانت له أبيات داری‌فيها الليبراليين وتزلف إليهم ، لكنه بكى هو نفسه « خطاياه » وندم عليها علناً :

لم أتاجر بشعري ولكن صدف ،
حين عبس القدر الذي لا يرحم ،
أن لامست يدي . . .
نغمة نشازاً في قيثارتي

« نغمة نشاز » ـ هكذا سمّى نيكراسوف خطاياه ، خطايا التزّلف الى الليبرالية . أما شيدرين فقد سخر سخرية لا رحمة فيها من الليبراليين ، ووصمهم الى الأبد بعبارته الشهيرة : « بمقتضى السفالة [٨٦] » .

لكم شاخت هــذه العبارة بالنسبة لأمثال شيبيتيف وغريديسكول وغيرهما (*) من الفيخوفيين ! القضية الآن لم تعد أبداً في أن يألف هؤلاء السادة السفالة ! الأمر أبعد من هذا بكثير ، فقد بنوا ، هم أنفسهم الآن ، نظريتهم في السفالة بمبادرتهم الشخصية ، وكما يحــلو لهم ، وانطلاقاً من الكنطيّة الجديدة والنظريات « الأوروبية » الاخرى الشائعة الآن .

- ٢ -

« عام ١٩٠٥ المشوّش كله » ، يكتب السيد شيبيتيف ، « لقد اختلط كل شيء وتشوش في هذه البلبلة العامة وانعدام النظام » .

نستطيع أن نقدم ، في هذه النقطة ، بعض الاعتراضات النظرية . فنحن

(*) قد يعترض بعضهم قائلاً ان غريديسكول ، كميلوكوف وشركاه ، جادلوا الفيخي . أجل لكنهم بقوا فيخوفيين مع ذلك (انظر البرافدا عدد ٨٥) (٨٧) .

نعتقد أنه يجب الحكم على الحوادث التاريخية بحركات **الجماهير** والطبقات في مجموعها، لا بأمزجة أشخاص او مجموعات .

إن الفلاحين والعمّال يشكلون اكبر جمهور في روسيا . ففيم يمكننا ان نرى « البلبلة المتصلة وعدم النظام » بالنسبة لهذا الجمهور من السكان ؟ ان الامر على العكس تماماً ، اذ تشهد الوقائع الموضوعية بشكل لا يدحض انه جرت في هذه الجماهير بالذات عملية فرز ناجحة وواسعة بشكل لم نعهده من قبل ، عملية وضعت حداً والى الابد « للتشويش وانعدام النظام » .

فحتى هذا العهد كانت عناصر الانسحاق الابوي ، وعناصر الديمقراطية في اوساط « عامة الشعب » ، « تختلط وتتداخل » بالفعل « في هذا التشويش العام». تشهد على هذا وقائع موضوعية كامكانية ظهور الزوباتوفية [٨٨] والغابونية [٨٩] .

عام ١٩٠٥ هو الذي وضع الى الابد حداً لهذا « التشويش » ، اذ لم يعهد تاريخ روسيا عهداً، كهذا العهد ، **انجلت فيه فعلاً لا قولاً العلائق التي عقدها** الركود القديم وبقايا الاقطاعية القديمة بمثل هذا الوضوح المتناهي . ولم تعهد روسيا عهداً ، كهذا العهد ، تمايزت فيه الطبقات وتحددت فيه **جماهير** السكان واختبرت فيه نظريات « المثقفين » وبرامجهم **بأعمال** الملايين من الناس بهذا الشكل البيّن الجلي .

فكيف لقيت هذه الوقائع التاريخية ، التي لا تدحض ، هذا التشويه الكبير في راس هذا الكاتب المتعلم والليبرالي من جماعة « روسكايا ميسل » ؟ يمكن شرح الموضوع ببساطة متناهية : إن هذا الفيخوفي يفرض على الشعب كله امزجته الذاتية. لقد كان ، هو شخصياً، وجماعته كلها ــ الانتليغنسيا البرجوازية الليبرالية ــ في وضع « مشوش » و « مضطرب تماماً » . ولذا يلقي هذا الليبرالي الذنب على **الجماهير** ويحملها ما يشعر به من استياء نشأ ، بشكل طبيعي ، من هذا التشويش ومن فضح الجماهير دناءة الليبرالية .

او لم يكن وضع الليبراليين مشوشاً بالفعل في حزيران عام ١٩٠٥ ؟ او بعد السادس من آب ، حين اخذوا يدعون الى دوما بوليغين ، بينما تجاهلها الشعب عملياً وتجاوزها ؟ او في اكتوبر عام ١٩٠٥ ، حين اضطروا ان يعلنوا ، تزلفا ، ان الاضراب « مجيد » ، مع انهم كانوا بالامس فقط يقاومونه ؟ او في تشرين الثاني عام ١٩٠٥ ، حين برز عجز الليبرالية البائس كله متجلياً بواقع صارخ جداً هو زيارة ستروفي لفيتي ؟

وسيرى الفيخوفي شيبيتيف ، اذا تفضل بقراءة كتيب الفيخوفي ايزيوغيف عن ستوليبين ، كيف اضطر ايزغوييف الى الاعتراف بهذا « التشويش » في وضع الكاديت « بين نارين » في الدوما الاولى والثانية ؛ وكان ظهور هذا «التشويش » ، وهذا العجز في الليبرالية حتمياً ، اذ لم يكن لها سند جماهيري لا في اوساط البرجوازيه من فوق ، ولا في اوساط الفلاحين من تحت .

يختتم السيد شيبينيف محاكماته حول تاريخ الثورة في روسيا بهذه الدرة :

« . . . لم يستمر هذا التشوش طويلا على اي حال ، فقد تحررت الاوساط العليا شيئاً فشيئاً مما تملكها من خوف كاد يكون ذعراً . فجهزت « حملات تأديبية » ، وحركت عدالة الرصاص بعد أن انتهت الى هذه النتيجة البسيطة ، وهي ان سرية من الجنود افعل من الكلمات الثورية كلها . وفاقت النتائج كل توقع ، اذ دمرت الثورة ومحقت خلال سنتين او ثلاث لدرجة اضطرت معها احياناً بعض مؤسسات المباحث ان توهم الناس بوجودها . . . » .

وإذ كنا استطعنا أن نعلق على محاكمات المؤلف السابقة ببعض التعليقات النظرية ، فإننا لا نملك الآن هذه الامكانية ، وعلينا أن نكتفي بأن نسمر هذه المحاكمات المجيدة بقوة على عمود ، ونرفعها عالياً عالياً قدر ما نستطيع ، حتى يتمكن الناس من أن يروها حتى ابعد مدى ممكن ...

ونستطيع ، على أي حال ، أن نوجه سؤالاً آخر إلى القارىء : هل من العجيب أن تستشهد « غولوس موسكو » (« صوت موسكو ») الاوكتوبرية « ونوفويي فريميا » (الزمن الجديد) الإبيودوشكية القومية المتعصبة بشيبتيف وهما تشهقان اعجاباً ؟ فبماذا يختلف ، في الواقع ، التقييم التاريخي الذي اعطته هذه المجلّة (الدستورية الديمقراطية) عن التقييم الذي قدمته الطبعتات اللتان اشرنا إليهما سابقاً .

- ٣ -

تحتل مقالات السيّد شيبيتيف حول حياة المغتربين الحيّز الاكبر من كتابه . وعلينا ، كي نجد شبيهاً لهذه المقالات ، أن ننقّب في مجلّة (روسكي فيسنيك)[٩٠] في عهد كتكوف ، ونأخذ من هناك الروايات التي تصف نبلاء كريمين ، وفلاحين بسطاء القلب راضين ، ووحوشاً مستاءة وثوريين لئاماً اشبه بالغيلان .

لقد راقب السيّد شيبيتيف باريس (إن كان راقبها فعلاً) بعيني إنسان تافه ، حاقد على الديمقراطية ، لم ير في أول ظهور جماهيري للكتاب الديمقراطي في روسيا إلاّ « اضطراباً » .

من المعروف أن كل انسان يرى في الخارج ما يريد ، هو ، أن يراه ؛ أو بكلمة أخرى ، يرى نفسه في الوضع الجديد . فنصير المائة السود يرى في الخارج ديبلوماسيين وجنرالات واقطاعيين ممتازين ، ورجل البوليس السري يرى رجال بوليس كرماء . ويرى الروسي الليبرالي المرتد في باريس خادمات ذوات نوايا طيبة وأصحاب دكاكين (عملين)(*) يعلمون الثوري الروسي أن « العواطف الانسانية

(*) انظر « روسكايا ميسل » العدد ٨ ، ١٩١٢ ص ١٣٩ .

والغيرية كثيراً ما طغت على متطلبات الشخصية الانسانية ، وكثيراً ما كان هذا على حساب التقدم العام والتطوّر الثقافي لبلدنا كله »(*) .

من له نفسية الخادم يهتم اكبر الاهتمام ، طبعاً ،بما يسود جوّ الخدم من نميمة وفضائح . وصاحب الدكان او خادم النزل لا يلاحظ ، بالطبع ،المسائل الفكرية التي تناقش في التقارير والصحافة الصادرة في باريس باللغة الروسية . ومن أين له أن يرى أنه قد طرحت في هذه الصحافة ومنذ عام ١٩٠٨ المسائل المتعلقة بماهية نظام الثالث من حزيران الاجتماعية ، وبالجذور الطبقية للتيارات الجديدة في الحركة الديمقراطية الخ (٩١) ، وهي المسائل التي وجدت طريقها فيما بعد إلى الصحافة ، التي تقوم عليها « حراسة مشددة » ، بشكل مجتزءٍ وأضيق وأشد تشويهاً .

لن يستطيع الحانوتي او الخادم ، او من له نفسيتها ، ان يلاحظ هذه المسائل او يفهمها مهما تزّيى بزيّ « المثقفين » . اما إذا كان هذا الخادم يحمل اسم « كاتب اجتماعي » في مجلة ليبرالية، فلسوف يتجاهل قضايا فكرية عظيمة لم تطرح بصراحة ووضوح إلا في باريس . لكن « هذا الكاتب » سيخبركم بالتفصيل ما تعرفه حجرات الخدم .

وسيخبركم هذا الكاديتي الشريف على صفحات مجلّة السيّد الاشرف ستروفي ان « مهاجرة بغياً تعيسة اخرجت من شقة امرأة ثوريةٍ معروفة جدّاً في باريس » ، « وان ذلك لم يتم بدون تدخل من البوليس » ، وان « العاطلين » اثاروا فضيحة جديدة في احدى الحفلات الراقصة الخيرية ، وان ناسخاً في أحد البيوت التي يعرفها السيد شيبيتيف « قد استدان مبلغاً كبيراً من المال ثم اخذ يماطل في تسديده » ، وان المهاجرين « ينهضون في الساعة الثانية عشرة ويأوون الى فراشهم في الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل ، وان استقبال الضيوف والضجيج والمناقشات والفوضى تملأ نهارهم كله » .

(*) المصدر السابق نفسه ص ١٥٣ .

وتقص عليك مجـــلة السيد الـكاديتى ستروفي هذا كله بتلذذ مفصلا « مُفلفلا » مزيناً بالصور بشكل لايقل سوءاً عما يفعله مينشيكوف وروزانوف من محرري « نوفويي فريميا » .

« اعطني مالا او اصفعك - على هـذا الشكل العداني السافر اصبحت العلاقات بين الاوساط العليا والدنيا من المهاجرين . والحقيقة ان هذا الشكل من العلاقات لم ينتشر انتشاراً واسعاً ، اذ لا يمثل « التيار المتطرف في الاوساط الدنيا » الا ما يقارب العشرين شخصاً من عناصر يشك في امرها ، قد تكون يد ذكية خفية هي التي توجهها ... (هـذا يكتب الـكاديتي المتعـلم في مجلة السيد ستروفي) .

توقف عند هذه المحاكمات أيها القارىء، وفكر في الفرق بين الخادم العادي والخادم الـكاتب . الخادم العادي (ونحن نقصد بالطبع الخادم البسـيط ، مستثنين العناصر الواعية التي أخذت بوجهـة نظر طبقية وتبحث عن مخرج لهـا من وضعها كخدم) إنسان ساذج ، غير متعـلم ، وأمي على الغالب وغير متطور ، يُغفـر له ميله الساذج الى الثرثرة بكل ما يفهمه بسرعة ، وبما هو أقرب الى قلبـــه . أما الخادم - الـكاتب فإنسان « متعلم » يُستقبل في أرقى الصالونات ، ويفهم أن عدد هؤلاء المبتزّين المجرمين في اوساط المهاجرين ضئيل جداً (حوالي عشرين مهاجراً من اصل آلاف المهاجرين) ، لا بل يفهم ان ما يوجه هؤلاء المبتزّين **« قد يكون يداً ذكية »** - من مشرب شاي اتحاد الشعب الروسي [٩٢] .

ويتصرف الـكاتب الخادم تصرف « المتعلمين » ، على الرغم من انه يعرف هذا كله . آه ، انه يعرف كيف يقتفي الآثار ، وكيف يعرض البضاعـة من وجهها ! فهو ليس كاتباً صغيراً مأجوراً من جماعة المئة السود . كلا ، إنه ابعد الناس عن ذلك . ولقد اشار هو نفسه الى امكانية وجود شخص ما يوجه هؤلاء

المبتزين القلائل ، لكنه لا يتكلم في الوقت نفسه الا عن هؤلاء المبتزين وعن الفضائح وعن عدم ايفاء الديون .

ولم تذهب مدرسة « نوفوي فريميا » سدى بالنسبة لكتاب «روسكاميسل» . فها هو ذا سوفورين (من جماعة « نوفوي فريميا » يتشدق بأنه لايتلقى إعانات، وان ما يفعله فقط هو « انه يعرف » كيف يعزف النغم المناسب .

« والروسكايا ميسل » لا تتلقى إعانات ـ اعوذ بالله ! لكنها تعرف فقط كيف تعزف النغم الذي يحلو لجماعة نوفوي فريميا « ولقبضايات » غوتشكوف .

- ٤ -

اجل ، توجد كثير من الصعاب في اوساط المهاجرين . ففيها ، وفيها وحدها ، طرحت في سني الهدوء والركود الاجتماعي والثقافي ، اهم المسائل المبدئية المتعلقة بالديمقراطية الروسية كلها . وفي هذه الاوساط من الفقر والحاجة اكثر مما في غيرها . وعظيمة فيها على الاخص نسبة المنتحرين ، وعظيمة فيها بصورة رهيبة لا تصدق نسبة مَنْ كيانهم كله عبارة عن مجموعة من الاعصاب المريضة . وهل يمكن ان تكون الامور غير ما هي عليه في اوساط اناس معذبين ؟

ان الناس يختلفون في اهتماماتهم عندما يجدون انفسهم في اوساط المغتربين. فبعضهم يهتم بالطرح الصريح لاهم المسائل المبدئية في السياسة ، وبعضهم الآخر بأخبار فضيحة تقع في حفلة رقص او بناسخ غير امين او باستياء المهاجرين من نمط حياتهم وسط البوابين واصحاب الدكاكين . . . فلكل منهم اهتماماته الخاصة.

وعلى الرغم من ذلك ، لا يتمالك المرء نفسه ، وهو يعاني وطأة حياة المهاجرين المعذبة ، الكريهة ، المتوترة الى حد المرض ، ويفكر في حياة السادة امثال شيبيتيف وستروفي وايزغوييف وشركاهم ، عن القول : يا لها من سعادة

لا حدود لها ، اننا لسنا من مجتمع « هؤلاء الشرفاء »، من مجتمع يدخله هؤلاء الاشخاص وتُمد فيه الايادي إليهم !

ففي (مجتمع الشرفاء) هذا لا تحدث ، على الارجح ، اي فضائح . تكاد المومسات لا تدخلن الى شقق هؤلاء السادة بصفة رفاق ، بل يبقين في شقق اخرى .

والعاطلون عن العمل لا يثيرون الفضائح في الحفلات الراقصة التي تقيمها هذه الجماعة . فحفلاتهم الراقصة وقورة رزينة ،ولكل شيء وقته : المومسات (من العاطلين) يبقين في شقة ، وتدور حفلات الرقص في شقة اخرى . وإذا ما وظف هؤلاء السادة ناسخين لديهم ، فلا يسمحون ابداً بهذا الفجور ، وهو ان يأخذالناسخ المال مقدماً ثم يتجرأ على المماطلة .

الفضائح بسبب المال لا يمكن ان تحدث عندهم . فليس حولهم جمهور جائع ، معذب ، متوتر الاعصاب ومستعدّ للإقدام على الانتحار . وإذا كانت (الملايين تتآخى) اليوم مع (العلم) في شخص السيد ستروفي وشركاه ، وغداً مع لقب النيابة في شخص السيد غولوفين وشركاه ، وبعد غد مع لقب النيابة والمحاماة في شخص السيد ماكلاكوف [٩٣] وشركاه ، فما هو الشيءالفاضح في هذا؟

وهذا كله دليل نبل وكرم محتد . فما هو وجه السؤ اذا كان ما يوجهه السادة امثال غريديسكول وشيبيتيف وشركاهما في كتاباتهم ضد الديمقراطيةيرضي امثال ريبوشنسكي الخ . . . ؟ فستروفي لا يتلقى اعانات ، بل هو يعزف (تلقائياً) النغم الملائم ! ولن يكون في مقدور احد القول ان (روسكايامِيسل) محظية امثال ريبوشنسكي .ولن يخطر على بال احد ان يقارن اللذة التي يوفرها بعض الكتاب لا مثال السيد ريبوشنسكي باللذة التي كانت توفرها للاقطاعيين في قديم الزمان الصبايا الاقنان وهن يحككن اعقابه .

وما ذنب السيد ستروفي أو السيد غريديسكول أو السيد شيبيتيف الخ .. بالفعل ، إذا كانت كتاباتهم وخطبهم التي يعبرون فيها عن قناعاتهم بمثابة حك اعقاب للتاجر أو الاقطاعي الروسي الحاقد على الثورة ؟

وأين الفضيحة في أن يحصل النائب السابق السيد غولوفين على التزام رابح ؟ لقد تخلى عن لقب «النائب» !! إذاً ، عندما كان نائباً لم يكن الالتزام موجوداً ، بل كان يُهيأ . وعندما حصل على هذا الالتزام تخلى عن النيابة . أليس واضحاً أن هذه القضية نظيفة ؟

أوليس من الواضح أيضاً ان النهامين وحدهم يستطيعون أن يشيروا إلى ماكلاكوف بإصبع الاتهام ؟ لقد دافع عن تاغييف « انسجاماً مع قناعته » ، كما صرح هو نفسه في رسالة له نشرها في « ريتش » ! ولا يوجد أدنى شك في أن أي بوابة باريسية أو أي حانوتي باريسي لن يجد أي شيء – أي شيء ذميم ، محرج ، فاضح على الإطلاق – في نمط حياة هذا الجمهور الكاديتي المحترم وفي اعماله .

- ٥ -

وتستحق محاكمة السيد شيبيتيف الرئيسية العامة للامور أن نوردها كاملة:

« لقــــد طغت العواطف الانسانية والغيرية حتى الآن ، وخصوصاً في الاوساط المشاركة في الثورة على حاجات الشخصية ، وعلى حساب التقدم والتطور الثقافي العام لبلدنا كله ، في كثير من الاحيان . وجعلنا السعي الى « المنفعة العامة » ، وإلى « خير الشعب كله » ، ننسى انفسنا ومطالبنا وحاجاتنا الشخصية ، وننساها لدرجة لم تستطع معها اكثر عواطفنا ومساعينا صفة اجتماعية أن تتحقق بشكل عمــــل ايجابي (!!) مبدع وواع تماماً ، بل أدت بصورة محتومة إلى اشكال سلبية من التضحية بالنفس. ولم يقتصر الأمر على هذا المجال ، بل تعداه إلى العلاقات اليومية العادية ، فكان « الضمير المريض » الذي يضخم هـذا الظمأ إلى البطولة والتضحية

من جهة ، وعدم التقدير الكافي للحياة نفسها ، الناتج عن المستوى المنحط لثقافتنا من جهة أخرى ، يرهقان ارهاقاً مستمراً ومتعدد الاشكال الحاجات الشخصية . وكانت النتيجة ازدواجية مستمرة وإدراكاً متصلاً لعدم صواب الحياة أو حتى لإثمها، وسعياً دائماً للتضحية بالنفس ومساعدة المعدمين والمحرومين ، ثم الاندراج في « قائمة الهالكين » .هذا واقع انعكس انعكاساً بارزاً وكاملا في أدبنا .

ونحن لا نستطيع ان نرى ما يشبه ذلك في آراء الشعب الافرنسي واعرافه ...»

إن ما أوردناه هو تعليق على تصريحات السيد غريديسكول السياسية والمنهجية التي طبعتها «ريتش» بدون أي تحفظ،والتي ذكرت « البرافدا »(عدد٨٥) « الريتش » بها عندما أرادت هذه أن تتناساها .

إن ما أوردناه سابقاً ترديد لما قالته (فيخي) وتتمة له . وعلينا ، مرة أخرى ، وبإمكاننا أن نقتنع من نموذج محاكمة كهذه ان « فيخي » تتظاهر فقط بمحاربة « المثقفين » في حين أنها تحارب الديمقراطية بالفعل ، متخلية تخلياً تاماً عن الديمقراطية .

وعلينا ان نؤكد على وحدة « الفيخي » وغريديسكول « وريتش » تأكيداً خاصاً الآن ، في أيام الانتخابات ، حيث يحاول الكاديت بكل قوامهم وبتظاهرهم بالديمقراطية أن يمحوا ويطمسوا فعلاً المسائل السياسية المبدئية والهامة كلها . واحدى المهام العملية الحيوية المطروحة أمام الحركة الديمقراطية هي ان تطرح هذه المسائل في الاجتماعات الانتخابية ، وان تشرح لأوسع جمهور ممكن معنى ومغزى خطب السيد شيبتيف والسادة الفيخوفيين، وان تفضح رياء«ريتش» والسادة أمثال ميلوكوف، عندما يحاولون نفض ايديهم من المسؤولية وتحميلها « روسكايايميسل » ، مع ان اعضاء حزب الكاديت يكتبون فيها .

إن « النقاش » مع الفيخوفيين ومماحكة السادة امثال غريديسكول وميلوكوف لهم لا يستهدفان إلا تحويل الانظار ، وليسا إلا تمويهاً مرائياً للتضامن المبدئي العميق القائم بين حزب الكاديت كله وبين « الفيخي » . هل من الممكن ، في الواقع ، « مناقشة » الموضوعات الاساسية للمقطع الذي اوردناه سابقاً ؟ وهل يمكن للمرء أن يبقى في حزب واحد مع أناس لهم هذه النظرات ، ثم لا يتحمل مسؤولية كاملة عن مثل هذه الدعوة إلى التخلي القاطع عن ابسط مبادىء الديمقراطية ، أي ديمقراطية ؟

إن من يعمي المسألة هم الذين يرضون بطرحها على طريقة الفيخي ، في عبارات تعارض « الفردية » « بالغيرية » الخ . والمعنى السياسي لهذه الجمل واضح كل الوضوح : إنه انعطاف ضد الديمقراطية ، انعطاف نحو الليبرالية المعادية للثورة.

وعلينا ان نفهم ان هذا الانعطاف ليس صدفة ، بل نتيجة وضع البرجوازية الطبقي. وعلينا ان نستخلص من هنا النتائج السياسية الضرورية حول تميز الديمقراطية الواضح نسبياً عن الليبرالية . وبدون وعي هذه الحقائق وبدون نشرها نشراً واسعاً بين جماهير السكان ، لا يمكننا ان نتحدث عن اي خطوة جدية إلى الامام .

طبع في ٢ و ٩ ايلول ١٩١٢

ج ٢٢ ص ٨٢ - ٩٣

نقد

لكتاب ن . أ روباكين « بين الكتب » الجزء الثاني (دار النشر ناووكا) موسكو - ١٩١٣ (الطبعة الثانية)

هذا الجزء الضخم الذي يقع في ٩٣٠ صفحة من الحجم الكبير والطباعة الدقيقة على عمودين في بعض الاحيان عبارة عن «تجربة لاستعراض غنى المؤلفات الروسية وارتباطه بتاريخ الافكار العلمية الفلسفية والأدبية الاجتماعية ». هذا ما نجده في العنوان الثانوي للكتاب .

يشمل الجزء الثاني من الكتاب الذي نستعرضه مجالات مختلفة في العلوم الاجتماعية ، ومنها الاشتراكية في اوروبا الغربية وفي روسيا . وليس من نافل القول ان كتاباً من هذا النوع ذو اهمية بالغة ، وان تصميم الكتاب كان بمجمله صحيحاً . وبالفعل لا يمكن تقديم عرض **معقول** « لغنى المؤلفات الروسية » ، تقديم مرجع للتثقيف الذاتي والمكتبات ، إلا بربطه بتاريخ الافكار . ومن الضروري على وجه الخصوص اعطاء « ملاحظات مبدئية » حول كل قسم (وهذا ما يفعله المؤلف) مع استعراض عام للموضوع ، وعرض دقيق لكل تيار فكري ثم كتابة قائمة بالكتب التي تعالج موضوع هذا القسم وكل تيار فكري فيه .

لقد بذل المؤلف ومعاونوه العديدون الذين ورد ذكرهم في مقدمة الكتاب جهداً عظيماً ، وبدأوا عملا قيماً جداً نتمنى له من اعماق قلوبنا النمو والتطور عمقاً واتساعاً . ومما هو قيم بنوع خاص أن المؤلف لا يسقط

لا الكتب الأجنبية ولا الكتب التي لوحقت . إن أي مكتبة محترمة لن تستغني بعد اليوم عن كتاب السيد روباكين هذا .

أما عيبا الكتاب فهما انتقائية مؤلفه وعدم لجوئه الواسع بما فيه الكفاية إلى الأخصائيين لمساعدته على الكتابة في مسائل معينـة (أو بالأحرى ، لجوؤه الضعيف الذي لا زال في أوله إلى هؤلاء الأخصائيين) .

ويتلخص العيب الأول في فكرة المؤلف المسبقة والغريبة معـــاً عن « النقاش » ، إذ يعلن في المقدمة « أنه لم يشترك يوماً في المناقشات ، لاعتقاده أن النقاش في اغلب الاحيان وسيلة من افضل الوسائل لتعمية الحقيقة عن طريق مختلف أنواع الانفعالات الانسانية » . إن المؤلف لا يفطن ، أولاً ، إلى أنه لم يجر أبداً بحث انساني عن الحقيقة « دون انفعالات انسانية » ، وأنه لا وجود لمثل هذا البحث ،ولا يمكن أن يكون له من وجود . وينسى المؤلف ، ثانياً ، أنه يريد أن يعرض « لتاريخ الفكر » . وما تاريخ الفكر إلا تاريخ تعاقب هـذه الفكر وبالتالي صراعها . فواحد من أمرين : أو الوقوف موقفاً لا واعياً من صراع الفكر ـ ومن الصعب عندئذ كتابة تاريخها (بله المشاركة في هذا الصراع) ؛ أو التخلي عن الادعاء « بعدم المشاركة أبداً في أي مناقشات » . إني افتح ، على سبيل المثال ، الكتاب وانظر إلى (الملاحظات المبدئية) حول نظرية الاقتصاد السياسي ، فارى فوراً أن الكاتب يتملص من هذه المعضلة ، أولاً بالمناقشة الخفية (وهو نوع من النقاش له عيوب النقاش كلها،دون أن تكون له واحدة من حسناته الكبيرة) ، وثانياً بدفاعه عن الانتقائية .

فالسيد روباكين « يسمح لنفسه » ، وهويعرض « موجز » بواغدانوف ، أن يشير إلى الشبه « الطريف » بين واحد من استنتاجات المؤلف « الماركسي » وبين فكرة ميخايلوفسكي الشهيرة عن « التقدم » (ص٨١٥) . آه ، أيها السيد روباكين « الذي لم يشترك أبداً في أي مناقشات » ! . .

ويتغنى السيد روباكين قبل ذلك بصفحة واحدة «بالروح العلمية الصارمة والتحليل العميق والموقف الانتقادي من اهم النظريات» وهي الصفات التي يتحلى بها ... مَن تظنون ؟ . . . التي يتحلى بها الانتقائي النموذجي السيد توغان ـ بارانوفسكي !! .
إن السيد روباكين يضطر هو نفسه للاعتراف بأن هذا الاستاذ يناصر الماركسية قليلاً و (نظرية المنفعة القصوى) قليلاً ، ثم يدعوه ، مع هذا ، «اشتراكياً» !!!
الا تعني كتابة شيء فظيع كهذا **مناقشة** موجهة ضد الاشتراكية تتم بأسوإ صورة ممكنة ؟

فلو ان السيد روباكين قسم ما كتبه مقدمة لموضوع الاقتصاد السياسي (وهو يناهز ثمانين الف كلمة أي كراساً كاملاً) إلى اربعة اقسام ، وعهد بكتابتها إلى واحد من المائة السود وإلى ليبرالي وشعبي وماركسي ، لقامت **مناقشة مفتوحة** إلى مدى اوسع ، ولعثر ٩٩٩ من الف قارىء على الحقيقة بشكل اسهل واسرع .

لقد طبق روباكين هذه الطريقة ـ وهي دعوة ممثلي (المناقشات) إلى التعاون في وضع الكتاب ـ في مسألة البلشفية والمنشفية ، فخصص نصف صفحة لي ونصف صفحة اخرى لمارتوف . اما من جهتي ، فاني راض تماماً عن عرض ل . مارتوف : عن إقراره ، مثلاً ، بأن التصفوية تعود إلى محاولات « إنشاء حزب عمالي علني » ، « وإلى الموقف السلبي من التنظيمات السرية الباقية » ، (ص ٧٧١ ـ ٧٧٢) ، او عن اعترافه بأن «المنشفية لم تر من امكانية مثمرة امام البروليتاريا المشاركة في الازمة الراهنة » (اي ازمة ـ عام ١٩٠٥) « إلا مساعدة الديمقراطية البرجوازية الليبرالية في محاولاتها ابعاد الفئة الرجعية من الطبقات الغنية عن السلطة ـ وهي مساعدة يجب على البروليتاريا ان تحققها مع احتفاظها باستقلالها السياسي التام » (٧٧٢) .

ولكن ما ان يتولى السيد روباكين نفسه اتمام المقالة المتعلقة بالمنشفية حتى تحدث اخطاء ، كتأكيده ان اكسيلرود وبليخانوف « تركا »التصفويين معاً (٢٧٢) . إني لا احمل السيد روباكين مسؤولية خاصة عن حتمية وقوع مثل هذه الاخطاء في كتاب اولي ومتعدد الجوانب كهذا الكتاب . إلا انه لا يسعني في الوقت نفسه إلا ان اتمنى على المؤلف ان يتبع طريقة اخرى تقوم على دعوة ممثلي التيارات المختلفة في **مجالات** المعرفة **كلها** الى المشاركة في وضع الكتاب . فلن يفيد المؤلف من ذلك الا دقة وكمالاً **وموضوعية** ، ولن تخسر من ذلك إلا الانتقائية والنقاش الخفي .

طبع في نيسان ١٩١٤

ج ٢٥ ، ص ١١١ - ١١٤

* * *

الى ا. ف. أرمند

ايتها الصديقة العزيزة !انصحك بالحاح ان تكتبي تصميم كراسك بتفصيل اوفى ، والا سيكون فيه كثير من الامور الغامضة . وعلي ان ابادرك فوراً بواحد من آرائي ، فانصحك بإسقاط المقطع الثالث وهو « مطلب الحرية في الحب (المطلب النسائي) ». فهو ليس، في الواقع ، مطلباً بروليتاريا،بل مطلباً برجوازياً.

ماذا تعنين بهذا فعلاً ؟ماذا يمكن فهمه من هذا القول ؟

١ ـ هل هو التحرر من الحسابات المادية (المالية) في قضية الحب ؟

٢ ـ هل هو التحرر من الهموم المادية ؟

٣ ـ من الاوهام الدينية ؟

٤ ـ من منع الوالد الخ . . ؟

٥ ـ من الاوهام الاجتماعية ؟

٦ ـ من ضيق الوسط (الفلاحي أو البرجواري الصغير أو وسط المثقفين البرجوازيين) ؟

٧ ـ من قيود القانون والمحكمة والبوليس ؟

٨ ـ مما هو جدي في الحب ؟

٨ ـ من انجاب الاطفال ؟

١٠ ـ حرية العهر ؟ الخ

لقد اوردت كثيراً من الفروق (لا كلها بالطبع) . وإنك لتعنين بالطبع الاعداد من ١ ـ ٧ او شيئاً ما من قبيل هذه الاعداد ، لا الأرقام من ٨ ـ ١٠ . ولكن عليك ان تختاري معنى آخر للأرقام من ١ ـ ٧ ، إذ ان حرية الحب

لا تعبر عن هـذه الفكرة بدقـة .

وسيفهم قراء كراسك « حرية الحب » بوجه عام على انهـا **حتماً** شيء ما ورد في الأرقام من ٨ – ١٠ ، وذلك **خلافاً لارادتك ذاتها .**

ولأن اكثر طبقات المجتمع ثرثرة وصخباً «ووجاهة» تعني «بحرية الحب» الأرقام من ٨ – ١٠ بالضبط ، فليس هـذا المطلب مطلبـاً بروليتارياً بل مطلبـاً برجوازياً .

إن ما يهم البروليتاريا اكثرمن أي شيء آخر هما الرقمان١–٢، ثم الأرقام من ١–٧ ، وهي لا تعني « حرية الحب » بنوع خاص .

ليست القضية فيما « تريدين أن تعنيه » بهذا المطلب **ذاتياً** ، بل **في المنطق الموضوعي** للعلاقات الطبقية في قضية الحب .

أشد على يدك بكل ودّ .

ف. أو

برن ١٧ / ١ / ١٩١٥
ج ٤٩ ص ٥١ – ٥٢

الى ا. فـ. أرمند

أيتها الصديقة العزيزة ! أعتـذر عن تأخري في الاجابة : لقد أردت ان اكتب اليك البارحـة ولكني تأخرت،ولم يعد لدي متسع من الوقت لأجلس الى الطـاولة .

لقد وجدت ، بمناســبة مشروع كراسك ، أن « مطلب حرية الحب » مطلب غير واضـــح ، وأنه في الوضع الاجتماعي المعاصر مطلب برجـوازي ، لا بروليتاري (وقد اكدت على ذلك بقولي إن القضيــة قضيــة علاقات طبقيـة موضوعية ، لا قضية رغباتك الذاتية) .

إنك لا توافقينني على ذلك .

حسن . فلنبحث الأمر مرة اخرى .

لقد أوردت نحواً من عشرة تفسيرات محتملة (وحتمية في هذا الوضع من العداء الطبقي) لـكي أوضح ما هو غامض . وأشرت في الوقت نفسه الى أن النقاط ١ ــ ٧ ستكون نموذجية ومميزة بالنسبة للبروليتاريات ، والنقاط ٨ ــ ١٠ بالنسبة للبرجوازيات .

فإذا أردت ان تدحضي ما أوردت ، عليك ان تبيـني : ١) أن هـذه التفسيرات غير صحيحة (وعليك عندئذ ان تستبدليها بأخرى او ان تشيري اليها) ، او ٢) انها غير كاملة (وعليك عندئذ ان تضيفي اليها ماينقصها) ، او ٣) انها لا تنقسم الى بروليتارية وبرجوازية .

إنك لا تفعلين شيئاً من هذا كله . فأنت لا تتطرقين أبداً الى النقاط من ١ – ٧ . فهل يعني هذا انك تعترفين (بوجه عام) بصحتها ؟ (ان ما تكتبينه عن بغاء البروليتاريات واستعبادهن : « عدم قدرتهن على ان يقلن : كلا » ينطبق تماماً على النقاط ١ – ٧ . ولا يمكن ان يكون بيننا أي خلاف حول ذلك) .

كما لا تعارضين في ان هذا تفسير **بروليتاري**. إذاً تبقى النقاط من ٨ - ١٠ .

فأنت لا « تفهمينها كثيراً » و « تعترضين » : « لا افهم كيف **يمكن** (هكذا تكتبين !) تشبيه (؟؟!!) الحب بالنقطة العاشرة ...

إذاً ، **انا** الذي « يشبه »، فتهيأت لتوبيخي وتحطيمي ؟

فكيف هذا ؟ وما هذا ؟

البرجوازيات يفهمن بحرية الحب النقاط ٨ – ١٠ . هذه هي نظريتي .

فهل تنكرينها ؟ قولي إذاً : ماذا تفهم السيدات البرجوازيات من حرية الحب ؟

إنك لا تقولين شيئاً من هذا. ألا **تبرهن** الحياة والأدب على ان البرجوازيات يفهمن منها ما اوردته . يبرهنان تماماً ! وأنت تعترفين صامتة بذلك .

وإذا كان الأمر كذلك ، فالقضية في وضعهن الطبقي. « ودحضهن » **أمر** يكاد يكون ساذجاً ويسيراً . وعليك بالمقابل ان **تبرزي** وجهة **النظر البروليتارية وتعارضيها** بوجهات نظرهن. كما عليك ان تأخذي بالحسبان هذا الواقع **الموضوعي**، **وإلا** سيجتزئن المقاطع التي تناسبهن من كراسك وسيأولنها على طريقتهن فيكون كراسك بمثابة ماء لطاحونتهن ، وسيشوهن افكارك امام العمال « وسيبلبلن » افكارهم (بعد ان يزرعن الخوف فيهم من انك تحملين اليهم افكاراً غريبة) فهن يسيّرن الكثير من الصحف الخ ...

أما انت فتنتقلين إلى « الهجوم » علي ، بعد أن نسيت تماماً وجهة النظر الموضوعيةوالبروليتارية ، وكأني « اشبه »حرية الحب بالنقاط ٨ — ١٠ . غريب والله أمرك غريب .

« حتى الشهوة والعلاقة العابرة »« اكثر شاعرية وطهراً » من « قبل حب فارغة » يتبادلها زوجان (مبتذلان) . هكذا تكتبين . وهكذا تتهيئين للكتابة في كراسك . وهذا شيء رائع .

فهل هذه المقارنة منطقية ؟ إن قبل الزوجين المبتذلين الفارغة من الحب قذرة . أو افقك على ذلك . فبماذا كان يجب عليك أن تقابليها ؛ كان عليك أن تقابليها بقبل حب ؛ أمّا أنت فتقابلينها « بشهوة عابرة » (لماذا شهوة وليس حبّاً ، ولماذا عابرة ؟) . والنتيجة المنطقية أنك تعارضين قبل الزوجين الفارغة من الحب بالقبل العابرة الفارغة من الحب ... غريب ! أليس من الأفضل بالنسبة لكراس اعد للجمهور الواسع أن تعارضي الزواج الفلاحي البرجوازي الصغير (النقطتان السادسة والخامسة عندي) ، المبتذل والقذر الذي لا يقوم على الحب ، بالزواج البروليتاري المدني القائم على الحب (مع إضافة أن العلاقة القائمة على شهوة عابرةقد تكون قذرة وقد تكون طاهرة ، إذ ان لم يكن لك غنى عن ذلك) . أمّا ما عندك فليس مقابلة بين نماذج طبقية ، بل شيء يشبه حالة خاصة ممكنة الحدوث بالطبع . ولكن،هل المسألة في الحالات الخاصة ، الشاذة ؟ فإذا تناولت موضوعاً وليكن : القبل القذرة في الزواج والطاهرة في العلاقة العابرة (وهذه حالة خاصة ، حادثة طارئة) ، عليك أن تعالجيه في رواية (ففحوى المسألة كلها هنا في الوضع الفردي ، في تحليل اخلاق النماذج المعطاة ونفسيتها) . أمّا في كراس !؟

لقد فهمت تماماً فكرتي حول عدم ملاءمة الاستشهاد بكي(٩٤)،فقلت إنه من « غير المعقول » أن تلعبي دور « دكتور في الحب » . بالضبط . أمّا دور « دكتور في العلاقة العابرة الخ » ؟

الحقيقة أني لا ارغب في المماحكة . وكنت على استعداد لان أرمي رسالتي هذه جانباً بكل طيبة خاطر،وأؤجل الخوض في هذه الموضوع حتى نلتقي، لولا رغبتي في أن يكون الكراس جيداً ، حتى لا يستطيع أي كان أن يقتطف منه جملاً لا تسرّك (وتكفي احياناً جملة واحدة لتكون كملعقة قطران في برميل ...) ، ثم يأول أفكارك تأويلاً لا تريدينه . إني موقن أنك كتبت ما كتبت « خلافاً لإرادتك » هنا أيضاً ، وإذا كنت ابعث لك هذه الرسالة، فما ذلك إلا لسبب واحد فقط ، هو أنها قد تكون مناسبة أفضل من الأحاديث، تمحصين من خلالها مشروعك . فالمشروع شيء هام جداً .

ألا يوجد بين معارفك اشتراكية فرنسية ؟ ترجمي لها نقاطي من ١ — ١٠ وملاحظاتك حول « الشهوة العابرة » الخ . (ادعي أنك تترجمينها عن اللغة الانكليزية) ، وانظري إليها واستمعي إليها بانتباه شديد . إنها لتجربة صغيرة أن يسمع المرء ما يقوله الآخرون ممن ليس لهم علاقة مباشرة بالموضوع : ما هي انطباعاتهم وماذا يتوقعون من الكراس ؟

أشد على يدك واتمنى أن يخف وجع رأسك وتعافي بسرعة .

ف . أو

برن ٢٤ / ١ / ١٩١٥

ج ٤٩ ، ص ٥٤ — ٥٧

من رسالة الى

م. أ. أوليانوفا

٢٠ / ٢ / ١٩٠١

... هل تترددين إلى المسرح ؟ ما هي مسرحية تشيخوف الجديدة هذه « الأخوات الثلاث » ؟ هل شاهدتها وماذا وجدت ؟ لقد قرأت تعليقاً عليها في الصحف . إن فناني المسرح الفني (ذي اسعار الدخول الزهيدة) يمثلون بشكل رائع . ولا زلت أذكر بسرور زيارتي له في العام الماضي مع المسكين كولومب .

ميونخن

ج ٥٥ ص ٢٤٠

من رسالة الى

م. أ. أوليانوفا

٤/٢/١٩٠٢

... حضرنا منذ مدّة وجيزة ، وللمرّة الأولى في هـــذا الشتاء ، حفلة موسيقية جيدة ، وكنا راضين جداً وخصوصاً عن آخر سمفونية لتشيكوفسكي (السمفوني الباتيتيك) . هل تقام عندنا في سمارا حفلات موسيقية جيدة ؟ كنّا مرّة واحدة في أحد المسارح الألمانية — كم اود لو اذهب الى « المسرح الفني » الروسي لأشاهد مسرحية غوركي « في القاع » ...

لندن

ج ٥٥ ، ص ٢٢٩

من رسالة الى أ . ف لوناتشارسكي

... يجب علينا اعطاء وصف (أدبي نقدي) حي وحاد ودقيق ومسهب للمائة السود هؤلاء [95] . فهذا الزيف هو الأساس عند ل.م (هل قرأت هـذه الفضيحة الشنيعة في العـــدد ١٠٧ ؟ سفارتس يرد عليها بمقال . ولا أدري إذا كان الأمر يستحق ذلك) وعند ستاروفير أيضاً . أعتقد ان من الواجب جمع عدد من أمثال هـــذه المقالات والكراسات وتسليط الضوء على الكذب الفاضح فيها ، وكشفه بشكل لا يستطيع معه احد ان يتملص من مسؤوليته ، ثم التشهير به على انه من « أدب المائة السود » . لقد قدمت جماعة«نوفايا ايسكرا» (ايسكرا الجديدة) مواد كثيرة في هذا الشأن. فإذا عالجنا هذه المواد بتمعن ، والقينا الضوء على هذه الأساليب الدنيئة في **الافتراء** والنميمة الخ . . . لتظهر في كامل روعتها نكون قد توصلنا الى شي قوي جداً . « فتلميحات ل.م « الشخصية » ، الغامضة، تكفي وحدها مثالاً على السفالة اللامتناهية !!

قد أتولى بنفسي الموضـوع الأول ، لكن ليس الآن وليس في وقت قريب . فليس لدي وقت الآن (وقد يتأخر الموضوع تماماً) .

أما الموضوع الثاني فليس بودي أن أتولاه ، واعتقدأنك ، انت **وحدك**، تستطيع ذلك . إنه عمل غير سار ، نتن لا شك في ذلك ــ لكننا لسنا من ذوي السواعد البيضاء البضة ، بل نحن صحفيون . وترك « السفالة والسم » دون التشهير بها أمر لا يجوز بالنسبة لكتاب الاشتراكية الديمقراطية .

فكر في هذا واكتب لي ..

بين ١٥ و ١٩٠٥/٨/١٩ جنيف ج ٤٧ ص ٥٨

من رسالة الى أ.ف. لوناتشارسكي

... ثم بخصوص الانشقاق مرة أخرى . انت لم تفهمني ، وليس من ضرورة لانتظاري، فالموضوعان مختلفان . الموضوع الاول يتعلق بقصة (نحاول أن نسويها) ، أما الثاني فبدراسة عن اساليبهم في النقاش دراسة أدبيـــة نقدية ولكن موضوعها فرضاً « الأدب الرخيص » . علينا ان نحلل في هذه الدراسة ، وفي عدة فصول تشكل كراساً كاملاً ، تفاهة ستاروفير ومارتوف وغيرهما هـذه في نقاشهم مع « البروليتـــاري » ، وما يتردد من حديث حول الأكثرية أو الأقلية ، الخ . . استشهد في عملك هذا بأقوالهم . شهر بهم لطريقتهم الوضيعة في الحرب . اجعل منهم نموذجاً . ارسم لهم صورة تكون ملء قامتهم مســـتشهداً بأقوالهم ذاتها. واعتقد أنك ستنجح لو أجهدت نفسك قليلاً في جميع الاستشهادات.

جنيف أواخر آب ١٩٠٥

ج ٧ ص ٦٣

(دوشيتشكا) الاشتراكية الديمقراطية

يتابع الرفيق ستاروفير الذي تحييه « الأوسفوبوجدينيي »[٩٦] في « الاسكرا » الجديدة الندم على خطاياه التي اقترفها (عن عدم فهم) بمشاركته في « الاسكرا » القديمة . يشبه الرفيق ستاروفير شبهاً كبيراً بطل قصة تشيخوف « دوشيتشكا » . كانت دوشيتشكا تعيش في أول الأمر مع رئيس جوقة وكانت تقول : اننا نخرج ، أنا وفانيتشكا ، مسرحيات جدية . ثم عاشت مع تاجر أخشاب فصارت تقول : اننا مستاءان، أنا وفاسيتشكا ، من الضريبة العالية على الخشب . وأخيراً عاشت مع طبيب بيطري فصارت تقول : اننا نداوي الخيول، أنا وكوليتشكا . وهكذا يفعل الرفيق ستاروفير . «شتمت مع لينين»مارتينوف والآن « اشتم مع مارتينوف » لينين .

في أحضان من ستكونين غداً يا دوشيتشكا الاشتراكية الديمقراطية الغالية ؟

كتب بعد ٢٤ أيلول (٧ ت ١) ١٩٠٥
ج ١١ ص ٢٨١

من رسالة

إلى هيئة تحرير صحيفة « البرافدا »

. . . بخصوص ديميان بيدني استمروا في **الوقوف الى جانبه** . لاتجعلوا، أيها الرفاق ، من نقاط الضعف الانساني موضعاً للانتقاد المستمر ! فالموهبة شيء نادر ، وعلينا أن نساعدها بحيطة وبانتظام . إنكم ستقترفون خطيئة ، وخطيئة كبيرة (أكبر بمائة مرة من مختلف « الخطايا » الشخصية ، إذا كان لهذه من وجود . . .) بحق الديمقراطية العمالية ، ان لم تستميلوا مساعداً موهوباً الى جانبكم وان **لم تساعدوه** . لقد كانت المنازعات تافهة ، لكن القضية كبيرة . **فكروا** في هذا ! . .

. . . تحية خاصة إلى فيتيمسكي ، فقد كانت مقالته عن الصحافة العمالية والديمقراطية العمالية الموجهة ضد الليبراليين **ناجحة جداً** ! ! . أما « ايديولوجيا» بوغدانوف فهرطقة **على الأرجح** . واعدكم أن أبرهن على ذلك بشكل دقيق ! !

إن الماركسيين يسرون بازدياد نسخ الجريدة عندما يزداد عدد المقالات **الماركسية** ، لا المقالات الموجهة ضد **الماركسية** . إننا نريد صحيفة فكر ماركسي ، لا فكر ماخي (والعاملون في البرافدا وقراؤها يريدونه ، أليس كذلك ؟

كتبت في أيار (بعد الخامس والعشرين منه) عام ١٩١٣

ج ٤٨ ص ١٨٢ — ١٨٣

من رسالة الى ا.ف. أرمند

انتهيت لتوي من قراءة رواية فينيتشنكو [٩٧] الجديدة التي بعثت بها إلي أيتها الصديقة العزيزة. هذا هو الهلس والغباء - أن تكدس أكبر عدد ممكن من «الأهوال»، فتوحد بين «الخطيئة»، «والزهري»، والجريمة (من النوع الذي لا نراه إلا في الروايات فقط) وبين ابتزاز الأموال بحجة كتمان السر (مع تحويل أخت الشخص الذي يجري ابتزازه الى خليلة) ومقاضاة الطبيب! وهذا كله يجري لأناس مصابين بالهستيريا، غريبي الاطوار يدعون أن لهم نظرية «خاصة» في تنظيم المومسات. إن هذا التنظيم لا يشكل بذاته أي سوء. لكن الكاتب بالذات، لكن فينيتشنكو نفسه يجعل منه أمراً غير معقول يلوكه متلذذاً به ويجعل منه غواية.

قيل في «ريتش» ان الرواية تقليد لدوستويفسكي، وان هذا أمر جيد بحد ذاته. في رأيي ان التقليد موجود، وهو تقليد رديء جداً لدوستويفسكي الرديء جداً. يحدث في الحياة وبشكل إفرادي كل ما يصفه فينيتشنكو من «أهوال»، لكن أن نجمع هذه الفظائع كلها، معا وبهذه الصورة، معناه أننا نرسم الفظائع رسماً رديئاً، أننا نلهب خيالنا وخيال القارىء دون طائل، أننا نضرب بالمطرقة على رؤوسنا ورؤوس القراء.

لقد حدث لي ذات مرة أن أمضيت ليلة مع رفيق مصاب بهذيان السكارى. وحاولت مرة أخرى اقناع رفيق حاول الانتحار (حاولت اقناعه بعد محاولة

الانتحار مباشرة) ، وقـــد انتحر فعلاً بعد عدّة سنوات . وكلتا الذكريين على طريقة فينيتشنكو ، إلاّ انهما ليستا في الحالتين إلا قطعتين صغيرتين من حيـاة هذين الرفيقين . امّا هذا الفينيتشنكو ، الغبي والدعي الفظ والمعجب بنفسه ، فقد قدّم لنا مجموعة كاملة من الأهوال المتتالية ، نوعاً من « الفظائـع ببنسين » . بررر . . . هراء ، قذارة. اسف لأني هدرت وقتي في قراءة هذه الرواية.

بارونين . كتب في حزيران ، قبل
الخامس منه عـــام ١٩١٤
ج ٤٨ ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥

* * *

ملاحظات

١ – كتب لينين مقال « مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة » عام ١٩١٣ بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة كارل ماركس .

٢ – بدأ لينين كتابة « المادية والتجربية الانتقادية » في شباط عام ١٩٠٨ في جنيف . وفي أيار – حزيران من العام نفسه غادر لينين جنيف الى لندن بحثاً عن المؤلفات التي يحتاج اليها في المتحف البريطاني . انتهى لينين من كتابه في تشرين الأول عام ١٩٠٨ ،وصدر الكتاب في أيار عام ١٩٠٩ .

٣ – انظر ف. انغلز «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية».

٤ – المصدر السابق .

٥ – « المجلة الحولية الافرنسية – الالمانية » ظهرت في باريس عام ١٨٤٤ بإشراف ماركس وروغي . لم يصدر منها الا عدد واحد .

٦ – راجع رسالة ماركس المذكورة ومقدمة انغلز للطبعة الانكليزية لكتاب « تطور الاشتراكية من الطوباوية الى العلم » .

٧ – يقصد لينين مجموعة مقالات لبازاروف ولوناتشارسكي وبوغدانوف وبيرمان ويوشكيفتش وغيلفوند ظهرت عام ١٩٠٨ بشكل كتاب يحمل اسم « مقالات في فلسفة الماركسية » .

٨ – كان هذا المقطع « اسهام في مسألة الديالكتيك » تعميماً قام به لينين عندما كان منهمكاً في معالجة المسائل الفلسفية بين عامي ١٩١٤–١٩١٥ .

٩ – « روسكويي بوغاتستفو » (الثروة الروسية) مجلة شهرية صدرت من عام ١٨٧٦ حتى منتصف عام ١٩١٨ في بطرسبرغ . اصبحت منذ اوائل التسعينات لسان حال الشعبين الليبراليين ، وكان يحررها كريفنكو وميخايلوفسكي . التف حولها كتاب اصبحوا فيما بعد اعضاء بارزين في احزاب الاشتراكيين الثوريين والاشتراكيين الشعبين وجماعات العمل في الدومات الحكومية . في عام ١٩٠٦ اصبحت المجلة لسان حال الحزب الاشتراكي الشعبي النصف كاديتي . كانت المجلة تنادي بالابتعاد عن النضال الثوري ، كما شنت نضالاً عنيفاً ضد الماركسية والماركسيين الروس .

١٠ – « فيسنيك اوروبا » (بشير اوروبا) مجلة شهرية تاريخية وسياسية وادبية صدرت في بطرسبرغ من عام ١٨٦٦ وحتى صيف ١٩١٨ . كانت تبشر بأفكار البرجوازية الليبرالية الروسية .

١١ – ظهر المقـــال في العدد الثاني عشر من الصحيفة البلشفية العلنية « نوفايا جيزن » (الحيـاة الجديدة) بعد عودة لينين من الغربة الى بطرسبرغ في تشرين الثاني عـام ١٩٠٥ . وبعد عودة لينين صارت الصحيفـة تحت اشراف لينين المباشرة واصبحت عملياً لسان حـال الحزب الاشتراكي الديمقراطي العمالي الروسي . وقـد شارك في تحرير الصحيفة فوروفسكي ولونا تشارسكي وغوركي الذي قدم لها مساعدة مادية كبيرة .

١٢ – المقصود هنـا اضراب تشرين الأول السياسي العام ، عـام ١٩٠٥ ، وهو الاضراب الذي اصدر القيصر اثره اعلاناً بمنح الشعب الحريات العامة .

١٣ – لسان حال النواب العمال .

١٤ – « سيفيرنايا برافدا » (حقيقة الشمال) احدى تسميات جريدة البرافدا .

١٥ – « دزفين » (الجرس) مجـلة شهرية علنية . كانت قومية متطرفة وذات

اتجاه منشفيكي . صدرت باللغة الاوكرانية في كييف في عام ١٩١٣ و ١٩١٤ وكان تروتسكي احد محرريها .

١٦ – منظمة معادية للثورة تضم الاقطاعيين. تشكلت في ايار عام ١٩٠٦ . كان كان للاتحاد تأثير كبير على سياسة الحكومة وكان يملي عليهـــا القوانين لصالح الاقطاعيين . دخل عدد كبير من اعضائه في سوفييت الدولة في فترة الدوما الثالثة كما احتلوا مراكز قيادية في منظمات المائة السود الرجعية

١٧ – يقصد لينين المجلة الليبرالية « الحق » (عدد آب ١٩١٣) .

١٨ – « كولوكول » (الجرس) صحيفة سياسية صدرت بشعار « أنادي الأحياء » بإشراف غرتسن وأوغاريوف في لندن من اول تموز عام ١٨٥٧ حتى نيسان ١٨٦٥ ثم في جنيف من أيار ١٨٦٥ حتى تموز ١٨٦٧

كانت الكولوكول في مقدمة الصحافة الثورية غير المراقبة ، وكانت توزع سراً في روسيا .

١٩ – جماعة « تحرير العمل » اول مجموعـــة ماركسية روسية . اسسها بليخانوف في جنيف عـــام ١٨٨٣ ، وقامت بعمل كبير في نشر افكار الماركسية ، وترجمة مؤلفاتها الى الروسية وعرضها باسلوب مبسط .

٢٠ – اسكرا (الشرارة) اول صحيفة ماركسية غير شرعية تصدر لعموم روسيا . اسسها لينين عام ١٩٠٠ .

٢١ – « رابوتشي » (العامل) اول صحيفة اشتراكية ديمقراطية روسية غير شرعية ، صدرت في بطرسبرغ من كانون الثاني الى تموز عام ١٨٨٥ .

٢٢ – رابوتشي ليستوك (الورقة العمالية) صحيفة غير شرعية ، لسان حال « اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة » . صدر منها عددان : الأول في روسيا في شباط عام ١٨٩٧ ، والثاني في جنيف في ايلول عام ١٨٩٧ . طرحت الصحيفة مهمة توحيد نضال الطبقة العاملة الاقتصادي مع المهام السياسية العريضة ، وضرورة انشاء حزب عمالي .

٢٣ - «رابوتشايا ميسل» (الفكر العمالي) ـ صحيفة انصار المذهب الاقتصادي. انتقد لينين افـكارها بوصفها صيغة روسية لافـكار الانتهازية الدولية .

٢٤ - « رابوتشي ديلو » (القضية العمالية) هي مجلة « الاقتصاديين » . كانت تصدر بشكل غير دوري عن « اتحاد الاشتراكيين الديمقراطيين الروس» في الخارج . صدر منها ١٢ عدداً بين عامي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ .

٢٥ - « رابوتنيك » (العامل) صدرت بين عامي ١٨٩٦ - ١٨٩٩ في جنيف باشراف جماعة تحرير العمل .

٢٦ - « فبيريود » (الى الامام) صحيفة بلشفية غير شرعية تأسست في جنيف وصدر منها ١٨ عدداً من ١٩٠٥/١/٣ حتى ١٩٠٥/٥/١٨ . كان لينين منظمها وملهم فكرها ومديرها ، وكان يشارك في تحريرها فوروفـسكي واولمنسكي ولونا تشارسكي . قال لينين عنها : ان اتجاه « فبريود» هو اتجاه « الاسكرا » القديمـــة » . وقد لعبت الصحيفة دوراً عظيماً في الاعداد للمؤتمر الثـــالث للحزب وفي طرح اهم المسائل المتعلقة بثورة عام ١٩٠٥ .

٢٧ - « ناتشـالو » (البداية) صحيفة يومية منشفية شرعيـة . صدرت في بطرسبرغ من تشرين الثـاني حتى كانون الاول عام ١٩٠٥ . صدر منهـا ١٦ عدداً

٢٨ - فولنـا (الموج) صحيفة يومية بلشفية شرعية صدر منهـــا ٢٥ عدداً في بطرسبرغ ابتداء من ٩ ايار عام ١٩٠٦ .

٢٩ - « ايخو » (الصدى) صحيفة يومية بلشفية شرعية صدرت في بطرسبرغ من ٥ / ٧ حتى ٢٠ / ٧ عام ١٩٠٦ بدلاًمن صحيفة « فبيريود » التيمنعتها الحكومة . كان لينين محررها الفعلي .

٣٠ - « نارودنايا دوما » (الدوما الشعبية) صحيفة يومية منشفية صدر منها ١٢ عدداً في بطرسبرغ بين شهري آذار وحزيران ١٩٠٧ .

٣١ – انظر مقال «في المسألة الاجتماعية في روسيا» الذي يعطي فيه انغلز وصفاً لسكالدين.

٣٢ – اضطر لينين، وهو يتحدث عن «التراث الفكري» لستينات القرن التاسع عشر، أن يستشهد بسكالدين لأسباب تتعلق بالرقابة. والحقيقة ان لينين كان يعتبر تشرنيشفسكي اهم ممثل «للتراث» وقد ورد ذلك في رسالته إلى بوتريسوف في ١٨٩٩/١/٢٦. انظر المؤلفات الكاملة ج٤٦، ص١٨–١٩.

٣٣ – أوتيتشيسفنيي زابيسكي (المذكرات الوطنية) مجلة سياسية أدبية ظهرت في بطرسبرغ عام ١٧٢٠ وأصبحت منذ عام ١٨٣٩ افضل مجلة تقدمية. شارك في اعمالها كل من بيلنسكي وغرتسن وغرانوفسكي وأوغاريوف وآخرون. أخذت أهمية المجلة تتضاءل بعد خروج بيلنسكي من هيئة تحريرها عام ١٨٤٦. عرفت المجلة عهد ازدهار ثان منذ عام ١٨٦٨ عندما اشرف عليها نيكراسوف وسالتيكوف شيدرين. وفي هذا الوقت التف حول المجلة المثقفون الديمقراطيون الثوريون. بعد موت نيكراسوف أصبح للشعبيين النفوذ الأقوى في المجلة. تعرضت المجلة فترات عديدة في حياتها للملاحقة ثم اغلقتها الحكومة عام ١٨٨٤.

٣٤ – مجلس ادارة مستقل شكل قبل الثورة في المناطق، كانت غالبية الاعضاء فيه من النبلاء الاقطاعيين.

٣٥ – الصحيفة الزراعية – هي لسان حال وزارة الزراعة واملاك الدولة

٣٦ – يورد لينين هنا كلمات من كتاب سكالدين الآنف الذكر.

٣٧ – «نوفويي سلوفا» (الكلمة الجديدة) مجلة علمية أدبية سياسية شهرية. اصدرها الشعبيون الليبراليون في بطرسبرغ منذ عام ١٨٩٤ ثم أشرف عليها «الماركسيون الشرعيون» (ستروفي وتوغان بارانوفسكي منذ بداية عام ١٨٩٧). نشر فيها لينين مقالين عند ما كان في المنفى في سيبريا (اسهام في وصف الرومنطيقية الاقتصادية وحول ملاحظة وردت في صحيفة). كما كتب فيها بليخانوف وزاسوليتش ومارتوف وغوركي وغيرهم. اغلقت الحكومة القيصرية المجلة في كانون الأول عام ١٨٩٧.

٣٨ – يورد لينين هنا مقطعاً من مقال بيساريف « شطحات فكر غير ناضج » .

٣٩ – صدر الكراس في جنيف عام ١٨٩٨ بعنوان « اسهام في مسألة مهام الاشتراكية الديمقراطية الروسية وتكتيكها » .

٤٠ – القى لينين المحاضرات حول « النظرة الماركسية إلى المسألة الزراعية في أوروبا وفي روسيا » في باريس في المدرسة الروسية العليا للعلوم الاجتماعية في شهر شباط عام ١٩٠٣.

٤١ – يقصد لينين مقال كارل ماركس (مشروع قرار بالغاء اعمال السخرة الاقطاعية) ومقال انغلز (مناقشات حول المسألة البولونية في فرنكفورت).

٤٢،٤٣،٤٤ – انظر المؤلفات الكاملة للينين الجزء ٢٣ الصفحات ١٩٢ – ١٩٣ ٥٨٧ – ٥٩٠ ، ٥٨٢ .

٤٥ – كريدو (قانون ايمان ، برنامج) اعلان أصدرته جماعة (المذهب الاقتصادي) ومن هذه الجماعة بروكوبوفيتش و كوسكوف وغيرهما الذين اصبحوا فيما بعد من الكاديت (الكاديت هم اعضاء الحزب الديمقراطي الدستوري الذي انتسب اليه ممثلو البرجوازية والملاكين العقاريين والمثقفون البرجوازيون) .

٤٦ – يقصد لينين كتاب شيدرين : مقالات من خارج البلاد .

٤٧ – عنوان مقالة كتبها تشرنيشفسكي في نقد قصة تورغنيف (آسيا) .

٤٨ – لهذه الملاحظات اهمية خاصة لأنها تبين تطور بليخانوف الفكري من جهة، وتبين من جهة أخرى التأثير الذي احدثته اتجاهات الكاتب المنشفية في تقييمه لتراث الديمقراطي الثوري الروسي العظيم تشرنيشفسكي.

٤٩ – كتب المقال بلغة إيزوب لأسباب تتعلق بالرقابة : فالحزب يسمى في المقال بالمجموع أو القديم ، كما يلمح لينين تلميحاً بعيداً إلى المؤتمر الخامس للحزب واجتماع اللجنة المركزية الخ ... صدر المقال في مجلة (ميسل) (الفكر) وهي مجلة بلشفية شرعية شهرية تعنى بالفلسفة والعلوم الاقتصادية والاجتماعية . صدرت في موسكو في كانون الأول عام ١٩١٠ بمبادرة

لينين للنضال ضد الصحف التصفوية . صدر منها خمسة اعداد .

٥٠ – ناشازاريا (فجرنا) مجلة شهرية – منشفية تصفوية علنية صدرت في اعوام ١٩١٠ – ١٩١٤ ، تشكل حولها المركز الرئيسي للتصفويين. (جيزن) « الحياة » مجلة المناشفة التصفويين صدرت في أواخر عام ١٩١٠ في موسكو بدلاً من مجلة (البعث) التي اغلقت .

٥١ – يورد لينين ابيـــاتا للشاعر الروسي نيكراسوف من مؤلف (مشاهد من الملهاة الغنائية (صيد الدب) .

٥٢ – حدد مرسوم التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٠٦ وقانون ١٤ حزيران عام ١٩١٠ قواعد خروج الفلاحين من المشاعة وتمليكهم الأرض .

٥٣ – يورد لينين كلمات فولغين بطل رواية تشرنيشفسكي (المقدمة) .

٥٤ – ٥٥ – يورد لينين كلمات غرتسن نفسه .

٥٦ – الاتحاد الفلاحي لعامة روسيا ـ منظمة ديمقراطية ثورية نشأت عام ١٩٠٥ ، كانت تطالب بدعوة الجمعية العامة للاجتماع في الحال والغاء الملكية الخاصة للأرض ، وبمصادرة املاك الدولة والكنائس والأديرة وغيرها وتوزيعها على الفلاحين . اظهر اتحاد الفلاحين الكثير من التردد والمواقف الوسطية في دفاعه عن هـذه المطالب ، لوقوعه تحت تأثير الاشتراكيين الثوريين والليبراليين .

٥٧ – بوليارنايا زفيزدا (نجم القطب) مجموعة أدبية سياسية أصـــدر غرتسن الأجزاء الثلاثة الأولى منهـا ثم اشترك معـه أوغاريوف في اصدار بقيـة الأجزاء في لنـدن بين عامي ١٨٥٥ – ١٨٦٢ ثم صـدر الجزء الثـامن والأخير في جنيف عام ١٨٦٨ . لعبت بوليارنايا زفيزدا دوراً كبيراً في تطوير الأدب التقدمي والفكر الاجتماعي الروسيين .

٥٨ – يورد لينين مقطعاً من مقالة غرتسن « ن . غ تشرنيشفسكي » .

٥٩ – الكلام لغرتسن .

٦٠ – الكلام لغرتسن .

٦١ – كانت الانتفاضة في قرية بيزدن من مقاطعة قازان جواباً على مرسوم ١٦ شباط عام ١٨٦١ المتعلق بشروط الغاء حق القنانة . امتنع الفلاحون ، بناء على نداء انطون بيتروف الذي قاد الحركة ، عن القيام بأعمال السخرة ودفع الجزية للاقطاعيين ، كما أخذوا القمح من مخازن الاقطاعيين ورفضوا التوقيع على الصكوك التي تحدد مقدار قطع الأرض والجزية ... انتشرت الاضطرابات إلى ٧٥ نقطة مأهولة في مقاطعات سامارا وقازان وسيمبير. سحقت الانتفاضة بمنتهى الوحشية (قتل أكثر من ٩٠ شخصا وجرح اكثر من ٣٥٠ ، وشنق انطون بيتروف) . وصف غرتسن هـذه المأساة في صحيفة « الكولوكول » .

٦٢ – الكلام لغرتسن .

٦٣ – جماعة العمل – مجموعة من الديمقراطيين البرجوازيين الصغار اسسها نواب الفلاحين في الدوما الأولى في نيسان عام ١٩٠٦ .

طالب اصحاب جماعة العمل بإنهاء كل التقييدات الطبقية والقومية ،وجعل الادارة ديمقراطية في المدن والقرى واعطاء حق الانتخاب للجميع . أما في المسألة الزراعية فقد كان برنامج الجماعة ينطلق من المبادىء الشعبية .

٦٤ – الفكر الصحيح – احدى تسميات صحيفة « جيفاياميسل » (الفكر الحي) وهي صحيفة شعبية يسارية (اشتراكية ثورية) صدرت في بطرسبرغ بين عامي ١٩١٣ و ١٩١٤ .

٦٥ – يقصد لينين الملكية .

٦٦ – « ريتش » (الكلام) صحيفة يومية ، لسان حال الكاديت .

الكاديت – اعضاء الحزب الدستوري الديمقراطي وهو حزب البرجوازية الملكية الليبرالية الرئيسي في روسيا . تأسس في أوكتوبر عام ١٩٠٥ وكان يضم ممثلي البرجوازية والاقطاعيين والمثقفين البرجوازيين (ستروفي وغيره) . ساند الكاديت موقف القيصر في الحرب الامبريالية الأولى ، وحاولوا انقاذ القيصرية اثناء ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية ، ثم

انضموا إلى صفوف البيض بعد انتصار ثورة أوكتوبر الاشتراكية ، واشتركوا مع المتدخلين الأجانب في الاعمال المناهضة للسلطة السوفييتية.

٦٧ — الابيات لنيكراسوف من قصيدته الشعرية الكبيرة « من يحيا سعيداً في روسيا ؟ » (اغنية غريشا « روسيا ») .

٦٨ — أو النار ودنايا فوليا (باللغة الروسية) ـ منظمة شعبية سياسية سرية نشأت عام ١٨٧٩ لتخوض نضالاً ثورياً ضد الحكم القيصري الاستبدادي .
قضت الحكومة على هذه المنظمة بعد قتل القيصر اسكندر الثاني في آذار عام ١٨٨١ على ايدي اعضاء المنظمة المذكورة مباشرة. ولم تؤد المحاولات المتعددة لاحياء هذا التنظيم إلى نتيجة . ثم اعدم الذي شاركوا في الاعداد لمحاولة اغتيال اسكندر الثالث عام ١٨٨٧ (أ . إ . أوليانوف وشيفيريوف وغيرهما) وكانوا يستلهمون في ذلك مبادىء النارودنايا فوليا القديمة . أشار لينين إلى أن أعضاء النارودنايا فوليا قاموا بدور هائل في في تاريخ الحركة الثورية في روسيا ، على الرغم من ضآلة الفئات الاجتماعية التي كانت تساندهم .

٦٩ — حرم ليف تولستوي من الكنيسة الارثوذكسية بقرار صادر عن المجمع المقدس ما بين ٢٠ و ٢٢ شباط عام ١٩٠١ . وفي الوقت نفسه منعت الحكومة مناقشة هذا القرار في الصحف، كما منعت نشر مقالات التحية الموجهة إلى تولستوي بمناسبة هذا القرار . فصارت رسائل التعاطف التي بعث بها العمال والفلاحون والمهاجرون السياسيون ورجال المجتمع الأجانب وحتى بعض رجال الدين ترد مباشرة إلى تولستوي لمدة عدة أشهر .
وفي أواسط آذار بعث تولستوي إلى هيئات تحرير الصحف رسالة يشكر فيها الجميع « من كبار الموظفين حتى اصغر العمال » على تعاطفهم معه . وينهي تولستوي رسالته بقوله : « إني لا اعزو هذا العطف إلى أهمية نشاطي بقدر ما اعزوه إلى ذكاء المجتمع المقدس وحسن اختياره لوقت اصدار القرار » .

٧٠ — المقصود هو البرقية التي أرسلها النواب الاشتراكيون الديمقراطيون في

الدوما الثالثة لـ ن . غ . تشيرتيكوف،وهو واحد من أقرب أصدقاء تولستوي واتباعه وقدجاء فيها : إن المجموعة الاشتراكية البرلمانية ،وهي تعرب عن مشاعر البروليتاريا الروسية والعالمية ، لتشعر بالأسى العميق لفقد فنان عبقري ومناضل مظفر لا يمل ضد الكنيسة الرسمية ، عدو للتعسف والعبودية رفع صوته عالياً ضد حكم الاعدام،وصديق للمضطهدين».

٧١ – يقصد لينين الفصل الثالث من « بيان الحزب الشيوعي » الذي أصدره ماركس وانغلز .

٧٢ – صدر المقال في المجموعة البلشفية « صوت الحياة » .

٧٣ – (الر[illegible]) - صحيفة يومية لم تكن تنتمي رسمياً إلى أي حزب ، إلا أنها كانت في الواقع لسان حال الكاديت اليساريين كما شارك المناشفة في تحريرها.

٧٤ – يقصد لينين الاضراب السياسي العام الذي حدث عام ١٩٠٥ .

٧٥ – حزب التجدد السلمي - منظمة برجوازية اقطاعيـــة ملكية دستورية تشكلت عام١٩٠٦. وكانت تجمع بين الأوكتوبريين اليساريين والكاديت اليمينيين . كان حزب التجدد السلمي قريباً من الأوكتوبرية من حيث برنامجه . وكان لينين يسمي هذا الحزب « حزب النهب السلمي ».

٧٦ – يورد لينين أبياتاً من شعرغوته .

٧٧ – فيخي (المعالم) مجموعة صدرت عن الكاديت في موسكو في ربيع عام ١٩٠٩ تضم مقالات لبيرديابيف وبولغاكوف وستروفي وغيرهم من ممثلي البرجوازية الليبرالية المعادية للثورة. حاول الفيخوفيون في سلسلة مقالات عن المثقفين الروس النيل من التقاليد الديمقراطيـة الثورية لحركة التحرر في روسيا ، ولأفضل ممثلي الشعب الروسي بمن فيهـــم تشرنيشفسكي ودوبرالدبوف وبيساريف . كما شنعوا في مقالاتهم على حركة عام ١٩٠٥ الثورية ، وشكروا الحكومة القيصرية لأنها انقذت (بحرابها وسجونها) البرجوازية من (غضبة الشعب) وأهابوا بالمثقفين خدمة القيصر .

٧٨ – (النشرات الموسكوفية) ـ مجلة اسبوعية صدرت منذ عام ١٧٥٦ . انتقلت منذ ستينات القرن الماضي إلى كاتكوف واصبحت المعبرة عن آراء فئات اكثر الاقطاعيين ورجال الدين المناصرين للملكية رجعية. منذ عام ١٩٠٥ أصبحت من أهم صحف جماعة المائة السود. اغلقت بعد ثورة اكتوبر .

٧٩ – دستور الثالث من حزيران قانون انتخابي اصدرته الحكومة القيصرية في الوقت الذي طردت فيه الدوما الثانية . كان من شأن القانون الجديد أن يزيد من عدد ممثلي الاقطاعيين والبرجوازية الصناعية التجارية في الدوما، كما قلص عدد ممثلي الفلاحين والعمال إلى حد كبير . وحرم هذا القانون قسماً كبيراً من سكان روسيا الاسيوية حق الانتخاب وقلص الى الضعفين عدد ممثلي بولونيا والقوقاز . وكان من نتيجة هذا القانون أن الدوما الثالثة التي انتخبت بموجبه واجتمعت في ١٩٠٧ كانت كاديتية مغرقة في الرجعية .

٨٠ – (إغتنوا تصبحوا ناخبين) ـ كلمات غيزو في رده على طلب تخفيض رسم الانتخاب .

٨١ – دوما بوليغين ـ « هيئة تمثيلية » استشارية وعدت الحكومة بدعوتها في عام ١٩٠٥ . اعدت قانون الدوما لجنة برئاسة بوليغين وزير الداخلية ، ومنحت حقوق الانتخاب إلى الاقطاعيين والرأسماليين وعدد قليل من الفلاحين اصحاب الاراضي الصغيرة. خصص في هذا القانون ٥١ مقعداً من أصل ٤١٢ مقعداً للفلاحين ، أما العمال والمثقفون الديمقراطيون والنساء والعسكريون وعدد من القوميات الأخرى فلم يعطوا حق الانتخاب . قاطع البلاشفة هذه الدوما ولم تستطع الحكومة دعوتها إلى الاجتماع . قضت ثورة ١٩٠٥ على هذه الدوما .

٨٢ – يدور الحديث هنا عن سفر وفد يمثل اعضاء الدوما من اليمينيين المعتدلين حتى الكاديت ، وعن خطاب زعيم حزب الكاديت ميلوكوف الذي ألقاه في حفلة أقامها رئيس بلدية لندن على شرف الوفد . قال ميلوكوف :

« مادامت في روسيا جمعية تشريعية تشرف على الميزانية ، فإن المعارضة تبقى معارضة جلالته لا معارضة لجلالته » . وقد سهل هذا الخطاب على القيصر الحصول على قروض أجنبية .

٨٣ - جماعة الفبيريود - جماعة تضم أعضاء المجموعة المعادية للحزب والبلاشفة من تصفويين وبناة الله وانصار نظرية التجريبية الاحادية - تشكلت هذه الجماعة عام ١٩٠٩ بمبادرة من بوغدانوف . كانت لها جريدتها الناطقة باسمها هي « فبيريود » (إلى الأمام) ومن هنا هذه التسمية جماعة فبيريود أو الفبيريوديون .

اتحد الفبيريوديون مع المناشفة عام ١٩١٢ ضد البلاشفة في كتلة واحدة معادية للحزب (كتلة آب) . انهار الفبيريوديون بالفعل عام ١٩١٣ . وانتهوا نهائياً عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط .

٨٤ - الأوتزوفية اتجاه انتهازي ظهر في صفوف البلاشفة بعد ثورة عام ١٩٠٥ يدعو إلى سحب البلاشفة من الدوما ورفض الأشكال الشرعية في نشاط الحزب. كان هذا التياريطبق بالفعل سياسة تهدف إلى عزل الحزب عن الجماهير .

٨٥ - « البروليتاري » صحيفة غير شرعية اسسها البلاشفة بعد المؤتمر الرابع للحزب. كانت لسان حال البلاشفة عملياً. صدرت منذ عام ١٩٠٦ وحتى عام ١٩٠٩ في فنلندا أولاً ثم في جنيف وباريس. كان لينين رئيس تحريرها الدائم.

٨٦ - العبارة مأخوذة من اسطورة شيدرين الهجائية « الليبرالي » .

٨٧ - « البرافدا » (الحقيقة) صحيفة يومية شرعية ذات اتجاه بلشفي صدرت منذ ٥ ايار ١٩١٢ . كان لينين يضطلع بمهمة إدارتها فكرياً ويكتب فيها يومياً تقريباً ويعطي توجيهاته لهيئة التحرير كما نشر فيها غوركي بعضاً من مؤلفاته .

كانت البرافدا على الدوام عرضة للملاحقات . في ٢١ تموز ١٩١٤ اغلقت الصحيفة. استأنفت صدورها بعد ثورة شباط البرجوازية الديمقراطية

عام ١٩١٧. وأصبحت منذ ١٨ آذار من العام نفسه الناطقة الرسمية الرئيسية باسم الحزب. انضم لينين إلى هيئة تحرير البرافدا بعد وصوله إلى بطرسبرغ.

اضطرت الصحيفة إلى تغيير اسمها عدة مرّات بسبب ملاحقات الحكومة الموقتة وذلك ما بين تموز وتشرين الأول عام ١٩١٧ . وبعد انتصار الثورة الاشتراكية استعادت اسمها السابق .

٨٨ – الزوباتوفية أو الاشتراكية البوليسية – تنظيم للاتحادات العمالية قام به البوليس بمبادرة زوباتوف رئيس الامن في موسكو . كان الهدف من هذا التنظيم تحويل العمال عن النشاط الثوري . اعتبر البلاشفة أن من الضروري اشتراك العمال في هذه الاتحادات ليتمكنوا من فضحها واستمالة العمال إلى النضال الثوري .

٨٩ – الغابونية شكل من اشكال الزوباتوفية . نظم الخوري المستفز غابون جمعيات عمالية بتفويض من الشرطة . كان الهدف المعلن من انشاء هذه الجمعيات تلبية مطالب العمال الدينية والأخلاقية والثقافية والتنويرية . قاد غابون مسيرة عمالية لتقديم التماس إلى القيصر في ٩ كانون ثاني ١٩٠٥ . كانت المسيرة ذات اغراض استفزازية . وقد اطلق البوليس النار على المتظاهرين بأمر من القيصر نيقولا الثاني . وردّ المتظاهرون على النار بإقامة المتاريس . وهكذا كان التاسع من كانون الثاني بداية الثورة الروسية الأولى .

٩٠ – (بشير روسيا) مجلة سياسية وأدبية صدرت في موسكو ثم في بطرسبرغ من عام ١٨٥٦ حتى عام ١٩٠٦ . رأس كتكوف تحريرها منذ عام ١٨٥٦ حتى ١٨٨٧ . كان اتجاه الصحيفة ليبرالياً معتدلاً في أول الأمر ، ثم اصبحت لسان حال الرجعية الاقطاعية منذ ستينات القرن الماضي .

٩١ – يقصد لينين مقالاته التي ظهرت في « البروليتاري » عام ١٩٠٨ .

٩٢ – اتحاد الشعب الروسي منظمة رجعية متطرفة جداً تضم انصار الملكية تشكلت في تشرين الثاني عام ١٩٠٥ لمكافحة الحركة الثورية . كانت تضم الاقطاعيين وكبار اصحاب العقارات وكبار رجال الشرطة والدين والبرجوازية الصغيرة في المدن وعناصر اجرامية . كان للاتحاد صحافته وكان يعتمد الإرهاب وسيلة لتحقيق أغراضه .

انقسم الاتحاد إلى منظمتين بعد طرد الدوما الثانية : احداهما برئاسة بوريشكيفتس والأخرى برئاسة دوبروفين . صفي الاتحاد اثناء ثورة شباط عام ١٩١٧ .

٩٣ – يدور الحديث هنا عن الوقائع التالية : عقدت في موسكو فيما بين شهري تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٠٨ اجتماعات مغلقة بين كبار الصناعيين وبين زعماء الكاديت .

في تشرين الأول عام ١٩١٠ تخلى عضو الدوما الثالثة غولوفين عن عضويته في المجلس حتى يستطيع المشاركة في التزام الخطوط الحديدية . وفي آذار عام ١٩١٢ تولى ماكلاكوف على الرغم من عضويته النيابية الدفاع عن تاغييف احد كبار رجال صناعة النفط المتهم بتعذيب احد موظفيه المهندس بيبوتوف .

٩٤ – ايلين كي كاتبة سويدية برجوازية صاحبة كتب في مسائل الحركة النسائية وتربية الأطفال .

٩٥ يقصد لينين المناشفة من جماعة « الإسكرا » الجديدة الذين حاولوا تبرير تكتيكهم الانتهازي الانشقاقي في « الإسكرا » وغيرها .

٩٦ – « التحرير » مجلة نصف شهرية كانت تأخذ بموقف البرجوازية الملكية الليبرالية . صدرت من عام ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ خارج البلاد . شكل محرروها نواة حزب الكاديت .

٩٧ – يقصد لينين رواية فينيتشنكو « وصايا الآباء » . فينيتشنكو كاتب اوكراني (١٨٨٠ – ١٩٥٠) .

★ ★ ★

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المسائل العامة	**٣**
مصادر الماركسية الثلاثة ومكوناتها الثلاثة	٥
من كتاب « المادية والتجريبية الانتقادية «	١٢
اسهام في مسألة الديالكتيك	٣٠
الدفاتر الفلسفية	**٣٥**
من ملخص كتاب هيغل « علم المنطق »	٣٦
من ملخص كتاب ارسطو « الميتافيزيكا »	٤٠
من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »	٤١
من مؤلفه « من هم اصدقاء الشعب » وكيف يحاربون الاشتراكيين الديمقراطيين	٤٢
من مقال « المحتوى الاقتصادي للشعبية ونقده في كتاب السيد ستروفي	٤٧
من مؤلف المسألة الزراعية و « نقاد ماركس »	٤٩
التنظيم الحزبي والأدب الحزبي	٥١
من مقال « الحزب الاشتراكي والثورية غير الحزبية»	٥٨
لمصلحة من ؟	٦٤
من مقال « الاحصاء وعلم الاجتماع »	٦٦
الثقافة القومية من مقال « ملاحظات انتقادية حول المسألة القومية	٦٨
بصدد كرامة الروس القومية	٨١
من كتاب « ما العمل ؟ »	٨٦
دور مختلف الفئات والطبقات في حركة التحرر	٨٧
من ماضي الصحافة العمالية في روسيا	٩١
من كتاب « افلاس الاممية الثانية »	١٠٢
من كتاب « مرض اليسارية » الطفولي في الشيوعية	١٠٤

الموضوع	الصفحة

في الشعبيين والديمقراطيين الثوريين	**١٠٧**
من مقال « المحتوي الاقتصادي للشعبية وانعكاسه في كتاب السيد ستروفي»	١٠٩
من مقال « أي تراث نرفض ؟	١١٢
من مؤلف « ما العمل ؟ »	١٣٨
من مقال « اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية	١٤١
النظرة الماركسية إلى المسألة الزراعية في أوروبا وفي روسيا	١٤٣
من مقال « الاشتراكية البرجوازية الصغيرة والاشتراكية البروليتارية »	١٤٧
من مقال « بليخانوف وفاسيليوف »	١٤٩
من مقال « عندما تسمع حكم الغبي »	١٥١
من أي زاوية انتقد ن . غ . تشرنيشفسكي الكنطية	١٥٢
الدفاتر الفلسفية (من ملخص كتاب فيورباخ « محاضرات في ماهية الدين »)	١٥٥
من مقال « في سبيل أي شيء نناضل »	١٥٦
ملاحظات على كتاب بليخانوف « ن . غ . تشرنيشفسكي »	١٥٧
من مقال « تصفويونا »	١٦٢
« الاصلاح الزراعي » والثورة البروليتارية الفلاحية	١٦٤
في ذكرى غرتسن	١٧٥
طوباوتيان	١٨٤
من مقال في « الشعبية »	١٩٠
الشعبيون عن ن . ك . ميخايلوفسكي	١٩٢
اجتماع سوفييت بيتروغراد (من ردّ على سؤال خطي)	١٩٧
من خطاب « خداع الشعب بشعاري الحرية والمساواة »	١٩٨
من مقال « في التعاون »	٢٠٠
في تولستوي	**٢٠٣**
ليف تولستوي مرآةً للثورة الروسية	٢٠٥
ل . ن . تولستوي	٢١١

الموضوع	الصفحة

ل . ن . تولستوي والحركة العمالية المعاصرة	٢١٧
تولستوي والنضال البروليتاري	٢٢١
تولستوي وعصره	٢٢٣
من مقال « حول الحملة الانتخابية والبرنامج الانتخابي »	٢٢٨
من مقالات وخطب ورسائل ما قبل أوكتوبر	**٢٢٩**
من مقال « اتجاه مفهوم في الاشتراكية الديمقراطية الروسية »	٢٣٠
في ذكرى الأمير غيدين (ماذا يعلم الشعب « ديمقراطيونا » اللاحزبيون ؟)	٢٣٢
بصدد « الفيخي »	٢٤١
من مقال « جماعة فيبريود »	٢٥١
حملة أخرى على الديمقراطية	٢٥٥
نقد كتاب روباكين « بين الكتب »	٢٦٩
إلى إ.ف . أرمند	٢٧٣
إلى إ.ف . أرمند	٢٧٥
من رسالة إلى م . أ . أوليانوفا	٢٧٩
من رسالة إلى م . أ . أوليانوفا	٢٨٠
من رسالة إلى أ . ف لوناتشارسكي	٢٨١
من رسالة إلى أ . ف . لوناتشارسكي	٢٨٢
« دوشيتشكا » الاشتراكية الديمقراطية	٢٨٣
من رسالة الى هيئة تحرير البرافدا	٢٨٤
من رسالة إلى إ . ف أرمند	٢٨٥
ملاحظات	٢٨٧

★ ★ ★

العام الدولي للكتاب

١٩٧٢

تم طبع هذا الكتاب من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية بمناسبة العام الدولي للكتاب .

٢٠٠٠ / ١٢ / ١٩٧٢

نضع بين أيدي القراء الوثائق الكاملة لمفهوم لينين حول مسائل الأدب والفن وعلم الجمال، ولآرائه حول الأدباء والشعراء في روسيا وخارجها، ممن قرأ لهم وأبدى ملاحظات حول نتاجهم .

ان كتاب « لينين في الأدب والفن » ، المترجم عن اللغة الروسية مباشرة، يرتدي أهمية خاصة بالنسبة لمجموع أعماله وكذلك بالنسبة للقارىء العربي ، لأنه ينشر للمرة الأولى في اللغة العربية .

وقد ضم الكتاب كل ما قاله او كتبه لينين ، وكل مادونه على شكل ملاحظات أو هوامش في مؤلفاته ورسائله حول المسائل الأدبية والفنية .

مطبعة وزارة الثقافة

دمشق ١٩٧٢

طبع في لبنان

سعر النسخة

٣٥٠ ق.س.ل